مجلّة

المجمع الجزائري للّغة العربيّة

مجلة لغوية علمية محكمة تصدر عن المجمع الجزائري للغة العربية

العدد الحادي عشر السنة السادسة جمادى الثاني / رجب 1431 - جوان 2010

مجلة المجمع الجزائري للغة العربية

العدد 11 السنة السادسة : جمادى الثانية / رجب 1431 جوان 2010

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة المجمع الجزائري للغة العربية

مجلة لغوية علمية مُحكمة يصدرها المجمع الجزائري للغة العربية

المدير المسؤول

د. عبد الرحمن الحاج صالح

رئيس التحرير

عثمان شبوب

اللجنة العلمية

د. صالح بلعيد	د. محمد صاري
د. أحمد حساني	د. التواتي بن التواتي
د. بشير إبرير	د. عبد الجليل مرتاض

عنوان المراسلة : 06 شارع العقيد بوقرة ـ الأبيار ـ الجزائر

البريد الالكتروني : aala@wissal.dz

هاتف : 213 021.23.07.90 - الفاكس : 213 021.23.07.81

* المقالات التي ترد إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر
* كل باحث مسؤول عن آرائه

محتويات العدد

1 ـ الرصيد اللغوي للطفل العربي وأهمية الاهتمام بمدى استجابته لحاجاته في العصر الحاضر

أ.د عبد الرحمن الحاج صالح 9

2 ـ صلة التراث اللغوي العربي باللسانيات

د. مازن الوعر 29

3 ـ اختلاف لهجات العرب في الهمز والتليين وعلاقتها بالقراءات

د. التواتي بن التواتي 51

4 ـ إحياء التراث وتحقيقه ونشره

د. صلاح كزارة 85

5 ـ الرائد المعجمي أبو نصر الجوهريّ النيسابوري

د. ابن حويلي ميدني 125

6 ـ مجمع اللغة العربيّة في رحلته مع التراث

د. نزار أباظة 163

7 ـ قراءة في مخطوطات المكتبة الوطنية الجزائرية

د. محمد عيسى وموسى 185

8 ـ البنية الصرفية وأثرها في التعبير الاستعاري

د. خالد بوزياني 207

الرصيد اللغوي للطفل العربي وأهمية الاهتمام بمدى استجابته لحاجاته في العصر الحاضر

الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح

رئيس المجمع الجزائري للغة العربية ـ الجزائر

إن من أهم ما يطرحه تعليم اللغات من المشاكل يكمن في اختيار المادة اللغوية والبنى والأساليب اللغوية التي يحتاج إليها المتعلم في حياته اليومية وحياته المهنية. وتفطّن أهل الاختصاص في تعليم اللغات منذ زمان بعيد إلى ما يتصف به هذا التعليم من الحشو فيما يخص المفردات ومن الفقر أيضا (من جانب آخر) فيما يخص المفردات والتراكيب التي يحتاج إليها المتعلم. وظهرت في أوربا محاولات كثيرة في النصف الأول من القرن الماضي وخاصة في الحرب العالمية الثانية لإصلاح هذا الخلل بجعل ما يحتوي عليه التعليم اللغوي يستجيب لاحتياجات المتعلم ولا يكتفي بجانب السلامة اللغوية. وقد ظهرت أيضا محاولتان في البلدان العربية في السبعينيات ومن ذلك مشروع الرصيد اللغوي. وسنتطرق إلى موضوع الرصيد اللغوي فيما يلي مع تقديمنا (لمن يهمه الأمر) لبعض الاقتراحات لتطوير الرصيد -بما يقتضيه

التطور الفكري والحضاري وتقديم خطة لمشروع جديد لاستثماره استثمارا عقلانيا وبالتالي مفيدا.

يعود اهتمام المسؤولين عن التربية في البلدان العربية بمفردات اللغة العربية التي يتعلمها الطفل العربي أولا إلى اقتراح الأمانة العامة لجامعة الدول العربية لما أسمته بمشروع المفردات المدرسية وذلك في مؤتمر التعريب المنعقد في سنة 1961. وكان يرمي إلى حصر الألفاظ التي يكثر تداولها بين تلاميذ المرحلة الأولى من الابتدائي. ولم يكن لهذا المشروع أي حظ من التنفيذ حتى الإعداد له لم يتم إلى أن حصل حادث هام في اجتماع الجزائر لوزراء التربية للمغرب العربي في سنة 1967. فقد اقتُرحت فيه طريقة كاملة في كيفية إنجازه وحُدّدت أهدافه بالدقة المطلوبة. فاتضح، لأوّل مرة، ما يقصد من هذا المشروع الخطير وكيف تكون طريقة إنجازه. واتفق على تسميته بمشروع الرصيد اللغوي الوظيفي. وتقرّر أن يبدأ في إنجازه على الفور. فشُرع في العمل (بين بلدان ثلاثة وهي تونس والجزائر والمغرب). وانتهى العمل في 1972 بعد أن لاقى المنجزون الصعوبات الكثيرة من جرّاء عدم إدراك المسيرين الكبار لغرض هذا العمل العلمي وما يتطلبه من جهود. وأقر الوزراء الثلاثة بعد إنجازه إدراجه في التعليم ابتداء من 1975.

ونُشر الرصيد المغاربي في كل من البلدان الثلاثة (وقامت بذلك وزارة التربية في كل منها)، وفي نفس العام أبدت المنظمة العربية للتربية

والثقافة والعلوم رغبتها في أن توسع الاستفادة من مثل هذا الرصيد إلى جميع البلدان العربية. فعُرض مشروع بهذا الاسم على المجلس التنفيذي للمنظمة فوافق على تبنّيه وأقرّ الطريقة التي اقترحت له. فأنشأت المنظمة لجنة للإشراف على مشروع الرصيد اللغوي العربي تتكوّن من ممثل لكل بلد مشارك. ويشرف هذا الممثل على لجنة محلية وهي التي كلفت بإنجاز العمل في بلدها.فعينت كل وزارة تربية في كل بلد مجموعة من الخبراء للقيام بما قام به إخوانهم في المغرب العربي . واجتمعت لجنة الرصيد لأول مرة في يوليو 1976 بمقر معهد العلوم اللسانية والصوتية بالجزائر وتبنّت اللجنة في هذا الاجتماع وبعد المناقشة طريقة حصر المكتوب، ثم في 1977 تبنت أيضا طريقة حصر المنطوق. وههنا ظهرت الصعوبة فإن بعض إخواننا من المربّين لم يتبينوا ما السرّ في التسجيل لما ينطق به الطفل و من يدخل في بيئته. ثم لم يكونوا تعوّدوا، في الحقيقة، على النظر العلمي في هذا الواقع. ولم يكونوا بالتالي مستأنسين بمناهج البحث الميداني والإحصاء لهذه المعطيات اللغوية. وتواصل العمل العلمي على الرغم من ذلك سنوات مع المراقبة الدورية في كل سنة لكل ما قاموا به من تسجيل المنطوق على المسجلات ثم نسخه بكتابة مناسبة في بطاقات خاصة. ثم أُحصي كل هذا بالحواسيب في معهد العلوم اللسانية بالجزائر. ثم جاء وقت الاختيار الموضوعي لمحتوى الرصيد. فانعقدت عدة اجتماعات إلى أن خرج الرصيد إلى الوجود.

وانتهى العمل في 1983. أما استثماره في التعليم فسنشير إلى ذلك فيما بعد[1].

فماذا كان يقصد من الرصيد اللغوي؟ وإلى ماذا كان يهدف؟

جاء في تحديد الرصيد ما يلي:

«يهدف الرصيد اللغوي العربي إلى:

«ضبط مجموعة من المفردات والتراكيب العربية الفصيحة أو الجارية على قياس كلام العرب التي يحتاج إليها التلميذ في مرحلة التعليم الابتدائي والثانوي[2] حتى يتسنى له التعبير عن المفاهيم الحضارية والعلمية الأساسية التي يجب أن يتعلمها في هذه المرحلة من التعليم» (جاء ذلك في تقرير اللجنة الفنية المكلفة بوضع تفاصيل المشروع بتاريخ 6 يونيو 1976 بعد اجتماعها الأول بالجزائر).

فهذا الاهتمام بمحتوى ما ينبغي أن يدخل في تعليم الطفل -على اختلاف المواد- من مفردات لغوية هو اهتمام قبل كل شيء بمردود التعليم اللغوي وغير اللغوي. فكثيرًا ما يشكو الناس[3] من تدني التعليم

(1) هذا وكان لي الشرف أن قدمت بحثا عن هذا العمل -سواء منه المغاربي والعربي- في مؤتمر اللسانيات التطبيقية في بروكسل في عام 1984.وكذلك فعل الأستاذ أحمد العائد المسؤول التونسي للرصيد المغاربي بالنسبة للرصيد المغاربي في مؤتمر المستشرقين في 1975.

(2) كان هذا هو الهدف في البداية إلا أن صعوبة العمل الجماعي المنظم والإصرار على مراعاة منهجية علمية دقيقة اضطر المسؤولين على الاكتفاء على المفردات وعلى المرحلة الابتدائية.

(3) وما يزالون يشكون ولن تزول شكواهم مادام المسؤولون غير مبالين بأهمية البحوث العلمية الميدانية وفوائدها العظيمة لمضاعفة مردود التعليم. فأما الرصيد اللغوي العربي فلم يتم استغلاله إلا في جهات قليلة .

اللغوي والتعليم عامة ولا شك أن من أسباب هـذا التدني هو الضعف في تعليم اللغة مع أنها الأداة الأساسية في إبلاغ المعلومات. فإن قصّر المتعلم في استعمالها لضعف تحصيله لها قصّر أيضا في تحصيل جميع العلوم والفنون. فالصعوبة في تحصيل الملكة اللغوية لا تتركز فقط في صعوبة تعلم القواعد النحوية بل أيضا في عدم استجابة المادة اللغوية التي يجدها المتعلم في نصوص الدرس اللغوي وغيره لما يتطلبه التعليم الناجع المفيد. فبما تتصف هذه النصوص التي تقدم للطفل الصغير؟

فكإجابة عن هذا التساؤل يجدر بنا أن نذكر ما قاله الاختصاصيون من المشرفين على مشروع الرصيد في مقال لهم تحت عنوان **المشاكل التربوية اللغوية المتعلقة بالرصيد الذي يتعلمه الطفل العربي.** جاء فيه ما يلي:

«إن تصفّح العلماء لحصيلة المفردات التي تقدم الآن للطفل في الوطن العربي قد أظهر عيوبا ونقائص كبيرة في هذه الحصيلة. أما من حيث الكم فقد لوحظ أن الكمية من الألفاظ التي «يتناولها» المتعلم بالنسبة إلى مدرسة عربية أخذت كنموذج في السنة الرابعة من الابتدائي فقط، من خلال الدروس ومطالعـاته للكتب المقررة يبلغ ما يقرب من 2500 مفردة. فهذه الكثرة الهائلة إذا اقترنت بكثرة التراكيب وتنوعها تنوعا كبيرا من جهة، وغرابة المفاهيم التي تحملها هذه الألفاظ الجديدة بالنسبة للطفل من جهة أخرى صارت دافعا قويا على توقف آليات الاستيعاب الذهني للطفل. أما من حيث الكيف فقد لوحظ أيضا أن الكثير من هذه

المفردات لا تستجيب لما يحتاج إليه الطفل في حياته اليومية (والمستجيب له بالفعل في هذا الميدان وفي الوقت الراهن هي، مع الأسف، ما يجده في اللغات الأجنبية وما تقتبسه منها العاميات المحلية). هذا وقد يكثر فيها المترادف من الألفاظ ونعني بذلك الكلمات التي تؤدي معنى واحدا وتدرج في الكتاب الواحد وأحيانا في الدرس الواحد وقد لا يحتاج المتعلم إلى جميعها. ثم إن هناك مفاهيم حضارية تنتمي إلى عصرنا الحاضر ومسميات كثيرة كمثل الأدوات والملابس والمرافق المختلفة فلا يجد لها الطفل فيما يتلقاه في المدرسة لفظا عربيا أصلا يعبر به عنها وهذا خطير جدا. وقد أُحصيت هذه الأشياء منذ زمان في عدد من الكتب المدرسية العربية (من نفس المستوى) وتبين للاختصاصيين أن عدد المفردات التي وجدت **في هذه الكتب** (هي وحدها) يبلغ مُعدَّلا يقرب من الألفين **غير أنها لا تغطي وليس تحتها إلا 600 مفهوم!** فهذا يدل على وجود حشو يتمثل في كثرة المترادفات من جهة ومن جهة أخرى على الفراغ المهول الذي تتسم به المادة اللغوية الملقنة في مستوى المعاني والمفاهيم. ثم لوحظ زيادة على كل ما ذكرناه أن اللفظ الواحد قد يستعمله مؤلفو الكتب (وهم واضعو النصوص في هذا المستوى) للدلالة على مسميات مختلفة والسبب في ذلك هو أنهم لم يجدوا في الاستعمال العادي ألفاظا عربية مختلفة يختص كل واحد منها بمسمى واحد. وهذا يعتبر عيبا في مصطلحات العلوم والفنون بل وفي لغة التعليم التي لا تحتمل الغموض والاشتراك الملبس.

الحل: ضبط الرصيد اللغوي الأمثل:

«فالشعور بكل هذه العيوب وهذه النقائص قد أدى ببعض المربين وعلماء اللغة العرب إلى القيام بأعمال علمية في المغرب العربي ثم تحت إشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. ووُضع لهذا الغرض برنامج في سنة 1976. وستكون نتيجة هذه الأعمال وثيقة موحدة مفصلة **بحسب الأعمار** أطلقوا عليه اسم الرصيد اللغوي .

2) مزاياه وفوائده:

أ- سيتم بهذا الرصيد الوظيفي [إذا استثمر كما ينبغي] توحيد لغة الطفل العربي والشباب العرب عامة. فبما أنه قد اشتركت في استخراجه وتحريره وضبطه جميع الدول العربية واتفقت هذه الدول على إدخاله في التعليم والاعتماد عليه في تأليف الكتب المدرسية وتسييره في جميع المؤسسات ذات التأثير على الجمهور فإنه سيتم بذلك توحيد لغة المتعلمين وذلك من موريتانيا إلى الخليج.

ب- سيستجيب لما تقتضيه نواميس التربية السليمة وحضارة العصر الحديث وذلك لأنه:

لا يشتمل على أكثر مما يحتاج إليه الطفل في سن معينة من عمره (وفي مرحلة معينة من مراحل تعلمه) ولا ينقص عن هذا القدر أو بعبارة أخرى لا يقل عن الحد الأدنى الذي يحتاج إليه التلميذ في طور من أطوار عمره ولا يتجاوز الحد الأقصى الذي يكون ما بعده سببا في تضجر التلميذ

وعيافه للغة نفسها (فيتفادى بذلك الحشو الذي يثقل ذاكرة الطفل بما لا يحتاج إليه من الألفاظ الغريبة والمترادفات الكثيرة للمفهوم الواحد والألفاظ العُقْمية التي اختفت مفاهيمها من الحياة اليومية والعصرية.

وينبني هذا التصور وهدف الرصيد على تثبيت الصلة بين اللغة والمدرسة من جهة وبين لغة التخاطب اليومي من جهة أخرى بحيث يستطيع التلميذ أن يعبر عن كل ما يختلج في نفسه وعن متطلبات العصر في يسر وسهولة (إذ يجب أن يغطي الرصيد كل الشبكة من المفاهيم التي يجب على الطفل أن يكتسبها وتمده المدرسة كذلك بلفظ عربي يعبر به عن المفهوم الذي لا يجد له لفظا فصيحا فيما يسمعه ويقرأه).

يتفادى به أيضا الاشتراك في اللغة العلمية والفنية ومن ثم يتفادى الغموض وعدم الدقة (ونعني بذلك أن لا يكون في القسم العلمي والتقني من الرصيد لفظ مشترك فيه أكثر من معنى وخاصة ما يدل على المسميات التي يجب أن تختلف أسماؤها كأنواع الحيوانات والنباتات والأدوات والأجهزة وغير ذلك وكثرة المشترك هو السبب القريب لعدم الدقة التي نلاحظها في كتابات التلاميذ وخصوصا في تعبيرهم عن المفاهيم الخاصة بالحياة المعاصرة.

ويُستوفى بالرصيد شرط لازم من شروط التربية الناجحة وهو التدرج والتسلسل المنطقي للعمليات التعليمية إذ يمكن به أن تخطط المادة الملقنة نفسها بتوزيع الألفاظ على مختلف الصفوف وبحسب ما تقتضيه سن المتعلم ومداركه ومستواه الذهني الطبيعي.

فيعتمد في ذلك على اللفظ الفصيح المشهور وعلى القدر المشترك منه في الاستعمال بين البلدان العربية.

ثم إن هذا لا يمنع أن يتعلم الغريب والشاذ وشوارد اللغة ونوادرها كل من يرغب في ذلك أو يريد أن يتخصص في فقه اللغة فيما بعد إلا أن هذا الرصيد هو الذي يحتاج إليه أي متكلم في عصرنا في حياته اليومية و هو يلائم سن التلميذ ومدى نضجه العقلي ويستجيب لمتطلبات العصر والدقة العلمية ويسهّل الاتصال بين جميع العرب فهذا القدر هو الذي يجب أن يتعلمه المتعلم قبل أي نوع آخَرَ. انتهى (4).

فالعيبان الأساسيان اللذان تتميز بهما النصوص المدرسية (في كل ما ليس علميا وفي بعض الكتب العلمية أيضا) هما كثرة المفردات التي لا يحتاج إليها الطفل -وحتى الراشد- وفي الوقت نفسه غياب لأسماء المسميات الحديثة من الحياة العامة. فهناك حشو وخصاصة في الوقت نفسه. وهذا في نظرنا، هو أحد الأسباب في صعوبة تكيّف العربية الفصحى ومواكبتها للعصر وما يترتب على ذلك من القصور -ويبدأ ذلك من المدرسة- بل وإقصائها من تعليم العلوم والتكنولوجيا في الجامعات (وليس هو السبب الوحيد). وذلك لأن ما يتعلمه الأطفال في المدرسة من الألفاظ التي تدل على مفاهيم ضرورية للحياة هو شيء قليل فيبحث الطفل عنها في لغة أخرى ويستنقص بذلك العربية الفصحى التي

(4) وثيقة المنظمة العربية حول الرصيد. تونس 1981.

يتلقاها في المدرسة بل وينفر منها لحشوها و يزدريها لنقائصها. وهذا ذنب الناطقين بهذه اللغة لا ذنب اللغة الفصحى.

ولابد من التوضيح أن المشرفين على الرصيد لم يعنوا من تصفية لغة التعليم من الحشو إخراج كل مترادف فقد كان في علمهم أن استعمال اللغة في جميع الأحوال الخطابية يحتاج فيه المتكلم أو الكاتب إلى رصيد وظيفي يستجيب لجميع الحالات التي يكون عليها المتكلم والكاتب. وهذا يقتضي أن تكون فيه زيادة تتجاوز القدر المضبوط. فالمتكلم إنسان وقد تخونه ذاكرته فيعجز عن التعبير فيُفحم لعجزه في بعض الحالات عن استحضار الكلمة اللائقة بالمقام. وإنما مقصودهم، في الواقع، هو أن يتجنّبوا في الرصيد الحشو بمعنى الزائد على الحاجة في إبلاغ الغرض. وهذا معنى الحشو عند علماء البلاغة. وليس هو الزيادة المفيدة التي لها وظيفة وذلك مثل: قام ونهض، ونام ورقد، وطلع وصعد وارتقى، وجلس وقعد وغير ذلك فكل هذه الألفاظ كثيرة التداول-حتى في المنطوق- والجمع بينها في اكتسابها ليس حشوًا وقد يكون بين كل منها ومرادفها فارق دقيق قد اختفى الآن أكثره ولا يعرفه إلا من اطلع على كتب فقه اللغة القديمة. وأمثال هذه المترادفات ضرورية في أي خطاب كان. فالزيادة الوظيفية غير الحشو وهي ظاهرة جدّ طبيعية. أما المشترك من الألفاظ فهو أيضا طبيعي. فما من لغة في الدنيا إلا ولها مشترك وقد يفوق غيره عددا ولولا هذا لكان استعمال اللغة والتعامل معها مكلِّفا جدّا. والمعروف عن عمل الإنسان أنه مبني كله على الاقتصاد في المجهود. ويمس الاقتصاد

ههنا المجهود العضلي والمجهود الذاكري. وهذا يعمّ كل خطاب في أي حال من أحواله وفي أي موضوع من موضوعاته. فإن كانت اللغة تمتاز كلها باشتراك المعاني في كل ألفاظها العادية -وهو سرّ من أسرارها- فإن استعمالها في حالة خطابية معينة وهو جانب آخر لا يحتمل أبدا الاشتراك. ويعرف كل واحد أن الكلمة لا يكون لها في الكلام المحصَّل إلا معنى واحد وهو الذي يقصده المتكلم وذلك بفضل السياق والقرائن الحالية. أما اللغة العلمية فتحتاج من جهة أخرى إلى الدقة في أقصى صورها ولا تحتمل اشتراك المعاني في اللفظ الواحد لا في الخطاب فقط بل في وضع الكلمة المعجمي أيضا. فهذا لا يتناقض مع وجود المشترك -وشموله في اللغة- لأن كل علم يخصص أصحابه بعض ألفاظه -وهي مصطلحاته- لمعاني علمية وتقنية بالوضع أي بإحداث لفظ جديد أو باقتباس لفظ من اللغة العادية وإعطائه مدلولا واحدا في داخل هذا العلم هو وحده.

أما فيما يخص الألفاظ التي خرجت عن الاستعمال منذ زمان بعيد وصارت من غريب الألفاظ فإن كانت تدل على مسمى قد اندثر هو أيضا فلا يدخل في الرصيد إلا عدد قليل منها وبشرط أن يكون هذا المسمى اشتهر في التاريخ وخاصة في التراث العربي الإسلامي وتبقى لها صفة الطرافة التاريخية كعبارة عِمْ صباحًا أو عبارة طويل النجاد أو ما جاء في الأمثال المشهورة. وهذا لا يستعمل في الأحوال الخطابية في مكان ما يرادفها بل ولا بد من أن يتحاشى في الرصيد الكثير من الغريب الذي لا يعرفه المثقفون أنفسهم. فهذا أيضا حشو.

أما عن النقص الذي تتصف به لغة النصوص التي تقدم للطفل فهو يخص غالبا الحياة المعاصرة. والطامة الكبرى في ذلك أن أكثر الناس لا يشكون من هذه الخصاصة بل وقد لا يشعرون بها لأنهم تعوّدوا أن يعبروا عن هذه الأشياء بالعامية وحدها وأحيانا باللفظ الأجنبي لأنه صار ميزة يتميزون بها -ويتباهون بها أحيانا. فجعلوا دور العربية الفصحى هو دور اللغة الأدبية أو الدينية بل وأبعدوها من ميدان النشاط المنتج ومن العلوم والتكنولوجيا خاصة، دون ما شعور منهم.

وقد كان العلماء في القرن الماضي وما قبله يحاولون أن يضعوا الألفاظ الجديدة لكل ما يحيط بهم من المسميات المحدثة. بل ووضع الشعب نفسه الكثير من الألفاظ لتغطية حاجاته اللغوية. وكم من كلمة فصيحة تستعمل الآن لمسمى محدث عادي لم يقترحه العلماء ولا المجامع اللغوية كالقطار والسيارة والطيارة والحوالة والطرد وغيرها. وكان المجمعيون الأولون كأحمد الاسكندري رحمه الله وزملائه من مجمع القاهرة وأعضاء المجمع العلمي بدمشق يحاولون طيلة أعمارهم أن يجدوا لفظا عربيا قديما يمكن أن يدل ولو بالتقريب على ما أُحدث في زماننا من المسميات. فانقلب الأمر منذ أن غاب عنا هؤلاء بدعوة أن التعريب للفظ الأجنبي أي الاقتباس من لغة أجنبية هو ظاهرة عامة الوجود. فهذا صحيح إلا أن الاقتصار على الاقتباس في إثراء اللغة ثم طغيانه قد يكون سببا في تشويهها ومسخها وذلك بإزالة ما تتصف به من خصائص اشتقاقية وتصريفية قد لا يخضع لها اللفظ الأعجمي. ومن المعروف أن

النظام النحوي الصرفي هو أهم خصائص اللغة بل هو المكوّن لهوية اللغة فإذا زال أكثره زالت معه هويتها ومعها هوية الناطقين بها.

والذي امتاز به الرصيد المغاربي هو ما حاول أصحابه من سدّ للثغرات اللغوية الموجودة في لغة التعليم، فقد تكاد كتب القراءة في الابتدائي والثانوي تخلو كما سبق أن أكّدنا عليه، من كل اسم أو فعل عربي للدلالة على أقرب الأشياء اليوم مما لم يكن موجودا قديما لأن المؤلفين يريدون أن يحافظوا على العربية غيرة منهم عليها بإبعادها عن الألفاظ العامية أو الأعجمية ولم يحاول أحد منهم في الوقت الحاضر هذا أن يستبدل تلك الألفاظ غير الفصيحة بالفصيحة لأنه قد لا يجدها في الاستعمال وقد لا يجد لها ما يقوم مقامها تماما. والنتيجة هي هذا الفقر المدقع الذي أشرنا إليه فيما يخص الحياة اليومية المعاصرة وهي **كارثة عظيمة** لا يقدر لها تقدير. وعوضا أن يتهم في ذلك الناطقون باللغة العربية أنفسهم، فإنهم يتهمون،كما قلنا، اللغة العربية بعدم ملاءمتها للعصر وهي بريئة يتراءى فيها عجز أصحابها ليس إلا.

هذا ولم يتردد المشرفون على الرصيد المغاربي أن يدخلوا فيه الكثير من الألفاظ التي خرجت عن الاستعمال منذ زمان لأنها تدل على مسمّى قريب جدا من المسمى المحدث. ونجد مثل ذلك في الكثير من المأكولات والملابس والأواني والأدوات وأعمال البيت والزينة وأقسام المنزل والزخرفة وغير ذلك. ومنها ما لا يزال مستعملا في عامية بعض البلدان وهو فصيح في الأصل. ثم لجأوا أيضا إلى ما كانت المجامع تفعل

من استعمال المجاز وصيغ الكلمات الجديدة من مادة أصلية تدل على مفهوم عام يمكن أن يدخل فيه المفهوم المحدث وغير ذلك. وهذا ولم يمتنعوا من اللجوء إلى اللفظ الأعجمي إذا لاحظوا أنه تغلب على اللفظ العربي الأصيل الذي اقترحته المجامع لأنه قد يوحي لفظه وجرسه إلى المعنى لشدة امتزاجهما في أذهان الناس وقد تكسوه هالة شديدة الإشعاع ونمثل لذلك بكلمة واحدة وهي الإلكترون وما يشتق منه. وهذا أمر طبيعي إذا لم يمس سلامة اللغة وعبقريتها.

ويؤسفنا أن نقول بأن الرصيد العربي الذي ضبط بعد المغاربي لم يجرؤ أصحابه على تقديم النوع الأول من الألفاظ (المندثر منه والمشتق) لأنه غريب ظنا منهم أنه لا يُقبل عليه الناس بل وقد يستهزؤون به[5]. فهذا هو نفس الموقف الذي يقفه مؤلفو الكتب المدرسية وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق: الاشمئزاز من كل كلمة لا تدخل فيما يعرفه المؤلف (والمعلم أحيانا هو نفسه) من مفردات العربية. وهو بذلك قصير النظر جدا. فهو يتجاهل تماما ما للمدرسة من قوة في ترسيخ الألفاظ والأساليب في أذهان التلاميذ لأنها تمثل عندهم النموذج الأمثل الذي يجب احتداؤه والاعتماد عليه هو وحده. ومن لا يذكر أن هذه اللفظة أو تلك هي مما اكتسبناه في الصغر في المدرسة. ثم يتجاهل المؤلف أو المعلم ما

(5) وقد حذف آخِر مَن نظر في هذا الرصيد كل هذه الألفاظ بدعوى أنها غريبة فحذف بذلك أهم ما يهدف إليه الرصيد الوظيفي!

لوسائل الإعلام وخاصة التلفزة الآن من التأثير العميق الشامل على الناظرين وخاصة الأطفال والتأثير اللغوي والفكري هو أقواه. فالحكومة الذكية هي التي تستغل هذا التأثير، فهلا تستغله لنشر وذيوع ما يوضع من ألفاظ عربية فصيحة تقوم مقام العامية والألفاظ الأجنبية ولا سيما في لغة التخاطب؟

ثم إن كل كلمة جديدة هي غريبة فإذا دخلت في رصيد التلميذ ثم يسمعها بكثرة في التلفزة والإذاعة فقد خرجت من غرابتها.

ثم لابد من التذكير أن النصوص المدرسية(غير العلمية) نوعان: نصوص صدرت من كُتّاب وأدباء أو صحفيين أو رجال السياسة وغيرهم ونصوص يضعها مؤلفو الكتاب المدرسي. فالأولى أصيلة يتراءى فيها الاستعمال الحقيقي للغة. واللجوء إليها ضروري جدا إلا أنه قد لا يراعى في اختيارها المبادئ التربوية الأساسية ومنها ملاءمة المستوى اللغوي والفكري للمدارك العقلية للمتعلم ويصعب العثور على النصوص الأدبية الراقية التي تستجيب لهذا المبدأ (وقد وجدنا أحيانا قطعا من الشعر الجاهلي في كتب السنوات الابتدائية الأولى). ولهذا لا مانع من وضع النصوص ولكن يتم ذلك على مقاييس دقيقة. ويمكن أن يصفى النص الأصيل من غريبه وهذا أيضا يستلزم مهارة كبيرة. ويدخل الرصيد في هذا النوع من النصوص من كتب القراءة وما يقارب ذلك ولابد أن يأتي باستمرار على لسان المعلم ويسمعه باستمرار

التلميذ (فالسمع أمّ تعلم اللغات كما قال ابن خلدون) ثم نأمل أن يقبل عليه مذيعو التلفزة والمنشطون فيها حتى تتم الفائدة ودورهم عظيم جدا في ذلك.

وسنُقدم فيما يلي المنهج الذي سار عليه المنجزون للرصيد المغاربي والرصيد العربي ورأينا أن نضيف إليه بعض الأشياء نقترحها ليكون أكثر تجاوبا مع تقدم البحث العلمي. وغرضنا من ذلك هو تحديث هذا الرصيد القديم وتجديد محتواه أولاً والتفادي للقصور الذي أصابه لشتى الأسباب ثانيًا. ثم، وقبل كل شيء، **ليستثمر استثمارا كاملا في جميع البلدان العربية.**

– نبذة عن الطريقة التي اقترحتها لجنة الرصيد وعمل بها المنجزون للرصيد مع اقتراحات نعرضها على من يهمه الأمر لتحديث الرصيد واستثماره.

– المبادئ العامة:

– المرجع الأساسي هو واقع الاستعمال للطفل ولمحيطه الأقرب، والغاية هو تحديد المشترك من مفاهيمه وألفاظه في سنّ معينة من عمره والمفاهيم العلمية التي لا بد من معرفته إياها.

– من ثم تكون المعطيات التي ستجمع وينطلق منها ثلاثة: ما يقرأ الطفل من الكتب وما يكتبه وما يسمعه وما ينطق به في محيطه.

– ويعتمد على شبكة من المفاهيم العالمية الشهيرة لتغطية كل ما يحتاج إليه الطفل.

كيفية إنجازه والمقاييس:

تُحصر هذه المعطيات على شكل عينة كبيرة في كل بلد ثم يحصى تردد عناصرها في كل نوع من ذلك في كل بلد[6] ثم يقاس توزعها على البلدان العربية كلها (ورودها أو عدم ورودها وكم مرة) بالتمييز بين الفصيح وغيره.

- تحصر شبكة المفاهيم العالمية التي تمثل ما يعرفه الطفل ضرورة في البلدان الراقية من المفاهيم غير العقائدية (زيادة على المفاهيم الخاصة بالأمة العربية والإسلامية).

- تحصى كل الخانات الفارغة في المعطيات (مدونة الطفل ومحيطه) وهي الخانات التي تملأها دائما أو غالبا لفظة مغرقة في العامية (وتختلف من بلد إلى آخر ومن إقليم إلى آخر) أو ألفاظ أعجمية وقد يعثر على لفظ فصيح هنا وهناك، وذلك على مقياس الشبكة من المفاهيم المذكورة أعلاه.

- تضع لجنة من أهل الاختصاص الألفاظ التي ستملأ هذه الخانات بالبحث في التراث أو فيما وضع في زماننا أو تجتهد في وضعها بطرق الوضع المعروفة.

- يتم اختيار الرصيد بإقرار الكلمات الفصيحة أو ما هو على قياسها:

. الأكثر شيوعا والأكثر توزعا في الوطن العربي.

---

(6) فيما يخص الرصيد اللغوي العربي فقد أحصيت بالنسبة للمكتوب: 636.482 مفردة بما فيه المكرر (الكتب المدرسية وكتاب التلاميذ) وبالنسبة للمنطوق المسجل: 1.600.738 مفردة (كلام الطفل وكلام من حاوره من محيطه).

- الأكثر ترددا في النصوص بالنسبة لمرادفاتها إذا تعددت.
- ما يكون أكثر إيحاء للمعنى.
- الأكثر قبولا للاشتقاق والتصرف.

أما المفردات الجديدة المقترحة والتي لم تدخل في الاستعمال فيطبق عليها المقياسان الثالث والرابع. وتفضل الكلمة الفصيحة التي تؤدي المفهوم المحدث إذا كانت مستعملة ولو في بلد واحد (ولو في جهة واحدة) على غيرها مما وُضع.

- تقوم لجنة من العلماء في اللغة والتربية وتعليم العربية بعمل الاختيار المؤقت على هذه المقاييس. ثم تعرض بوسائل الإعلام على الجماهير من المثقفين في كل بلد (تعرض على المعلمين والأساتذة والمفتشين والمشتغلين في وسائل الإعلام) وتحصر الأجوبة ويتم الاختيار النهائي بالاعتماد على ما اختارته الأكثرية في مجموع البلدان.

هذا وتقام قائمة ألفبائية للمفردات المقترحة (بعد الاختيار الأول) على شكل معجم وبالصور وقائمة أخرى على مجالات المفاهيم (كل مفردة تدخل في مجال من الحياة العامة وتعرض هاتان القائمتان على الجمهور وعلى المعلمين والمفتشين).

أما الطريقة العلمية في التدوين والتسجيل للمعطيات الكتابية والشفاهية وطريقة استجواب الأطفال ومحيطهم وأنواع الأسئلة واختيار الأماكن والأشخاص الذين سيسجل كلامهم وأنواع الموضوعات التي

يحتوي عليها في الاستجواب فكل هذا قد أعده المنجزون للرصيدَيْن المغاربي والعربي فيمكن أن يُراجع.

ثم يتم استثمار ما اتفق عليه فيدخل الرصيد في الكتب الخاصة بالمعلم والخاصة بالتلاميذ و ينبغي أن تدخل في جميع الكتب: القراءة والتاريخ والجغرافيا وغيرها ولا يكتفي بكتاب واحد أبدا وإلا حصلت فوضى. وههنا يجب أن تلعب وسائل الإعلام دورها الحاسم في ذيوع الرصيد باستعمالها الواسع له وبعد كل سنة تقوم لجنة من الاختصاصيين بتقويم تجربة الرصيد وإثرائه من جديد وبكيفية دورية.

وبالله التوفيق

صلة التراث اللغوي العربي باللسانيات

المرحوم د. مازن الوعر- سوريا

مدخل: الحديث عن صلة التراث اللغوي العربي باللسانيات ذو شجون، ونحن نعلم أن البحث عن هذه **الصلة يشغل اللغويين العرب، ويكاد يكون برهاناً على رؤيتهم المعاصرة للسانيات العربية.**

ولكن ماهي طبيعة هذه الصلة؟ ثم كيف ننظر إليها؟

الواقع أحب أن أجيب عن هذين السؤالين في إطار أشمل وأوسع ليكون حديثنا أكثر دقة وموضوعية ذلك أنني أعتقد أن التراث اللغوي العربي ليس ملكاً للعرب وحدهم، ولكنه ملك حضارة الإنسان المعاصر. والإنسان دائماً وأبداً خارج عن نطاق الجنس والعرق والتاريخ. ومن ثم يمكنني أن أجيب عن هذين السؤالين في إطار ما يلي:

-1-ماذا نعني بالتراث اللغوي العالمي؟

-2-أين يقع التراث اللغوي العربي في خارطة التراث اللغوي العالمي؟

-3-ماذا نعني باللسانيات الحديثة؟

-4-أين تقع البحوث اللغوية العربية القديمة في خارطة اللسانيات الحديثة؟

-5-وأخيراً، هل هناك صلة بين ما فعله العرب في مجال الدراسات اللغوية القديمة وبين هذا العلم الجديد المسمى اللسانيات ثم ما طبيعة هذه العلاقة؟

1-التراث اللغوي العالمي:

من يطلع على الكتاب القيم الذي كتبه الباحث اللساني الإنكليزي ر.روبنز (R. Robins) والمسمى التاريخ الوجيز للسانيات (A short History of linguistics) سيكتشف أن تاريخ الأمم السالفة حافل وغني بالدراسات اللغوية التي تبحث في الظاهرة اللغوية من الوجهة الصوتية والتركيبية والدلالية، ثم علاقة هذه المكونات اللغوية بالعالم الذي يحيط بالإنسان. فقد لفتت الظاهرة اللغوية انتباه الإنسان منذ قديم الأزل، وجعلته يطرح الأسئلة تلو الأسئلة حولها. وسواء أقاده حدسه الطبيعي إلى الجواب الصحيح أم تجاربه العلمية المتوافرة آنذاك، فإنه قد توصل إلى حقائق عدة حول اللغة بشكل عام.

فالحضارة الهندية القديمة بحثت في الظاهرة اللغوية بحثاً مستفيضاً ولاسيما في وجهها الصوتي (Phonetic)، والحق يقال: يُعدّ الباحث الهندي الكبير بانيني (Panini) أبا الصوتيات في العالم. فمن رجع إلى بحوث هذا الرجل منذ حوالي أربعة آلاف سنة فإنه سيدهش من الدراسة الصوتية العميقة التي قام بها سواء أكانت هذه الدراسة مبنية على اللغات الهندية أم على لغات بشرية أخرى.

وقد فعل اليونانيون في الحضارة الإغريقية الشيء نفسه، إذ استفادوا من البحوث اللغوية التي سبقتهم وبنوا على تلك الدراسات ثم طلعوا بنظرات جديدة حول الظاهرة اللغوية. وما البحوث اللغوية التي قدمها أفلاطون وأرسطو والمدرسة الرواقية إلا دليل واضح على اهتمام الحضارة الإغريقية بالظاهرة اللغوية.

وإذا كانت الحضارة الرومانية قد تبنت كل الحقائق اللغوية التي أتت بها الحضارة الإغريقية فإنها قد ساهمت قليلاً في تطوير الدراسات اللغوية ولاسيما في وجهها الدلالي والبلاغي. أضف إلى ذلك أن هناك دراسات لغوية قيّمة ونافعة قامت بها الحضارات الشرقية القديمة وبالتحديد اليابان والصين وغيرهما، تلك الدراسات التي لم تصل إلينا نحن -العرب- لنتعرفها ونأخذ بها. ومن يطلع على كتاب ر.روبنز الأنف الذكر يكتشف أن هناك حقائق كثيرة أتت بها الدراسات الشرقية حول الظاهرة اللغوية.

والخلاصة: لا يمكن لظاهرة من الظواهر الإنسانية أو الفيزيائية أن تكون طفرة في تاريخ الجنس البشري وإنما هي تحول من ظاهرة إلى ظاهرة أخرى متعاقبة. وهكذا فإن السابق هو نتاج اللاحق. اللغة ظاهرة فيزيولوجية -إنسانية لاحظها الإنسان منذ أن خُلق على وجه الأرض، وقد حاول وما يزال يحاول سبرها. وهكذا فإن تاريخ الإنسان (بغض النظر عن جنسه وعرقه وأصله وفصله) مليء بالدراسات التي تناولت الظاهرة اللغوية. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما مدى صحة هذه الدراسات اللغوية التراثية العالمية وشرعيتها؟ الإجابة عن هذا السؤال

تحتاج إلى رواية ودراية لا تقل مدتها عن عشر سنوات من البحث والاستقصاء العلميْن.

2-التراث اللغوي العربي في خارطة التراث اللغوي العالمي:

لا أريد أن أقول -لأنني عربي- إن التراث اللغوي يُعد تحولاً كبيراً في مسيرة التراث اللغوي العالمي، ولكنني أقول هذا لأن الحقائق العلمية حول هذا الموضوع مثبتة تاريخياً. وأكرر ما كنت قد ذكرته في مقالات عديدة أنه لو التفت الغرب المعاصر إلى التأريخ اللغوي التراثي العربي لكان علم اللسانيات الحديث في مرحلة متقدمة عن الزمن الذي هو فيه. هذه الحقيقة شاركني فيها عالم اللسانيات الأمريكي نوم تشومسكي خلال حوار كنت أجريته معه سنة 1982. وقد نشرت ما قاله تشومسكي حول هذا الموضوع في مجلة اللسانيات الصادرة عن معهد العلوم الإنسانية والصوتية التابع لجامعة الجزائر (المجلد 6-1984). ولكن ماذا نعني بالتراث اللغوي العربي؟ الواقع أن الذي فعله النحاة العرب حول اللغة العربية يُعد جزءاً من التراث اللغوي العربي وليس كله. ذلك أن التراث اللغوي العربي هو أشمل وأوسع مما قدمه النحاة العرب أمثال الخليل بن أحمد وسيبويه وابن يعيش وغيرهم. فهذا التراث هو كل عمل عربي وضعه العرب القدماء من أجل تفسير النص القرآني. وهذا يعني أننا إذا أردنا إعادة تركيب التراث اللغوي العربي فإنه ينبغي أن نبحث في المصادر التالية:

-كتب النحو والشروح التي تناولته (نحويات أو علم التراكيب).

-كتب التجويد وفق قراءة القرآن الكريم (صوتيات أو علم الصوت).

-كتب البلاغة والفلسفة والمنطق (دلاليات أو علم المعنى).

-كتب التفاسير القرآنية والنبوية.

-دواوين العرب الشعرية والنثرية والشروح التي تناولتها.

-كتب الموسوعات المعرفية المختلفة التي كتبها عظماء الكتّاب العرب، أمثال الجاحظ وابن عبد ربه وابن حزم الأندلسي وغيرهم.

-كتب المعاجم واللغة، كما هي الحال عند ابن منظور وابن فارس والأصمعي والقالي وغيرهم.

-كتب التاريخ، كما هي الحال عند الطبري وياقوت الحموي وغيرهما.

وبكلمة أخرى؛ إن ما نعنيه بالتراث اللغوي العربي هو كل هذا الركام المعرفي المتناثر في تاريخ الفكر العربي، والذي وجد من أجل خدمة النص القرآني. ونحن لا نستطيع معرفة النظرية اللغوية العربية بأبعادها الكاملة إلا إذا أعدنا تركيب هذا الفكر اللغوي العربي المتناثر، بعد سبر دقيق وعميق لكل ما قاله العرب حول المسألة اللغوية.

إن الشرعية العلمية التي تدفعنا إلى تنفيذ هذا العمل ليست نابعة من تجميع ركام معرفي لا يربطه رابط معين، وإنما هو ركام معرفي انطلق من مبدأ فلسفي متماسك واضح من أجل تفسير الكون والحياة. فالنظرة الفلسفية الإسلامية أرادت أن تفسر مشكلة الإنسان على الأرض، ولأن اللغة مكوّن جوهري من مكونات

الإنسان فإنها أرادت معرفة هذه اللغة وسبرها وتفسيرها وربطها بالنظرة الفلسفية الكونية.

صحيح أن تاريخ العالم وحضارته مملوء بالنظرات اللغوية التي تناولت اللغة درساً وتمحيصاً، إلا أن معظمها لم ينطلق من منطلق فلسفي شامل وعام. من هنا فإن تجميع الركام المعرفي اللغوي انطلاقاً من هذه الحقيقة وفي هذا الإطار يفقده صفته العلمية.

إن شرعية إعادة بناء الركام اللغوي العربي القديم تأتي من حقيقة أن العرب القدماء أرادوا تفسير الظاهرة اللغوية، كما فسروا بقية الظواهر الإنسانية والطبيعية، من أجل خدمة النص القرآني. وبمعنى أدق من أجل خدمة المنطلق الفلسفي الإسلامي.

3-اللسانيات الحديثة:

اللسانيات هي الدراسة العلمية للغات البشرية كافة، من خلال الألسنة الخاصة بكل قوم من الأقوام. هذه الدراسة تشمل ما يلي: الأصوات اللغوية -التراكيب النحوية- الدلالات والمعاني اللغوية- علاقة اللغات البشرية بالعالم الفيزيائي الذي يحيط بالإنسان.

ونعني بالدراسة العلمية البحث الذي يستخدم الأسلوب العلمي المعتمد على المقاييس التالية: ملاحظة الظواهر اللغوية -التجريب والاستقراء المستمر- بناء نظريات لسانية كلية من خلال وضع نماذج لسانية قابلة للتطوير- ضبط النظريات اللسانية الكلية، ثم ضبط الظواهر

اللغوية التي تعمل عليها- استعمال النماذج والعلائق الرياضية الحديثة- التحليل الرياضي الحديث للغة- الموضوعية المطلقة. وبما أن اللغات البشرية لها ارتباطاتها الإنسانية والطبيعية المتفرعة، كذلك فإن لعلم اللسانيات فروعاً متعددة يختص كل منها بناحية جزئية من هذا الكل الذي اسمه «اللغات».

آ-فاللسانيات النظرية (العامة) تبحث بالنظريات اللغوية ونماذجها المتفرعة عنها وكيفية معالجتها للبنية اللغوية سواء أكانت تلك النظريات اللغوية في الماضي أم الحاضر. ومن العلوم المتفرعة عن اللسانيات النظرية ما يلي:

-1-الصوتيات، التي تتفرع بدورها إلى: الصوتيات الفيزيولوجية النطقية- الصوتيات الفيزيائية -الصوتيات السمعية الدماغية.

-2- النحويات أو علم التراكيب، الذي يتفرع بدوره إلى: علم بناء الجملة -علم بناء الكلمة- علم التقديم والتأخير في العناصر اللغوية- علم القواعد اللغوية العالمية- علم القواعد اللغوية الخاصة- علم الضوابط العامة والخاصة المفروضة على القواعد.

-3- الدلاليات أو علم المعنى، الذي يتفرع بدوره إلى: علم المعنى الخاص وعلم المعنى العام- علم بنية الدلالة في الدماغ البشري- علم التعرف على اللغة (عندما تخزن في الدماغ دون معرفتها) -علم فهم اللغة (عندما تخزن في الدماغ مع فهمها)- علم المشترك والترادف- علم تقطيع اللغات للواقع وتسميته- علم أنواع الدلالة والمعنى.

ب- اللسانيات التطبيقية، وتبحث في التطبيقات الوظيفية التربوية للغة من أجل تعليمها وتعلمها للناطقين ولغير الناطقين بها، وتبحث أيضاً في الوسائل البيداغوجية المنهجية لتقنيات تعليم اللغات البشرية وتعلمها (أصول التدريس -مناهج التدريس- وضع النصوص اللغوية وانسجامها مع المتعلمين- وضع الامتحان- امتحان الامتحان- علاقة التعلم والتعليم بالبيئة الاجتماعية).

ج- اللسانيات الأنثروبولوجية، وتبحث بالصلة التي تربط اللغة بأصل الإنسان. فاللغة عضو بيولوجي كبقية الأعضاء البيولوجية الأخرى عند الإنسان، ولكن، على الرغم من ذلك فإن اللغات البشرية متفاوتة من حيث الرقي الحضاري، ومن حيث أنظمتها الداخلية وقدرتها على تقطيع العالم الذي يحيط بالإنسان.

د- اللسانيات الاجتماعية، وتبحث في العلاقة القائمة بين اللغة والمجتمع. ذلك لأن اللغة لها صلة بالمجتمع الذي ينظمها ويؤطرها على نحو يجعلها مختلفة عن اللغات الأخرى نظاماً وعادة وسلوكاً. فاللغة ظاهرة اجتماعية تتفق عليها الجماعات البشرية، وهي تعكس كل ما يموج فيها من عادات وتقاليد وثقافة ودين وتنوعات جغرافية وإقليمية. إن من مهمة اللسانيات الاجتماعية البحث في التالي: اللغة واللهجة -الأطلس اللغوي الجغرافي- العلاقات الاجتماعية والثقافية في المجتمع الواحد وأثر ذلك في تعليم اللغة القومية وتعلمها- الفروق القائمة بين لغة النساء ولغة الرجال- المستويات الكلامية اللغوية حسب سياقاتها الاجتماعية- اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة.

هـ- اللسانيات الأدبية، وتبحث بالعلاقات القائمة بين اللسانيات والأدب والنقد والسيميائيات والأسلوبيات. ماهي أفضل التقنيات اللسانية التي يمكن للأديب والكاتب أن يستخدمها ليكون عمله أكثر تأثيراً وفهماً في المجتمع؟ كيف يستطيع الأدب أن يقدم عينات وشرائح أدبية متنوعة للسانيات من أجل أن تدرسها وتبني عليها فرضيات يمكن أن تساهم في بناء صيغة علمية دقيقة للنقد الأدبي الحديث؟.

و- اللسانيات البيولوجية، وتبحث في العلاقة القائمة بين اللغة والدماغ. إن مهمة هذا العلم معرفة البنية اللغوية الدماغية عند الإنسان ومقارنتها بالبنية الإدراكية عند الحيوان. أضف إلى ذلك أن هذا العلم يريد معرفة التطور اللغوي البيولوجي عند الأطفال وكيف يمكن أن ينشأ المرض اللغوي عندهم؟.

ز- اللسانيات الرياضية، وتنظر إلى اللغة على أنها ظاهرة حسابية مركبة صوتاً وتركيباً ودلالة، ومنظمة على نحو متشابك من أجل تطويعها ووضعها في أطر وصيغ رياضية من أجل معرفتها معرفة دقيقة جداً لإثبات الفرضية التي وضعها تشومسكي من أن اللغة عبارة عن آلة مولدة ذات أدوات محددة قادرة على توليد ما لا نهاية له من الرموز اللغوية من خلال طرق محددة.

ح- اللسانيات الحاسوبية -المعلوماتية (الكومبيوترية)، وتبحث عن وضع اللغات البشرية في صيغ وأطر رياضية وذلك لمعالجتها في الحاسبات الإلكترونية من أجل السرعة والدقة العلميتين في البحوث اللغوية ومن أجل ترجمة النصوص اللغوية ترجمة آلية فورية.

والواقع أن تاريخ اللسانيات يبدأ بالمحاضرات اللسانية التي كان يلقيها عالم لساني سويسري يدعى فرديناند دي سوسور الذي يعتبر الأب الحقيقي للسانيات. وقد نشرت هذه المحاضرات اللسانية بعد مماته (1919) في كتاب اسمه «محاضرات في اللسانيات العامة» إن جوهر هذه المحاضرات يدور حول طرح منهج لساني علمي جديد لدراسة اللغات يدعى باللسانيات السنكرونية الآنية التي تدرس اللغات البشرية كما هي الآن. وقد كان هذا المنهج ردة فعل علمية على المناهج اللغوية الماضية، التي كان يستخدمها العلماء في الهند لمقارنة اللغات الهندية باللغات الأوربية، الأمر الذي دعاهم لدراسة تاريخ هذه اللغات ومقارنتها مع بعضها بعضاً طبقاً لمنهج لغوي دعوه بالمنهج الدياكروني التطوري (التاريخي).

وقد انتقل منهج دي سوسور اللساني إلى الولايات المتحدة وطُوّر تطويراً يختلف عما كان عليه في أوربا. من هنا نشأت «البنيوية اللسانية» (Structuralism) على يد عالم أمريكي هو بلومفيلد في كتابه «اللغة» (Language) . وقد طورت النظرية البنيوية من خلال نماذج عديدة جداً استمرت في التطور حتى عام 1957 ، حيث جاء عالم اللسانيات الأمريكي نوم تشومسكي الذي كان انعطافاً وحدثاً عظيماً في تاريخ العلوم الإنسانية والطبيعية في العالم. فقد استطاع هذا العالم أن يقلب المفاهيم الطبيعية والإنسانية رأساً على عقب، كالمفاهيم المطروحة في علم النفس والمنطق والفلسفة، وعلم الأنثروبولوجيا والرياضيات، وعلم

البيولوجيا، وعلم الحاسبات الإلكترونية، وعلم الفيزياء. ومن أراد التفصيل فلينظر في دائرة المعارف البريطانية ليرى ماذا فعل هذا العالم في تاريخ العلم الحديث والمعاصر. لقد قلب كثيراً من المفاهيم في هذه العلوم من خلال الثورة اللسانية التي قام بها عام 1957، عندما نشر كتابه الأول المسمى «المباني التركيبية» والذي يدور حول طرح نظرية جديدة تدعى «نظرية القواعد التوليدية والتحويلية» وما زال هذا العالم يطور في نظريته هذه حتى الآن، وذلك من خلال تطبيقها على لغات بشرية عديدة. ولكن هذا لم يمنع من ظهور اتجاهات ومدارس لسانية أخرى في الولايات المتحدة وأوربا رافقت النظرية التوليدية والتحويلية كمدرسة «الدلاليات التوليدية» لمكولي ومدرسة «الدلاليات العلامية» لغيلمور ومدرسة «تحليل الخطاب» لـ لابوف وجمبرز وجودي، ولكن إذا أردنا فعلاً معرفة جوهر اللسانيات فإننا نستطيع القول إن هوية هذا العلم تتسم بصفتين اثنتين: الأولى هي العلمية (تطبيق المقاييس العلمية على اللغات) والثانية هي الاستقلالية (أصبح لهذا العلم قوانينه وأنظمته الخاصة به). هاتان السمتان اكتملتا بظهور علماء لسانيين في القرن العشرين أمثال دي سوسور وبلومفيلد وسابير ومارتينه وتشومسكي وغيرهم كثير.

4- موقع البحوث اللغوية العربية القديمة في اللسانيات الحديثة:

لاشك في أن كل أمة من الأمم عندما تفرز حضارة ما، فإن هذه الحضارة ستكون مكتملة الجوانب ومتعددة الظواهر غالباً. فالحضارة

العربية الإسلامية هي حضارة تتسم بسمة الكلية (Universal) ، هذه السمة الكلية التي كانت جوهر الدعوة الإسلامية دفعت العرب والمسلمين في كل مكان وزمان للبحث عن جوهر الإنسان ضمن بوتقة الكون والحياة. من هنا لم يكن من همِّ الأيديولوجية الإسلامية أن تجعل الإسلام يعتقد بالإسلام فقط، وإنما كان همها إضافة إلى ذلك البحث والاستقصاء عن الإنسان أولاً (الانطلاق من معرفة الإنسان) وعن الكون الذي يحيط بالإنسان ثانياً (الانطلاق من المحيط الخارجي للإنسان). لذلك نرى القرآن الكريم يركز على قضية الاكتشاف عندما يقول «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون». وكذلك الحديث النبوي الذي حث على هذا الاكتشاف عندما قال الرسول الكريم: «اطلبوا العلم ولو في الصين». وانطلاقاً من هذا المفهوم الفلسفي الإسلامي كان الرسول الكريم يفك أسر كافر إذا علَّم عشرة صبية من المسلمين.

نستطيع أن نقول إذن بأن الحضارة العربية الإسلامية لم تكن استمراراً لتطور حضاري سابق على الرغم من أنها كانت قد تأثرت بالخط العام لمسيرة الحضارات السابقة، وإنما كانت «طفرة»أو «انعطافاً» أو «حدثاً ثورياً» في تاريخ الحضارات الإنسانية. من هنا فإن ما توصلت إليه هذه الحضارات من خلال دراسة الظواهر الإنسانية والطبيعية إنما يستحق الروية والدراية والتأمل والعمق.

ومن الظواهر التي وقفت عندها الفلسفة العربية الإسلامية ظاهرة «اللغة». وعندما نقول «اللغة» لا نعني اللغة العربية فقط، وإنما «اللغة» التي ينبغي أن تكون كونية، كلية، شاملة، صالحة لكل زمان ومكان حسب المفهوم الفلسفي العربي الإسلامي. إنها «اللغة» التي هي ركن أساسي من أركان الحضارة العربية الإسلامية. من هنا فإن خدمة العرب والمسلمين لهذه «اللغة» لم تنطلق من المفهوم القومي للغة، وإنما انطلقت من المفهوم الإسلامي الكلي والإنساني والشمولي. فكما أن الإسلام هو الحل الوحيد لمشكلة الإنسان على هذه الأرض حسب المفهوم العربي الإسلامي، فإن اللغة العربية هي اللغة التي يجب أن تحمل كل المعارف التي حصل عليها الإنسان ويريد أن يحصل عليها، وذلك من أجل حل مشكلاته في هذا الكون. إذن المفهوم العربي الإسلامي اعتبر «اللغة» ظاهرة عربية كونية كلية. لذلك أقدم العرب والمسلمون على دراستها انطلاقاً من هاتين السمتين: السمة القومية والسمة العالمية أو الكلية. وما بحثه العرب في «اللغة» كثير جداً ومتعب جداً، ولكن يمكن حصره بما يلي:

أ - أصوات اللغة العربية:

-1- الفيزيولوجية -النطقية (النحاة والأطباء العرب أمثال الخليل بن أحمد وسيبويه وابن سينا في كتابه أسباب حدوث الحروف).

-2- الفيزيائية (علماء الرياضيات العرب أمثال الحسن بن الهيثم والخوارزمي).

-3-السمعية -الدماغية (علماء التجويد أمثال الشاطبي ومكي بن أبي طالب القيسي وعلماء الموسيقى أمثال زرياب وإبراهيم الموصلي).

فقد درس العرب والمسلمون الظاهرة الصوتية دراسة نطقية - فيزيولوجية ودراسة فيزيائية ثم دراسة سمعية دماغية، ولكن معلوماتهم حول هذه الظاهرة جاءت مبعثرة لا يجمعها منهج أو نموذج واحد متماسك.

ب - تراكيب اللغة العربية:

وهذا كثير عند النحاة العرب أمثال الخليل بن أحمد وسيبويه والكسائي والفراء والشراح الذين فصلوا ما أتى به هؤلاء المتقدمون أمثال ابن يعيش وغيره. ويُعد كتاب سيبويه «الكتاب» منطلق التحليل النحوي العربي في تاريخ الدراسات النحوية التركيبية. وفي اعتقادي أنه لو استطاع العرب فهم كتاب سيبويه فهم رواية ودراية وعمق، لنبشوا حقائق نحوية من هذا الكتاب لا تقل أهمية عن الحقائق النحوية التي أتى بها عالم اللسانيات الأمريكي نوم تشومسكي، ولكن هذا يحتاج إلى جهد كبير جداً ليس هناك مؤشرات لحوافزه، في مناخ الدراسات اللغوية العربية المعاصرة.

ج - دلالات اللغة العربية ومعانيها:

ونجد هذه الدراسات في أعمال البلاغيين العرب الذين كانوا يتحدثون عن معاني اللغة العربية ودلالاتها في إطار البلاغة «الممنطقة»

أمثال الجرجاني والسكاكي والقزويني وغيرهم. ولعلنا نجد بعض النظرات الدلالية العميقة في أعمال النحاة العرب عندما كانوا يتحدثون عن تراكيب اللغة العربية ونحوها. وهذا كثير عند ابن يعيش في كتابه «شرح المفصل». ثم إن دلالات اللغة العربية ومعانيها أخذت حظاً كبيراً من الدراسة على أيدي الفلاسفة وعلماء المنطق العرب والمسلمين، أمثال الفارابي وابن سينا والتوحيدي وابن حزم الأندلسي وابن رشد وغيرهم، حتى أن هناك نظرات دلالية عميقة جداً مبعثرة هنا وهناك، ولاسيما في أعمال المفسرين العرب والمسلمين الذين تناولوا القرآن الكريم والأحاديث النبوية تفسيراً وشرحاً.

د - ارتباط اللغة بالمجتمع:

ونجد مثل هذه الدراسات عند الجاحظ في مؤلفاته جميعها ولاسيما «البيان والتبيين» و«الحيوان»، وكذلك نجد بعض هذه الدراسات حول العلاقة بين اللغة والمجتمع عند بعض الشعراء في نثرهم، أمثال أبي العلاء المعري في «رسالة الغفران»، وكذلك نجد هذه الأعمال عند من بحثوا في قضية اللغة العربية واللهجات المتفرعة عنها وأنظمة التفرع وضوابطه.

هـ - ارتباط اللغة بفيزيولوجية الإنسان وبيولوجيته:

وهذا نراه عند المؤلفين العرب الذين بحثوا في قضية الأمراض اللغوية والتطور اللغوي عند الإنسان ولاسيما عند الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين».

و- نشأة اللغة واللغات:

وهذا الموضوع تناوله المؤلفون العرب إجمالاً لأنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأصل الإنسان عندما خلقه الله تعالى ليكون خليفته في الأرض. ومن المؤلفين العرب الذين تناولوا هذا الموضوع ابن جني في «الخصائص» وابن فارس في «المجمل» و «المقاييس»، ثم نراه عند بعض الفرق الفلسفية كالمعتزلة مثلاً. ولكن هذه الدراسات اللغوية التي قام بها العرب والمسلمون إنما هي دراسات إنسانية مستطردة لم تبن على نماذج معينة تخضع لنظريات علمية تجريبية مثبتة اللهم إلا في مجال الصوتيات والنحويات والدلاليات وحتى هذه تحتاج إلى غربلة «علمية» صارمة.

5 – الصلة بين التراث اللغوي العربي واللسانيات:

لا أجد حرجاً في أن أكرر، هنا، شيئاً كنتُ قلته، وسأبقى أقوله، هو أن صلة القربى ليست فقط بين التراث اللغوي العربي واللسانيات، وإنما هي موجودة أصلاً بين التراث اللغوي العالمي واللسانيات. هذه الحقيقة هي قانون علمي للظواهر الحضارية، ذلك لأن اللسانيات لم تنشأ في فراغ لتخدم في فراغ، وإنما هي شيء لاحق لشيء سابق. فعملية التأثير والتأثر موجودة، ليس بين اللسانيات وبين الدراسات التي سبقتها، وإنما بين الظواهر الحضارية كلها.

ولكن السر في تقدم الظواهر الحضارية بعضها على بعض إنما يكمن في حقيقة مفادها أن الشيء اللاحق يجب أن يكتشف جديداً لم يكن في

السابق. هذا هو سر تقدم العلوم الإنسانية والطبيعية، وسر تقدم الحضارات في تاريخ الإنسان.

اللسانيات، بصفتها علماً، جاءت من أجل تبني صيغة علمية بمفهوم العلم الفيزيائي، وذلك من أجل معرفة كيفية عمل اللغات البشرية بدقة وضبط وموضوعية مطلقة، وذلك للاستفادة من نتائج هذه المعرفة اللغوية وتوظيفها في مجال الحضارة والتكنولوجيا المعاصرة. ولكي تستطيع اللسانيات أن تكون علماً قائماً برأسه مستقلاً عن بقية العلوم الإنسانية والطبيعية الأخرى، فلابد لها من أن تستفيد من المعارف والنظرات اللغوية والتراثية سواء أكانت عربية أم غير عربية.

وهكذا فإن المعارف اللغوية الموجودة في التراث الهندي والبابلي والإغريقي والروماني والعربي، ثم جهود الباحثين في القرن الثامن والتاسع عشر إنما كانت معارف لغوية مهمة جداً للسانيات.

ولكن فضيلة التراث اللغوي العربي تأتي من حقيقة أن الأيديولوجية الحضارية العربية الإسلامية كانت أعلى في الوتيرة الفكرية وأنفذ في الرؤية المستقبلية. لذلك كانت استفادة اللسانيات من التراث اللغوي العربي أكثر من غيره على الرغم من أن بعض الباحثين اللسانيين الغربيين لا يعترفون بهذه الحقيقية، ذلك لأن حجتهم هي أن التراث اللغوي العربي إنما هو انعكاس وحفظ للتراث اللغوي الإغريقي إلا في بعض فرضياته الدلالية الجديدة.

على أية حال، لقد أثبت باحثون لسانيون غربيون معتدلون ومنصفون (أمثال روبنز وتشومسكي وكوك) تأثر اللسانيات الحديثة بالتراث اللغوي العربي، وذلك عن طريق وسائل مختلفة سواء أكانت مباشرة (الاطلاع على التراث اللغوي العربي باللغة العربية) أم غير مباشرة (عن طريق ترجمة أعمال النحاة واللغويين والبلاغيين العرب إلى لغات أجنبية كثيرة وخاصة اللغة الألمانية).

إن الفكرة الرئيسية في قانون البحث العلمي هي أنه لا سابق دون لاحق ولا لاحق دون سابق، وكل من ينكر هذا القانون العلمي إنما نظرته إلى الظواهر هي نظرة شخصية وليست نظرة موضوعية. لنأخذ على سبيل المثال عالم اللسانيات الأمريكي نوم تشومسكي فسوف نجد برهاناً على ما نقول. فعلى الرغم من أن هذا العالم قد رفض كل شيء أتت به البنيوية، ولكنه في صميم أعماله التوليدية والتحويلية إنما هو بنيوي. إن ما فعله تشومسكي هو أنه قلب البنيوية رأساً على عقب وأتى بشيء جديد لم تلتفت إليه البنيوية وهو دراسة «اللغة» على أنها ظاهرة فيزيائية - رياضية- آلية- بيولوجية تعمل داخل الدماغ البشري. أنت ترى ظاهرة معينة منذ مدة وأنا أرى الظاهرة نفسها الآن، ولكن رؤيتي لهذه الظاهرة يمكن أن تكشف شيئاً جديداً لم يسترع انتباهك أنت. ولنقل ما نقول: أهي الوسائل البدائية التي استخدمتها ولم تجعلك تكتشف هذا الشيء الجديد أم أنه القصور في التحليل العلمي لهذه الظاهرة؟

المهم في الأمر هو «الاكتشاف الجديد»، هذا هو سر اللسانيات الحديثة التي اكتشفت في اللغات البشرية أشياء جديدة لم تستطع الدراسات اللغوية القديمة اكتشافها، وذلك بسبب ظهور التكنولوجيا الحديثة والأساليب العلمية المذهلة. ما تفعله اللسانيات هو أنها تأتي إلى اللغات البشرية كافة، تفككها وتحللها قطعة قطعة لتكشف وظيفة كل قطعة لغوية وكيفية توزعها في النظام العام. وهكذا فإنها ستكشف أن هناك نظاماً معيناً فتسجله، ثم تنتقل إلى قطع لغوية أخرى لتدرس وظيفتها وتوزعها ضمن النظام العام، وهكذا دواليك. فمن خلال هذه الدراسة تتكون عند اللساني أنظمة كثيرة حول الظاهرة اللغوية. وهذه الأنظمة لابد لها من نظام معين من أجل ضبطها.

إن الفكرة الرئيسية هنا هي أن اللساني ينطلق من الجزء لينتهي بالكل. الجزء هو اللغات البشرية كلها. الكل هو أنظمة هذه اللغات البشرية وقوانينها. إن الجزء والكل هما اللذان يعطيان اللسانيات الحديثة شرعيتها لتكون علماً قائماً برأسه.

في التراث اللغوي القديم (عربياً كان أم غير عربي) لم تكن هناك وسائل علمية سريعة لفحص اللغات البشرية كلها وتحليلها ومعرفة سر حركيتها وعملها من أجل أن نستفيد منها تقنياً وتكنولوجياً، وإلا فكيف يمكننا الآن وبفضل اللسانيات الحديثة أن نصمم آلات تكنولوجية (مخابر صوتية) أو حاسبات إلكترونية (كومبيوتر) لتلائم مثلاً لغتين أو لغات عدة من أجل أن نقوم بعملية الترجمة الآلية كما هو الحال في

مشروع لغات السوق الأوربية المشتركة؟ ثم كيف يمكننا وبفضل اللسانيات الحديثة أن نصوغ جميع اللغات البشرية صياغة رياضية صوتياً وتركيبياً ودلالياً؟. لم يكن هذا الأمر ممكناً في القديم ذلك لأن إمكانات فقه اللغة أو الدراسات اللغوية القديمة إمكانات بدائية تتلاءم مع العصر الذي أفرزها.

هذه الحقيقة العلمية تؤيد حقيقة أخرى فلسفية كان وضعها الفيلسوف اليوناني القديم هيرقليطس، وهي «أنك لا تستطيع أن تستحم بماء النهر مرتين». من هنا فإنه من الخطأ العلمي أن نحمّل التاريخ الحضاري وزراً فوق وزره. لندع التاريخ الحضاري يفرز حقائقه من الواقع والزمن الذي كان يعايشه دون أن نسقط عليه حقائق معاصرة، لرغبة قومية أو نزعة دينية أو تحمس عاطفي.

والخلاصة أن الدراسات اللغوية القديمة هي دراسات إنسانية (علاقة اللغة بالإنسان الذي يتكلمها). وبهذا فإنها في الغالب دراسات شخصية (Subjective) شارحة كيف يمكن للصفات المهمة للغة أن تكون لها علاقة في أنا (كشخص). أما الدراسات اللغوية الحديثة أو اللسانيات فهي دراسات علمية (علاقة اللغة ببعضها بعضاً). وبهذا فإن هذه الدراسات أكثر موضوعية (Objective) شارحة كيف يمكن للصفات المهمة للغة أن تكون لها علاقة ببعضها بعضاً.

الدراسات اللغوية القديمة تبدو وكأنها تستخدم معيار السببية (لماذا مثلاً تحدث صفات نحوية معينة في اللغة؟ وكيف يجب على هذه

الصفات النحوية أن تعمل؟). وبالمقابل فإن اللسانيات الحديثة تبدو وكأنها تستخدم معيار الماهية (فهي تسجل الحقائق الملحوظة للغة فقط دون محاولة شرحها. وإذا كان هناك شرح لساني فإنه عبارة عن الشرح الذي يتناول العلاقة بين الحقائق الملحوظة للغة وبين النظرية اللسانية العامة والتجريبية). الدراسات اللغوية القديمة خلطت بين مستويات التحليل اللغوي فهي لم تميز بشكل دقيق هذه المستويات وتفرزها عن بعضها بعضاً لكي يكون التحليل أكثر دقة وموضوعية. أما اللسانيات الحديثة فقد فصلت بين مستويات لسانية عديدة مكّنها من اكتشاف العملية اللغوية وكيفية عملها ووظيفتها.

إن حقيقة فهم الناس للدراسات اللغوية القديمة إنما يعود إلى التاريخ الثقافي الذي حمل التراث اللغوي القديم من جيل إلى جيل وعلى مدد زمنية طويلة وعريضة، ذلك التاريخ الذي صبغ الدراسات اللغوية القديمة بالتيارات الفلسفية والنفسية والدينية والبلاغية والنقدية والأدبية. ومن جهة أخرى فإن اللسانيات الحديثة هي وليدة العصر وليس لها تاريخ ثقافي طويل وعريض. أضف إلى ذلك أن اللسانيات حاولت جهدها أن تصرف النظر عن المناقشات الجدلية النفسية والمنطقية والميتافيزيقية العقيمة، وأن تركز على الوصف والشرح اللغويين المبنيين على الوصف التجريبي للغة.

وبكلمة أخرى؛ إن اللسانيات الحديثة هي استمرار للخط الحضاري الحديث ذي الطابع العلمي التكنولوجي، الذي يجعلها مرتبطة بالعلوم

الطبيعية والتقنية الصارمة كالفيزياء والبيولوجيا والحاسبات الإلكترونية والرياضيات. أما الدراسات اللغوية القديمة فإنها استمرار للخط الحضاري القديم ذي الطابع الإنساني الذي يجعلها تدور في فلك العلوم الإنسانية كالأدب والنقد والفلسفة والتاريخ.

وهكذا فإن الفرق بين الدراسات اللغوية القديمة وبين الدراسات اللسانية الحديثة هو الفرق بين الهدف الإنساني والهدف العلمي.

اختلاف لهجات العرب في الهمز والتليين وعلاقتها بالقراءات

د.التواتي بن التواتي
جامعة عمار ثليجي الأغواط

تمهيد: لا نريد في مقالنا هذا أن نخوض في التحقيق في الهمز والتليين وما ينجرّ عنهما من مصطلحات أخرى كالضغط والنبر فهذا موضوعه علم الأصوات، ولنا فيه بحث في مقال آخر، وإنّما الذي يهمّنا هاهنا اختلاف لهجات العرب فحسب، وعلاقتها بالقراءات القرآنية، وقد وضعنا خطة لهذا المقال قدر له أن تكون وفق العناصر التالية:

1- تعريف الهمز والتليين لغة واصطلاحا.

2- أحكام الهمزة.

3- القراءات المهموزة.

4- القراءات غير المهموزة.

5- القراءات القرآنية واللهجات العربية.

قبل أن نتناول موضوع الهمز والتليين لابدّ من تعريف الهمز لغة واصطلاحا.

(أ)- لغة : الضغط.[1]

(ب)-اصطلاحا: الهمز يطلق على حرف من حروف الهجاء العربية له أحكام خاصة تتناول تحقيقه وتخفيفه أو نبره وتسهيله، فتحقيقه هو الإتيان بالهمز على صورته كامل الصّفة من مخرجه.[2]

والهمزة حرف مجهور لها ثلاثة مواقع، وأربعة أحوال:

-فأما مواقعها فإنها تقع مبتدأة ومتوسطة ومتطرفة.

- أما أحوالها فإنّها تكون محققة ومبدلة ومحذوفة وبين وبين.

وقد تعرض أهل الاختصاص في علم القراءات لهذه الأحوال بالشرح والبيان فقالوا:

-إذا أبدلت فإنّها تبدل من ثلاثة أحرف، وهي الألف والواو والياء وذلك كقوله تعالى: ﴿يومنون﴾ و ﴿ناكل﴾ و﴿بير معطلة﴾.

وإبدالها واوا إن ضمّ ما قبلها قولك: يُوِيِّد، وياءً إن انكسر ما قبلها كقولك: إيتِ وألفا إن انفتح ما قبلها كقولك: ياتي.[3] إن نبر الهمز(أو تحقيقه)وتسهيله (أو تخفيفه) ظاهرتان لهجيتان قديمتان تواردت الآثار فيهما من أنّ رجلا قال للنبيّ-صلى الله عليه وسلم- يا نبئ الله، فقال: «لا تنبر باسمي» أي: لا تهمز وفي رواية: فقال: «إنّا معشر قريش لا ننبر». والنبر همز الحرف ولم تكن قريش تهمز في كلامها.[4]

- أن تخفف أي: جعلها مخفّفة فهي التي تسمى همزة بين بين ومعنى قول سيبويه:(بين بين) أي: بين الهمزة وبين الحرف الذي منه حركتها إن كانت مفتوحة فهي بين الهمزة والألف وإن كانت مكسورة

فهي بين الهمزة والياء، وإن كانت مضمومة فهي بين الهمزة والواو إلاّ أنّها ليس لها تمكن الهمزة المحقّقة، ولا تقع الهمزة المخففة.

أوّلا أبدًا لقربها بالضعف من الساكن، وهذا بيانها بأمثلة توضيحية، قال كثّير عزة:

أَآنْ زُمَّ أَجْمالٌ وفَارَقَ جِيرَةٌ وصَاحَ غُرَابُ الْبَيْنِ أَنْتَ حَزِينُ (5)

وإذا حذفت فإن حركتها تلقى على الساكن قبلها، وكذلك ما يطلق عنه: تخفيف الإسقاط وهو أن تسقط الهمزة رأسا، وقد قرأ به أبو عمرو في الهمزتين من كلمتين إذا اتفقتا في الحركة فأسقط الأولى منهما على رأى الشاطبي.

وقيل: الثانية في نحو قوله تعالى: ﴿جاء أجلهم﴾ ووافقه على ذلك في المفتوحتين نافع من طريق قالون وابن كثير من طريق البزى.

وجاء هذا الإسقاط في كلمة واحدة في قراءة قنبل عن ابن كثير في ﴿أين شركاى الذين كنتم تشاقون فيهم﴾ بإسقاط همزة ﴿شركائي﴾.

ومن ذلك فإن للفظ الجلالة تصريفاً خاصًّا حاصله أن الأصل فيه «إله» فأسقطت منه الهمزة وأدخلت عليه لام التعريف فالتقت باللام بعدها ثم أدغمت اللام الأولى في الثانية للتماثل كما أدغمت في نحو الليل فصار اللفظ الكريم «الله»، وقد أشار بعضهم إلى هذا التصريف بقوله:

والاسْمُ ذو التقديس وهو الله على الأَصح أَصْلُهُ إلهُ
أُسقِطَ منه الهمز ثمَّ أُبْدِلا بال لِتَعْرِيفٍ لذاكَ جُعِلاَ

وفي الاسم الكريم كلام كثير من جهة التصريف، ومن أراد الوقوف عليه فليراجع كتب الصرف ففيها ما يكفي الباحث وما ذكرناه ها هنا إلا إشارة فقط نقلا عن بعض من قرأنا لهم.

-وإذا كانت (بين بين) فإنّه يتلفظ بها بين الهمزة وبين الحرف الذي هو من جنس حركتها، أي: تخفيف الهمز بين بين، ومعناه أن تسهل الهمزة بينها وبين الحرف الذي منه حركتها، فإن كانت مضمومة سهلت بين الهمزة والواو، أو مفتوحة فبين الهمزة والألف، أو مكسورة فبين الهمزة والياء، وهذا يسمى إشماما، وقرأ به كثير من القراء، وأجمعوا عليه في قوله تعالى: (قل آلذكرين) ونحوه وذكره النحاة عن لغات العرب.

قال ابن الحاجب في تصريفه: واغتفر التقاء الساكنين في نحو: «الحسن عندك، وآيمن الله يمينك» وهو في كل كلمة أولها همزة وصل مفتوحة ودخلت همزة الاستفهام عليها، وذلك ما فيه لام التعريف مطلقا، وفى «ايمن الله، وايم الله» خاصة إذ لا ألف وصل مفتوحة سواها، وإنما فعلوا ذلك خوف لبس الخبر بالاستخبار، ألا ترى أنهم لو قالوا: «الحسن عندك» وحذفوا همزة الوصل على القياس في مثلها لم يعلم استخبار هو أم خبر فأتوا بهذه عوضا عن همزة الوصل قبل الساكن فصار قبل الساكن مدة فقالوا: «الحسن عندك» وكذلك «آيمن إلى الله يمينك» فيما ذكره، وبعض العرب يجعل همزة الوصل فيما ذكرنا بين بين ويقول: الحسن عندك، وآيمن الله يمينك فيما ذكرنا وقد جاء عن القراء بالوجهين في مثل ذلك، والمشهور الأول، وقد أشار الصحابة-رضي الله عنهم-إلى

التسهيل بين بين في رسم المصاحف العثمانية فكتبوا صورة الهمزة الثانية في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿قل أؤنبئكم﴾ واوا على إرادة التسهيل بين بين قاله الدانى وغيره.

والعرب تختلف مذاهبها في الهمز، فكانت تميم ألزم العرب كلّها للهمز، وقد وجدناهم يهمزون أحيانا، ويخففون أحيانا، وقريش أترك العرب كلّها للهمز، وقد يوجد الهمز في لغاتهم.

والقراء مختلفون فكان نافع وأبو عمرو أكثر القراء تركا للهمز، وقاربهما الأعشى عن أبي بكر، كل ذلك صواب؛ لأنّ الهمز إشباع وتحقيق، وتركه استخفاف وهم في ذلك مخيرون، فإذا استثقلوه في موضع حذفوا أو خففوا، وإذا استخفوه همزوا ولم يفحشوا.(6)

قلت: والقُرَّاء على تَرْك الهمز في النُّبُوَّة وما تَصَرَّف منها، ونافعٌ المدنيُّ على الهمزِ في الجميع إلا موضعين: في سورةِ الأحزابِ «للنبيِّ إن أراد» «﴿ لا تَدْخُلوا ﴾ بيوتَ النبيِّ إلاَّ» فإنَّ قالون حَكَى عنه في الوصلِ كالجماعةِ وسيأتي. فأمّا مَن هَمَز فإنه جَعَله مشتقاً من النبأ وهو الخبر، فالنبيُّ فعيل بمعنى فاعل، أي: مُنَبِّئٌ عن الله برسالته، ويجوزُ أن يكونَ بمعنى مَفْعول أي: إنه مُنَبَّأ مِن الله بأوامِره ونواهِيه، واستدلُّوا على ذلك بجَمْعِهِ على نُبآء، كظريف وظُرفاء، قال العباس ابن مرداس:

يا خاتَم النُّبَآء إنَّك مُرْسَلٌ بالخيرِ، كلُّ هدى السبيلِ هُداكا

فظهورُ الهمزتين يَدُلُّ على كونِهِ من النبأ، واستضعف بعضُ النحويين هذه القراءةَ:

«قال سيبويه: «بلغَنا أنّ قوماً من أهل التحقيق يحقِّقون نَبيًّا وبَريَّة، قال: وهو رديء»، وإنما استردَأَه؛ لأن الغالبَ التخفيفُ».

وقال أبو عبيد: «الجمهورُ الأعظمُ من القرَّاء والعوام على إسقاط الهمز من النبيّ والأنبياء، وكذلك أكثرُ العرب مع حديث رويناه، فذكر أنَّ رجلاً جاء إلى النبي-ﷺ-فقال: «يا نبيءَ الله» فهمز، فقال: «لست نبيءَ الله» فهمز، «ولكن نبيُّ الله» ولم يهمز، فأنكر عليه الهمز.

وقال لي أبو عبيدة: العربُ تُبْدِل الهمزَ في ثلاثةِ أحرف: «النبي والبريَّة والخابية» وأصلهنَّ الهمزُ»، قال أبو عبيدة: «ومنها حرف رابع: «الذُّرِّيَّة» من ذرأ يذرأ، ويدل على أن الأصلَ الهمزُ قولُ سيبويه: إنهم كلَّهم يقول: تنبَّأ مسيلمة فيهمزون، وبهذا لا ينبغي أن تُرَدَّ به قراءة هذا الإمامِ الكبير.

أمَّا الحديثُ فقد ضَعَّفوه، قال ابنُ عطية: مِمَّا يُقَوِّيَ ضعفَه أنه لَمَّا أَنْشده العباس: «يا خاتم النُّبَآء» لم يُنْكِرهْ، ولا فرقَ بين الجمع والواحد»، ولكنَّ هذا الحديثَ قد ذكره الحاكم في المستدرك، وقال: هو صحيحٌ على شرطِ الشيخين، ولم يُخْرجاه.

قلت: فإذا كان في ذلك كذلك فَلْيُلْتَمَسْ للحديثِ تخريجٌ يكونُ جواباً عن قراءة نافع، على أن القطعيَّ لا يُعارَضُ بالظني، وإنما نذكره زيادةَ فائدةِ والجواب عن الحديث أن أبا زيد حكى: «نَبَأْتُ من أرضِ كذا إلى أَرض

كذا» أي: خَرَجْتُ منها إليها، فقوله: «يا نبيءَ الله» بالهمز يُوهم يا طريدَ الله الذي أخرجه من بلدِهِ إلى غيره، فنهاهُ عن ذلك إيهامِهِ ما ذكرنا، لا لسبب يتعلَّق بالقراءةِ.

ونظيرُ ذلك نَهْيُه للمؤمنين عن قولهم: «راعِنا»، لَمَّا وَجَدَتِ اليهودُ بذلك طريقاً إلى السبِّ به في لغتهم، أو يكونُ حَضَّاً منه-عليه السلام- على تحرِّي أفصحِ اللغاتِ في القرآن وغيره.(7)

تنبيه هام: هل هذه القراءات توقيفية أم هي طريقة خاصة بكلّ قارئ حسب هواه؟ اختلف العلماء في أمر هذه القراءات إلى فريقين:

(أ)-فريق يراها وحي من الله، وأنّه لا تغاير بينها وبين القرآن وهي توقيفية وله حججه، ومن أدلّة هذا الفريق ليثبت وجهة نظره: إنّ القرآن يخبرنا أنّ الله أمر نبيّه -صلى الله عليه وسلم-أن يتبع ما يتلى عليه من الآيات والذكر الحكيم بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ قراءة وتطبيقا وأمر أن يقرئ الناس على مكث بصريح القرآن قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا(106)﴾ فهذان النّصان يدلاّن على أنّ القراءة هي وحي من الله وبلّغها رسول الله-ﷺ-إلى أمّته وأنّ اختلافها كان توسعة ورحمة من الله على عباده، وقد تلقّاها صحابة رسول الله-ﷺ-ولعلّ واقعة عمر بن الخطاب وهشام خير دليل: إذ أنّ كلّ منهما خاطب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-فقال: «أقرأتنيها يا رسول الله» ممّا يعني أنّه ما كان لأحد

من الصحابة، ولو كان عمر-رضي الله عنه- أن يقرأ حسب هواه بل وِفْق ما أقرأه رسول الله-ﷺ-.

وعلى ضوء ما قدمناه؛ فإنّ المصدر الوحيد للقراءات القرآنية إنّما هو وحي السماء إلى النّبيّ-صلى الله عليه وسلم- بلّغه بكلّ دقّة وبكلّ حركة إلى أصحابه ،فكان يقرئهم القرآن كما أنزله الله عليه، عن ابن مسعود أنّ النبيّ ﷺ كان يقرئهم العشر آيات فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل.[8]فإذا ما علمهم القرآن فأتقنوا تلاوته أحبّ أن يسمعه منهم توثيقا لما سمعوه.

روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود-رضي الله عنه- قال: قال لي رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: «اقرأ عليّ القرآن» قلت : يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل، قال: إنّي أحبّ أن أسمعه من غيري فقرأت عليه سورة النساء.حتى إذا جئت على هذه الآية : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا)النساء/قال: «حسبك الآن» فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان.[9]

فكان النّبيّ-صلى الله عليه وسلم- يتعهّد أصحابه بتعلم القرآن وحفظه لهم على ظهر القلب حتى أصبحت صدورهم سجّلا لما نزل من الحقّ، وقد يحدث أن يقرئ رسول الله ﷺ بعض أصحابه القرآن قراءة لم يقرئها للآخر فيسمع أحدهما فينكر عليه عدم سماعه لها من رسول الله ﷺحدث هذا لعمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم وحدث هذا لأبيّ بن كعب-رضي الله عنه- مع رجل حتى دبّ الشكّ في نفس أبيّ

وضرب رسول الله ﷺ صدره واستعاذه من الشيطان الرجيم، وتبيّنَ من الواقعتين أنّ رسول الله-صلى الله عليه وسلم- أقرأ كلا منهما بحرف مخالف للآخر

يقول الزرقاني في هذا الصدد: ثمّ إنّ الصحابة قد اختلف أخذُهم عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- فمنهم من أخذ القرآن عنه بحرف واحد ومنهم من أخذه عنه بحرفين ومنهم من زاد ثمّ تفرّقوا في البلاد وهم على هذه الحال فاختلف بسبب ذلك أخذ التابعين عنهم وأخذ تابعي التابعين وهلمّ جرا حتى وصل الأمر على هذا النحو إلى الأئمة القراء المشهورين الذين تخصّصوا وانقطعوا للقراءات يضبطونها ويعنون بها وينشرونها.[10]

وذهب بعضهم إلى عدم التفريق بين القرآن والقراءات، فكلّ قراءة عندهم قرآن، حتى ولو كانت شاذة.

وهو قول نقله ابن الجزري عن أبي حيان الأندلسي، وعن ابن دقيق العيد.

قال أبو حيان الأندلسي: «وعلى ما ذكره هؤلاء من المتأخرين من تحريم القراءة الشاذة يكون عالم من الصحابة والناس من بعدهم إلى زمننا قد ارتكبوا محرّما فيسقط بذلك الاحتجاج بخبر من يرتكب المحرم دائما وهم نقلة الشريعة فيسقط ما نقلوه فيفسد على هؤلاء نظام الإسلام...ثمّ قال: وكان أبو الفتح محمّد بن عليّ(ابن دقيق العيد) يستشكل هذه المسألة ويستصعب الكلام فيها .

وكان يقول: هذه الشواذ نقلت نقل آحاد عن النبي-صلى الله عليه وسلم- فيعلم ضرورة أنّ رسول الله ﷺ قرأ بشاذ منها، وإن لم يعين كما أنّ حاتما أخباره في الجود كلّها آحاد، ولكن حصل من مجموعها الحكم بسخائه، وإن لم يتعين ما تسخى به، وإذا كان كذلك فقد تواترت قراءة رسول الله-صلى الله عليه وسلم-بالشاذ، وإن لم يتعيّن بالشخص فكيف يسمى شاذا والشاذ لا يكون متواترا.[11]

تعليق: «نحن نتفق مع ابن دقيق العيد على أنّ القطع بأنّ من هذه القراءات (التي اصطلح علماء القراءات على تسميتها: شاذة) ما قرأه الرسول ﷺ ولكن لا نستطيع القطع في أفراد هذه القراءات بأنّ الرسول-صلى الله عليه وسلم- قرأها؛ لأنّ الصحابة-رضي الله عنهم- في زمن عثمان بن عفان-رضي الله عنه- لم يجمعوا عليها فنحن نتوقف فيها ولا نقطع بقرآنية هذه الأفراد على العموم إذ لا توافق الرسم كما أنّنا لا نلغيها تماما بل نستفيد منها في التفسير واللغة.

كما أنّنا لا نقطع بأنّ هذه القراءات الشاذة ليست قرآنا كما لا نقطع بأنّها قرآن، وهذا القول ينبني على أصل وهو ما يدعو إلى التساؤل: هل يجب القطع فيما لم يثبت كونه من الأحرف السبع بأنّه ليس منها؟ الذي عليه جمهور العلماء أنّه لا يجب القطع بذلك، إذ ليس ذلك ممّا وجب علينا أن يكون العلم به في النّفي والإثبات قطعيا».[12]

وينسب علماء اللغة أنّ تحقيق الهمز إلى بني تميم على حين تخفيفها،أو تسهيلها إلى الحجازيين قال سيبويه: اعلم أنّ كلّ همزة

مفتوحة كانت قبلها فتحة فإنّك تجعلها إذا أردت تخفيفها بين الهمزة والألف الساكنة وتكون بزنتها محقّقة ،غير أنّك تضعّف الصوت ولا تتمّه وتخفي لأنّك تقرّبها من هذه الألف وذلك قولك: سَاَلَ في لغة أهل الحجاز إذا لم تحقّق كما حقّق بنو تميم وقد قرأ قبل (بين بين)[13]

وقال ابن يعيش: الهمزة حرف شديد مستثقل من أقصى الحلق إذ كان أدخل في الحلق فاستثقل النطق إذ كان إخراجه كالتّهوّع،فلذلك من الاستثقال ساغ فيها التخفيف وهو لغة قريش وأكثر أهل الحجاز ،وَهُوَ نَوْع استحسان لثقل الهمزة،والتحقيق لغة تميم وقيس قالوا: لأنّ الهمزة حرف فوجب الإتيان به كغيره من الحروف.[14]

الهمزة عند القدماء حرف مجهور من أقصى الحلق.[15] أو هي: حرف مجهور سَفَل في الحلق، وَبَعُدَ عن الحروف وَحَصَلَ طَرَفا فكان النطق به تكلّفا.[16]

ولهذه الشدّة الموصوفة بها اختلف موقف العرب منها ولذلك كثر تردّدها في كتاب سيبويه ونبّه غير مرّة إلى ما كان ينالها من تغيير في لغات العرب المختلفة فكان من العرب من يقلبها إلى صوت آخر قريب منها فيبدلها هاء فيقول في (إياك: هياك)، وعلى هذا جاءت قراءة ابن السوار الغنوي (هيّاك نعبد) بإبدال الهمزة المكسورة (هاء) وبإبدال الهمزة المفتوحة (هاء).[17]

قال ابن جني: فأمّا فتح الهمزة فلغة فيها: إياك وأياك وهيّاك وهياك، والهاء بدل من الهمزة كقولهم: في أرقت: هرقت، وأردت: هردت،

أرحت الدّابّة: هرحت وأنرت الثوب: هنرت، قال طفيل الغنوي:

فهياك والأمر الذي إن توسَّعَتْ موارده ضاقت عليك مصادره[18]

وكان هناك من العرب من يقلب الهمزة(ياء) في إسرائيل: إسرايل، وفي جبرائيل: جبرايل وفي (توضّأ) فيقول توضّيت وفي(أرجأ)فيقول:أرجيت وعلى هذا جاءت قراءة **ترجي من تشاء** الأحزاب/51 ومن يفعل ذلك من العرب يحمل(نبيّ) على (وصيّ) فيقول: أنبياء، أما من يهمز فيحمل (نبئ) على (عريف) فيقول(نُبَآء).

وجاء للعرب لغة يخففون فيها من الهمزة وينقلون حركتها على ما قبلها من الحروف فيقولون (مَنَ اَبوك) في (مَنْ أَبوك) و (مِنَ اَجل) في (مِنْ أَجْل).

وربّما حذفها قوم من الفعل في الاستفهام تخففا فقالوا في (أرأيْت) أَرَيْتَ). وإذا كانت الهمزة مفردة على هذه الحال من الثقل عند قوم من العرب فإنّها أشد ثقلا عليهم إذا اجتمعت مع أخت لها في الكلام وهكذا يحولها قوم (ياء) فيقولون في(أَإِنا) فيقولون (أَينَّا)و(أ إذا) فيقولون (أيذا). وإذا جاءت همزة الاستفهام مع همزة (أل)التعريف خفف الثانية قوم فتحولت ألفا فقالوا: (اَللَّه أذن لكم) و﴿أَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ(59) (النمل / و(أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ(91) ﴾ يونس /

وإذا كان شأن قوم من العرب في استثقالها فثمّة من كان لا يراها كذلك بل يحقّقها كيفما جاءت ولغته لغة شاذة قليلة وبلغت لغة قيس

في هذا القول: (اللهم اغفر لي خطائئي)، بل ذهب بعض العرب إلى قطع الموصولة وتحقيقها فيقول: (يا إبني) .

أمّا في القراءة فتحقيق الهمزتين جميعا مذهب أهل الكوفة وبعض أهل البصرة وتخفيف الآخرة قراءة أهل المدينة.[19]

ومن الحقائق العامة المشهورة عن النطق العربي أنّ (الهمز) كان من الخصائص البدوية التي اشتهرت بها وسط الجزيرة وشرقيها ، تميم وما جاورها وأنّ عدم الهمز خاصة حضرية، امتازت بها القبائل في شمال الجزيرة وغربيها.[20]

وجاء في لسان العرب ما رواه أبو زيد: أنّ أهل الحجاز وهذيل وأهل مكّة والمدينة لا ينبرون، وقف عليها عيسى بن عمر فقال: ما أخذ من قول تميم إلاّ بنبر،وهم أصحاب النبر،وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا.[21]

علّل الباحثون المحدثون أنّ النبر خاصية بدوية لدى أهل البادية ومن القبائل التي اشتهرت بذلك: تميم

وما جاورها من قبائل وسط الجزيرة وشرقها: كغَنِي وعكل وأسد وعُقيل وقيس وبني سلامة من أسد،وهذا يعود إلى ميلهم الشديد للسرعة في النطق وإلى التماسهم أيسر السبل إلى هذه السرعة حتى أصبحت عادة لدى البدوي أملتها عليه ضرورة انتظام الإيقاع كما حتمتها ضرورة الإبانة عما يريد من نطقه لمجموعة من المقاطع المتتابعة، السريعة الانطلاق على لسانه، فموقع النبر كان دائما أبرز المقاطع وهو ما كان بمنحه كلّ اهتمامه وضغطه.

وهذه الظاهرة لها ما يفسّرها إذ أنّ بعض القبائل البدوية أدت بها المبالغة في تحقيق الهمزة إلى أن تحوّلت الهمزة في ألفاظهم عينا في مواقع معيّنة، ومن ذلك ما نسب إلى تميم وقيس عيلان ما يسمى بالعنعنة، ونعني بها قلب الهمزة المبدوء بها عينا، وأنشد يعقوب:

فلا تلهك الدنيا عن الدين واعتمل لآخرها لا بدّ عن ستصيرها

وقال ذو الرمّة:

أَعَن تَرَسَّمتَ مِن خَرقاءَ مَنزِلَةً ماءُ الصَبابَةِ مِن عَينَيكَ مَسجومُ

أراد الشاعر في البيت الأوّل (لابدّ أن)وفي البيت الثاني (أ أن ترسمت).وقد جاء في رواية نسبت إلى الفراء قال: إنّ بني تميم وقيس ومن جاورهم يجعلون ألف(أن) إن كانت مفتوحة(عينا) فيقولون:سأشهد عنّك رسول الله فإذا كسروا رجعوا إلى الهمزة![22]

وهذا الذي رواه الفراء لم يقنع د/إبراهيم أنيس؛ لأنّ المسألة ليست مجرّد فتح أو كسر للهمزة وإنّما الذي يبدو أقرب إلى الاحتمال هو أنّ هذه القبائل وكلّها من البدو كانت تميل إلى الجهر بالأصوات لتجعلها واضحة في السمع، أيّا كان موضعها من الكلمة، وبأيّة حركة تحركت، وأقرب أصوات الحلق للهمزة هو (العين)؛ لأنّ العين صوت مجهور، وهو أقرب أصوات الحلق المجهورة للهمزة مخرجا.[23]

ويبدو أنّ دارسي اللغة تفطّنوا لظاهرة قلب الهمزة (عين) وعدّوها أقصى مراحل التحقيق للهمز وهو ما ذهب إليه الأزهري: «ومن تحقيق الهمز قولك يا زيد من أنت كقولك[من عنت] فإذا عدلت الهمزة إلى

التخفيف قلت : يا زيد من أنت فكأنّك قلت [مننت] لأنّك أسقطت الهمزة من (أنت) وحركت ما قبلها بحركتها».[24]

أمّا التخفيف وتسهيل الهمزة فهي ظاهرة حضرية اختصت بها القبائل الحضرية حسب د/أنيس فإنّها متأنية في نطقها متئدة في أدائها، ولم يشتهر عنها إدغام ولا إمالة ولذا لم تكن بها حاجة إلى طلب المزيد من مظاهر الأناة فأهملت همز كلماتها أعني المبالغة في النبر استعاضت عن ذلك بوسائل عبّر عنها النحاة بعبارات مختلفة: كالتسهيل، والتخفيف، والتليين، والإبدال والإسقاط.[25]

وهذا لا يعني أنّ لغة القبائل الحجازية قد خلت من ظاهرة النبر، حين تجنبت أو اختفت من لسانها الهمزة، وكذلك الأمر بالنسبة للقبائل البدوية أنّها كانت في أحوالها تهمز بل ظهر تحقيق الهمزة لدى القبائل الحضرية، كما اختفى تحقيقها لدى القبائل البدوية يقول سيبويه: «وقد بلغنا أنّ قوما من أهل الحجاز من أهل التحقيق، يحقّقون نبئ وبريئة وذلك قليل رديء»[26] ومن أمثلة ذلك:

-قراءة ابن كثير الذي التزم تحقيق الهمزة حتى جاءت أمثلة شاذة منسوبة إليه قرأ:(فاستوى على سُؤقه) بهمز الضمّة الطويلة.

قال أبو حيان: «وهي لغة ضعيفة» كما وردت سهّلت فيها الهمزة في لسان تميم ومن ذلك قراءة (تِيمَنْهُ) بكسر التاء.

قال أبو عمرو الداني: (هي لغة تميم) ووافقه على ذلك أبو حيان في البحر حيث رفض قول ابن عطية الذي زعم أنّها لغة قريش.[27]

وما ذهب إليه أبو عمرو الداني وأبو حيان الأندلسي هو الأصح لملاحظة غابت عن ابن عطية وهي أنّ كسر أوّل المضارع حين يكون تاء أو نونا أو همزة خاصة بدوية لا قرشية ، وهي لهجة قيس وتميم وأسد وربيعة وعامة العرب ولم يقع ذلك في لسان قريش التي كانت تؤثر الفتح في أوّل المضارع دائما ، يشترك معها في ذلك قوم من أعجاز هوازن ، وأزد السراة وبعض هذيل.[28]

في هذه المسألة يقول عبد الصبور شاهين: فليس غريبا أن يكون الهمز تميميا بدويا والتخلص منه حجازيا حضريا، وأن يكون التزم له خاصة بيانية امتاز بها لسانها، إلى جانب خواص أخر عنها[29]، وما رواه الطبري عن أبي العالية قال: قرأ على رسول الله ﷺ من كلّ خمس رجلٌ فاختلفوا في اللغة، فرضى قراءتهم كلّهم، فكان بنو تميم أعرب القوم.[30]

حذف الهمزة: والقاعدة هاهنا أنّ الهمزة إذا كانت متحركة وكان الحرف الذي قبلها ساكنا جاز حذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها نحو: من أبوك فتقول: (منَ بُوك) ،(وكم ابلك)، فتقول: (كم بِلك). وقد وردت شواهد في هذه الكيفية في النطق نثرا وشعرا وقراءات.

-أمّا النثر: ما حكاه أبو عليّ عن أبي عبيدة أنّه سمع:سدعه في حِرُ امّه«وذلك أنّه نقل ضمّة الهمزة -بعد حذفها-على الراء وهي مكسورة،فنفى الكسرة، وأعقب منها ضمّة.

وما حكاه أحمد بن يحي في خبر له مع ابن الأعرابي بحضرة سعيد بن سلم، عن امرأة قالت لبنات لها وقد خلون إلى أعرابي كان يألفهنّ: «أفي السَوَ تَنْتُنَّهْ».

قال أحمد بن يحي فقال لي ابن الأعرابي: تعال إلى هنا، اسمع ما تقول، قلت: وما في هذا.. !أرادت: «أفي السوْأة أنْتُنّه» فألقت فتحة (أنتنّ) على كسرة الهاء فصارت بعد تخفيف همزة (السوأة): «أفي السو تنتنه».[31]

-أمّا الشعر فقد أورد ابن جني شواهد كثير نذكر منها ما رواه عن الأخفش:

تَضِبُّ لِثَاتُ الْخَيْل في حَجَراتها وتَسمعُ من تحت العجاج لَهَزْمَلا-

أراد "لها أزملا" فحذف الهمزة، ثمّ حذف ألف(ها)لفظا لسكونها وسكون (الزاي) من بعدها، وقال: أنشدنا أبو عليّ :

* إن لم أقتل فالبسوني برقُعا *

أراد : "فألبسون" ثمّ حذف الهمزة، وروى عن أحمد بن يحي :

أريتك إن شطت بك العامَ نِيَّة وغالك مصطاف الحمى ومرابعه

أراد : "أرأيتك" حذف الهمزة الثانية.[32] أمّا القراءات القرآنية فهناك فيض من الآيات التي قرئت بحذف الهمزة اعتبارا للقاعدة التي أثبتناها:

الآية الأولى: قوله تعالى: (بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ)، قرئت (بما أنزلّيك) ونسبت القراءة للكسائي ووصفها بأنّها شاذة.

وعلّق ابن جني عن هذه القراءة فقال: وقياسه في تخفيف الهمزة أن تجعل الهمزة بين بين فتقول: بما أنزل إليك؛ لكنّه حذف الهمزة حذفا، وألقى حركتها على لام أنزل وقد كانت مفتوحة فغلبت الكسرة الفتحة على الموضع، فصار تقديره: (بما أنزلِلَيك) فالتقت اللامان متحركتين فأسكنت الأولى وادّغمت في الثانية.[33]وسبب ضعف قراءة الكسائي عند ابن جني أنّ الحرف إذا كان متحرّكا فلا يسوغ نقل حركة أخرى إليه عوضا.[34]

الآية الثانية : قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)البقرة/ قرئت بحذف همزة الاستفهام (سواء أنذرتهم)وحذفها تخفيفا لكراهة الهمزتين؛ لأنّ قوله (سواء عليهم) لابدّ أن يكون التسوية فيه بين شيئين أو أكثر من ذلك، ولمجيء (أم) من بعد ذلك أيضا وقد حذفت الهمزة في غير موضع من هذا الضرب.

قال عمران بن حطان:

فَأَصْبَحْتُ فِيهِمْ آمِنًا لاَ كَمَعْشَرٍ أَتَوْنِي فَقَالُوا: مِنْ رَبِيعَةَ أَمْ مُضَر

فيمن قال: أم ؛ أي: أمن ربيعة أم مضر ؟ وقال: قال الكميت :

طَرِبتُ وَمَا شَوْقاً إِلَى الْبِيضِ أَطْرَبُ وَلاَ لَعِبًا مِنِّي وَذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ

استشهد به أبو حيّان على تقديم المفعول له على عامله، ردّاً على من منع ذلك، فإنّ شوقاً مفعول له مقدّم على عامله وهو أطرب.

واستشهد به ابن هشام في"المغني"على أنّ همزة الاستفهام لكونها أصلاً جاز حذفها سواء كانت مع (أم لا)، فإنّه أراد، فإنّه أراد: أو ذو الشيب يلعب؟ والاستفهام إنكاريّ.

وقال شارح السبع الهاشميّات: ذو الشيب خبر وليس باستفهام، والمعنى لم أطرب شوقاً إلى البيض، ولا طربت لعباً منّي وأنا ذو الشيب، وقد يلعب ذو الشيب ويطرب وإن كان قبيحاً به، ولكنّ طربي إلى أهل الفضائل والنّهى.[35]

قال ابن جني: وعلى كلّ حال فأخبرنا أبو عليّ الفارسي أن حذف الحرف ليس بقياس، وذلك أنّ الحرف نائب عن الفعل وفاعله، ألا ترى أنّك إذا قلت: ما قام زيد، فقد نابت(ما) عن(أنفي) كما نابت (إلاّ)عن أستثني، وكما نابت (الهمزة وهل)عن أستفهم وكما نابت حروف العطف عن (أعطف) نحو ذلك، فلو ذهبت تحذف الحرف لكان ذلك اختصارا واختصار الاختصار إجحاف به إلاّ أنّه إذا صحّ التوجه إليه جاز في بعض الأحوال حذفه لقوّة الدلالة عليه.[36]

الآية الثالثة: قال تعالى: (فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ) قرئت(فلثم عليه).قال ابن جني مبيّنا هذا الحذف:التقت ألف(لا)وثاء (الإثم)ساكنتين فحذف الألف من اللفظ لالتقاء الساكنين فصارت: (فلثم عليه)، ومثل ذلك سواءً مذهب الخليل بن أحمد في (لن) ألا ترى أنّ أصلها عنده لا أن فلمّا حذفت الهمزة التقت ألف (لا) مع نون (أن) فحذفت الألف من (لا) لالتقاء الساكنين، وقد جاء نظيرا لهذا من حذف الهمزة شيء صالح كثير منه قوله:

إنْ لم أُقاتِلْ فالبِسَوني بُرْقُعا

أراد (فألبسوني) ،ثمّ حذف الهمزة.[37] وقال: وقد اطرد الحذف في (كُلْ، وخُذْ ومُرْ) وحكى أبو زيد : لابَ لك (يريد : لا أب لك).[38]

وفي كيفيَّةِ حَذْفِ هذه الهمزة ثلاثةُ أوجه:

أحدها:-وهو الظاهر-أنه اسْتُثْقِلَ الجمعُ بين همزتين في فِعْلٍ اتصل به ضمير، فَخَفَّفَه بإسقاط إحدى الهمزتين، وكانت الثانيةُ أَوْلى؛ لأنها حَصَل بها الثقلُ، ولأنَّ حَذْفَها ثابتٌ في مضارع هذا الفعل نحو أرى، ويرى، ونرى، وترى، ولأنَّ حذف الأولى يُخلُّ بالفهم إذ هي للاستفهام.

الثاني: أنه أبدل الهمزة ألفاً كما فَعَل نافعٌ في رواية ورش فالتقى ساكنان فحذف أولهما وهو الألف.

الثالث: أنه أبدلها ياءً ثم سكَّنها ثم حَذَفَها لالتقاء الساكنين، قال أبو البقاء، وفيه بُعْدٌ، ثم قال: "وقَرَّب ذلك فيها حَذْفُها فيم مستقبل هذا الفعل" يعني في يرى وبابه.

ورجَّح بعضُهم مذهبَ الكسائيّ بأن الهمزة قد اجتُرِئ عليها بالحذف، وأنشد:

إنْ لم أُقاتِلْ فالبِسَوني بُرْقُعا

وأنشد لأبي الأسود:

يابا المُغِيرةِ رُبَّ أمرٍ مُعْضِلٍ ـ فرَّجْتُه بالمَكْرِ مني والدَّها

وقولهم: ﴿وَيْلُمِّه﴾ وقوله:

وَيْلُمِّها خُلَّةً قد سِيْطَ مِنْ دَمِها فَجْعٌ وَوَلْعٌ وأخلافٌ وتَبْديلُ

وأنشد أيضاً:

ومَنْ رَأْ مثلَ مَعْدانَ بنِ سعدٍ ـ إذا ما النِّسْعُ طال على المَطِيَّهْ

أي: ومن رأى.[39]

الآية الرابعة : قوله تعالى: (وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا) قرئت (وآتَيْتُمْ حْداهُنَّ) وهي قراءة ابن محيصن ، وصل ألف إحداهنّ .

قال أبو الفتح: قد تقدّم نحو ذلك في قوله تعالى: (فلا اثم عليه) يريد (فلا إثم عليه) بشواهده، وهذا حذف صريح واعتباط مريح. وجاء عنهم: سا : يسو، وجا: يجي بحذف الهمزة فيهما.[40]

وقرأ ابن محيصن (وآتيتم آحداهن) بوصل ألف (إحداهن) وهي لغة، كما قرىء: (أنها لإحدى الكبر) بوصل الألف، حذفت على جهة التحقيق ومنه قول الشاعر:

تَضِبُّ لِثاتُ الخَيْل في حَجَراتها _ وتَسْمَع من تحت العَجاج لها اَزْمَلا

يريد أَزْمَل فحذف الهمزة كما قالوا وَيْلُمِّه والأَزْمَل كل صوت مختلط والأَزْمَلُ الصوت الذي يخرج من قُنْب الدابة وهو وِعاء جُرْدانه.[41]نكتفي بهذه الأمثلة التي حذفت فيها الهمزة في النثر والشعر والقراءات،وإذا كان الشعر يجوز فيه الحذف لضرورة الشعرية، فإنّ القراءات القرآنية ليس فيها موضعا للضرورة كالشعر، ولا هي قليلة كما في الكلمات التي تعرضنا لها في كلامنا عن النثر ولذا لابدّ من التنبيه إلى أنّ القراءات التي ورد فيها حذف الهمزة قسمان:

(أ)- قسم حذفه مقيسا: وذلك بأن تكون الهمزة مسبوقة بساكن فتحذف وتلقى حركتها عليه: كقراءة من قرأ (قد فلح) المؤمنون وكذا قراءة من(فلثم عليه) فهذا الحذف مقيسا.

(ب)-وقسم حذفه غير مقيس: وذلك بأن يكون كقراءة ما قبل الهمزة متحرّكا وينظر تحته إلى الكلمات الباقية في القراءات السالفة وهي على قسمين: ما كانت الهمزة فيه للاستفهام وما لم تكن فيه الهمزة فيه للاستفهام.[42]

ولعلّه من المفيد التعرض لبعض القراءات التي وردت منسوبة إلى لهجاتها وهي في مجموعها تصلح قياسا لنسبة غيرها من القراءات المشابهة ونبدأ بالقراءات التي وردت مهموزة:

القراءات التي وردت مهموزة :

(أ)-قرئ: (يُؤْنُس ويُؤْسُف) والقصد (يونس ويوسف)بضمّ النون والسين والهمز فيهما وهي لغة بعض بني أسد.[43]

(ب)-قرأ ابن كثير: (سُؤْقه) لغة ضعيفة يهمز الواو التي قبلها ضمّة[44]، وله قراءة أخرى (بالسُّؤُوق) مهموز ممدود وشركه فيها ابن محيصن[45]قال الدمياطي: وقرأ (سُؤْقه) الفتح /29 بالهمز قنبل وروى له زيادة واو بعد الهمزة.[46]

(ج)-قال أبو الفتح: وقرأ سعيد بن جبير وعيسى بن عمر (من إعاء أخيه) يوسف / وذلك قلب مطرد

في لغة هذيل قرئت بهمزة وأصله (وعاء) فأبدلت الواو-وإن كانت مكسورة- همزة كما قالوا في وسادة: إسادة، وفي وجَاج: إجاح وهو الستر. وهمز وُعاء بالضم أقيس من همز المكسور الواو، فعليه يحسن بل يقوى (أُعاء أخيه)..وقالوا في وجوه: أُجوه، وفي وُعِد أُعِد، وقالوا: أُجْنَة. قال أبو

حاتم ولم يقولوا وُجْنة بل ألزموها الهمز. وقد همزت الواو المفتوحة قالوا: أحد وأصله وَحد أعني أحد عشر ونحوها من أحد وعشرين إلى فوق.[47]

(د)- وقرأ الحسن وابن عباس وأبو رجاء وابن سيرين (وَلاَ أَدْرَأْتُكم به) يونس/16. قال أبو الفتح: هذه قراءة قديمة التناكر لها والتعجب منها. ولعمري إنّها في بادئ أمرها على ذلك غير أنّ لها وجها،وإن كانت فيه صنعة وإطالة. وطريقه أن يكون أراد (ولا أدريتكم به) ثمّ قلب الياء لانفتاح ما قبلها وإن كانت ساكنة ألفا كقولهم: في (ييئس : ياءس ، وفي ييبس: يابس) وكقولهم: (ضرب عليهم سايَة) وإنّما يريد (سيّة) وهي فعلة من سوّيت ، فقلبت الواو ياء وأدغمت في الياء فصار سيّة ثمّ قلبت الياء الأولى لانفتاح ما قبلها وإن كانت ساكنة ألفا فصارت (سايَة).[48]

قال أبو حاتم: قلب الياء ألفا كما في لغة بني الحرث بن كعب: السلام علاك ثمّ همز على لغة من قال في العالم: العألم.[49]

تعليق:وعلّق د/عبد الصبور على هذه الروايات فقال: هذه الروايات وردت مهموزة ويلاحظ أنّ الهمز فيما قد وقع على حركة طويلة، أو صوت ليّن مزدوج، بحسب ما كانت عليه الكلمة قبل النبر فهم من المجموعة البدوية التميمية.

وأمّا هذيل فيبدو أنّ المقصود بعض بطونها، ويستأنس لذلك بما سبق قبل سطور، من أنّ هذيل كقريش لا يهمز، وفي ذلك دلالة على مدى التخالط والتأثر المتبادل بين قبائل الجزيرة حتى لا نجد الظاهرة ونقيضها في نطاق قبيلة واحدة.[50]

(هـ)-وقرأ أيوب السختياني (ولا الضألين) بالهمز. قال ابن جني: إنّ أيوب سئل عن هذه الهمزة فقال: هي بدل من المدّة لالتقاء الساكنين. واعلم أنّ أصل هذه ونحوه: (الضاللين) وهو (الفاعلون) من ضلّ يضلّ، فكره اجتماع حرفين متحركين من جنس واحد على غير الصور المحتملة في ذلك ، فأسكنت اللام الأولى وأدغمت في الآخرة فالتقى ساكنان: الألف واللام الأولى المدغمة فَزِيدَ في مدّة الألف، واعتمدت وطأة المدّ فكان نحوا من تحريك الألف وذلك أنّ الحرف يزيد صوت الألف بإشباع مدّته .

وحكى أبو العباس محمّد بن يزيد عن عثمان عن أبي زيد قال: سمعت عمرو بن عبيد يقرأ (فَيَوْمئذ لاَ يُسَأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْس وَلاَ جَأَنٌّ)الرحمن/74 ، قال : أبو زيد فظننته قد لحن إلى أن سمعت العرب تقول: شأَبَّة ومَأَدَّة، وعليه قول كثّير:

إِذَا مَا الْعَوَالِي بالعَبِيط احْمَأَرَّت

وقال كثير _أيضا-من قصيدة في مرثية عبد العزيز بن مروان :

ولِلأرض أما سُودُها فَتَجلّلتْ بَيَاضا وأمّا بِيضُها فادْهَأَمَّت[51]

(و)- وقرأ علي والحسن وابن محيصن وأبو عمرو وأمّ الدرداء وابن أبي عبلة (لَيُنْبَذَأَنّ) بالهمز وتشديد النون المكسورة[52]

(ز)-وقرأ: (مؤصدة)البلد/20 بالهمز أبو عمرو وحفص وحمزة ويعقوب وخلف من (آصدت الماء: أغلقته فهو مؤصد) وافقهم اليزيدي، والحسن والأعمش، وقرأ الباقون بالإبدال واوا كحمزة وقفا من (أوصد يوصد). وأبو عمرو عنده لا تبدل واو.[53]

القراءات التي وردت غير مهموزة:

(أ)-قرأ الجحدري (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ) بتسهيل الثانية وإدخال ألف قالون وأبو عمر وهشام من طريق ابن عيدان عن الحلواني، وكذا جعفر وافقهم اليزيدي وقرأ ورش من طريق الأصبهاني وابن كثير وكذا رويس بتسهيلها من غير إدخال ألف وهو أحد الوجهين عن الأزرق والثاني له إبدالها ألفا خالصة مع مدّ للساكنين وهما صحيحان ، وقرأ ابن ذكوان وهشام من مشهور طرق الداجوني عن أصحابه..وعن ابن محيصن (أنذرتكم) بهمزة واحدة مقصورة.[54]

قال أبو الفتح: هذا لابدّ فيه أن يكون تقديره (أأنذرتكم)ثمّ حذف همزة الاستفهام تخفيفا لكراهة همزتين؛ ولأنّ قوله: (سواء عليهم)لابدّ أن يكون التسوية فيه بين شيئين أو أكثر من ذلك ولمجيء (أم)من بعد ذلك أيضا وقد حذفت هذه الهمزة في غير موضع من هذا الضرب قال عمران ابن حطان:

فَأَصْبَحْتُ فيهم آمِنًا لاَ كَمَعْشَر أَتَوْني فَقَالُوا : مِنْ رَبِيعَة أَمْ مُضَر

فيمن قال : أم ، أي : أمن ربيعة أم مضر ؟ وقال الأسود بن يعفر :

لَعَمْرُكَ مَا أدري وإن كنتُ دَارِيًا شيعتُ بنُ سهم أم شُعيثُ بن مِنْقَر[55]

أما أبو حيان فله تعليق على هذه القراءة فقال: ولغة تميم تخفيف الهمزتين في نحو: (أأنذرتكم) وبه قرأ الكوفيون وابن ذكوان وهو الأصل .

وأهل الحجاز لا يرون الجمع بينهما طلبا للتخفيف فقرأ الحرميان وأبو عمرو وهشام بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية إلاّ أنّ أبا عمرو وقالون وإسماعيل عن نافع وهشام يدخلون بينهما ألفا وابن كثير لا يدخل.[56]

أمّا الأخفش فله تخريج آخر مفاده أنّ قوله: (أأنذرتهم) فيها ألفان ألف (أنذرت) وهي مقطوعة ثمّ جعلت معها ألف الاستفهام فلذلك مددت وخففت الآخرة منهما لأنّه لا يلتقي همزتان.[57]

ب)-وقرأ أبو جعفر والحسن وابن مسعود (وإذا الرسل وُقّتت).[58] وهي لغة سفلى مضر.

ج)- وقرأ ابن سعدان عن أبي عمرو ، والبزي ويزيد (اللاَّيْ) بياء ساكنة من غير همز قال أبو حيان :

(وهو بدل مسموع لا مقيس وهي لغة قريش).[59]

د) - قراءة الحسن وأبي جعفر وشيبة والزهري (وبدت سوَّاتهما)الأعراف /20 بتشديد الواو.

قال أبو الفتح عن هذه القراءة: حكى سيبويه ذلك لغة قليلة، والوجه في تخفيف نحو ذلك أن تحذف الهمزة وتلقى حركتها على الواو قبلها في تخفيف نحو (السوءَة): السّوَة وفي تخفيف (الجيئة : الجية) ومنهم من يقول: السّوَّة: والجيَّة، وهو أدون اللغتين وأضعفهما ومنهم من يقول في المنفصل(أو أنت: أوَّنت)، وفي (أبو أيّوب: أبَوَّيُّوب). والسوءَة في الأصل فَعْلَة من (ساء، يسوء)كالضربة والقتلة فأتاها التوحيد من قبل المصدرية التي فيها...[60]

هـ)-ومن قراءة الثّقفي: (سيْغا للشاربين)النحل /66 وقراءة الناس: (سائغا).

قال أبو الفتح: ينبغي أن يكون(سيْغ)هذا محذوف من (سَيِّغ)، كمَيْت وميِّت، وهيْن وهيِّن؛ وذلك أنّه من الواو، لقولهم ساغ شرابهم يسوغ.ولو كان (سَيْغ) فعلا لكان(سَوْغا).ومن قولهم: (هو أخوه سَوْغُه) أي: قابل له غير متباعد عنه، كالشراب إذا قبلته نفس شاربه ولم تنب عنه.[61]

وقرأ الأعرج وابن عامر ونافع: البرئة بالهمز من برأ، بمعنى خلق. والجمهور: بشد الياء، فاحتمل أن يكون أصله الهمز، ثم سهل بالإبدال وأدغم، واحتمل أن يكون من البراء، وهو التراب.

قال ابن عطية: وهذا الاشتقاق يجعل الهمز خطأ، وهو اشتقاق غير مُرْضٍ، ويعني اشتقاق البرية بلا همز من البرا، وهو التراب، فلا يجعله خطأ، بل قراءة الهمز مشتقة من برأ، وغير الهمز من البرا؛ والقراءتان قد تختلفان في الاشتقاق نحو: أو ننساها أو ننسها، فهو اشتقاق مُرْضٍ.

وقرأ أبو عمرو وورش عن نافع (يومنون) بغير همز وكذلك (يأكلون ويومرون) وحجتهما في ذلك ثقل الهمز وبعد مخرجها وما فيها من المشقة فطلب من تخفيفها ما لم يطلب من تخفيف ما سواها ولهذا قيل النطق بها كالتهوع، وورش يترك أيضا الهمزة المتحركة مثل: (لا يواخذكم و لا يوده) وأبو عمرو يهمز.

وحجته أن الهمزة الساكنة أثقل من المتحركة وذلك أن تخرج الهمزة الساكنة من الصدر ولا تخرج إلا مع حبس النفس والهمزة المتحركة تعينها حركتها وتعين المتكلم بها على خروجها فلذلك همز أبو عمرو المتحركة وترك الساكنة وترك أيضا ورش ما كان سكونها علامة للجزم نحو إن نشأ وتسؤهم وهمز أبو عمرو وحجته في ذلك أن الكلمة قد سقط منها حرف قبل الهمزة لسكونها وسكون الهمزة وهو الألف من نشاء والواو من تسوؤهم وسقطت حركة الهمزة للجزم فلو أسقط منها الهمزة لكان قد أسقط من الكلمة ثلاثة أشياء الهمزة وحركتها والألف فيخل بالكلمة.[62]

وختاما للموضوع: نقول: قد تحدثت كتبُ علم القراءات بالتفصيل في موضوع الهمز في اللهجات العربية، وأثره في اختلاف القراءات، ونكتفي بخلاصة ما تقدّم بيانه:

1-إنّ هذه القراءات أثبتناها تمثيلا لا حصرا كلّها حجازية وردت فيها الهمزة مخففة أو مبدلة بحرف أخر أو بإسقاطها ممّا يدلّ أنّ الهمز والتسهيل ظاهرة ليست مختصة ببيئة معيّنة وإنّما هناك تأثير وتأثر بين اللهجات العربية.

2- إنّ هذه القراءات تؤكّد أنّ تحقيق الهمزة أكثر انتشارا لدى القبائل البدوية لعلّة ذكرناها، وأنّ تسهيلها لدى القبائل المستقرّة المتحضرة.

3- وتجمع كتب العربية على أنّ تحقيق الهمزة من لهجات تميم وقيس وأسد ومن جاورها أي: قبائل وسط شبه الجزيرة وشرقيها، وأنّ تسهيلها لهجة أهل الحجاز.

وليست القبائل التي تهمز كلّها على درجة واحدة في الهمز، بل منهم من يذهب في تحقيقها مذهبا بعيدا فيبدل الألف والواو والياء همزة وهم بنو أسد، ذكر الفراء أنّ همز (يأجوج ومأجوج) لغة بني أسد، وجهه في العربية ما رواه ابن جني عن العجاج أنّه كان يهمز العألم والخأتم.[63] قال العجاج:

فخِنْدِفٌ هامة هذا العألم

وحكى اللحياني عنهم (بأز) بالهمز.وحكى بعضهم قوقأت الدجاجة، وحلّأت السويق ورثأت المرأة زوجها ، ولبّأ الرجل بالحج، وهذا كلّه شاذ غير مطرد في القياس ونحوه قول ابن كُثوة:

ولّى نَعام بني صَفوانَ زَوْزَأَةً لمّا رأى أسَدًا في الغاب قد وثبا

أراد (زوزاة) غير مهموزة.[64]

ولما كان للبيئة أثر في نطق الناطقين فإنّ الهمز يناسب البيئة البدوية لطبيعتها وخشونة عيشها انعكس ذلك على نطق أهلها، والهمز ثبت أنّها صوت شديد؛ لأنّه صوت حنجري انفجاري لا هو بالمجهور ولا بالمهموس، ووصفه ابن جني فقال: وإنّما لم تجتمع الفاء والعين ولا العين واللام همزتين لقل الهمزة الواحدة لأنّها حرف سفل في الحقل وبعد عن الحروف وحصل طرفا فكان النطق به تكلّفا[65]

وقد تقدّم تعريف ابن يعيش للهمزة بأنّه حرف شديد مستثقل من أقصى الحلق إذ كان أدخل الحروف في الحلق فاستثقل النطق به إذ كان إخراجه كـ(التهوع) فلذلك من الاستثقال ساغ فيها التخفيف وهو لغة

قريش وأكثر أهل الحجاز(أي: مكّة والمدينة لتحضرهما ويناسب طبعهما) وهو نوع استحسان لثقل الهمزة والتحقيق لغة تميم وقيس عيلان (لبداويتها وجفاوة طبعها) وعندهم أنّ الهمزة حرف فوجب الإتيان به كغيره من الحروف.[66]

مع كلّ ما أثبتناه يدل دلالة قاطعة أن القراءات المروية على اختلافها شملت اللهجات العربية وهذا الهمز دليل على أنّه منتشر في اللغة العربية كما يتضح من خلال القراءات التي سبق لنا إثباتها وكما هو دليل قاطع على أنّ هذه العربية المشتركة التي نعرفها في النصوص الجاهلية لم تقم على لهجة قريش وحدها، أو بعبارة أخرى ليست لهجة قريش هي هذه العربية المشتركة على ما ذهب إليه القدماء والمحدثون[67]وهو رأي جدير بالاحترام والقبول؛ لأنّ ما هو موجود في القرآن الكريم ونصّت عليه الآية: (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ .)

الهوامش:

1- لسان العرب ، ابن منظور ، (مادة : همز)

2- القواعد والإشارات في أصول القراءات ، أبو العباس الحموي ، ص: 49

3- القواعد والإشارات في أصول القراءات ، أبو العباس الحموي ، ص: 46-47

4- لسان العرب، ابن منظور ، (مادة : نبر) والحديث أخرجه الحاكم في مستدركه وضعّفه الذهبي وقال: هو حديث منكر .

5- سرّ صناعة الإعراب ، ابن جني ، 481

6-الكتاب الأوسط في علم القراءات، الإمام أبو محمد الحسن بن عليّ بن سعيد المقرئ العماني، ص: 192 تحقيق د/عزة حسن.

7- الدر المصون في علم الكتاب المكنون، 2981

8- جامع الأحكام ، القرطبي ، 391

9- رواه البخاري ومسلم والآية ، من سورة النساء رقم 40

10 – منا هل العرفان ، الزرقاني ، 4061

11- منجد المقرئين ، ابن الجزري ، ص:20-21

12- القراءات وأثرها في التفسير ، د/محمّد بازمول ، 1171161

13- الكتاب ، سيبويه ، 5423

14- شرح المفصل ، ابن يعيش ، 1079

15- الكتاب ، سيبويه ، 4052

16- سرّ صناعة الإعراب ، ابن جني ، 711

17- البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي ، 411

18- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، ابن جني ، 1141 تنبيه : البيت نسبه البغدادي لمضرس بن ربعي

19- معاني القرآن ، الأخفش الأوسط ، 43401

20- في اللهجات العربية ، د/ إبراهيم أنيس ، ص: 66

21-لسان العرب ، ابن منظور ، (مقدّمة لسان العرب) 22/1

22- في اللهجات العربية ، د/ إبراهيم أنيس ، صك 109-110

23- في اللهجات العربية ، د/ إبراهيم أنيس ، ص: 110-111 تنبيه : ويؤيد ما ذهبنا إليه : أنّ ظاهرة قلب الهمزة لا تزال شائعة في بعض اللهجات الحديثة لدى بعض القبائل العربية في الجزائر وخاصة لدى

أولاد بسام ،وأولاد عياد بتيسمسيلت ، وكذلك لدى قبيلة الزناخرة وأولاد أحمد ولدى القبائل المحيطة بقصر الشلالة، فنحن نسمع حتى الآن لدى هذه القبائل من يقول: القرعان بدلا من القرآن ، السعال بدلا من السؤال ، علف بدلا من ألف . . الخ

24- تهذيب اللغة ، الأزهري (مادة : همز)

25- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ، د/ عبد الصبور شاهين ، ص: 30-31

26- الكتاب ، سيبويه ، 5553

27- البحر المحيط ، 4992

28- في اللهجات العربية ، د/ إبراهيم أنيس ، ص: 127

29- القراءات القرآنية ، د/ عبد الصبور شاهين ، ص: 33-34

30- جامع البيان في تفسير القرآن ، الطبري ، 451

31- الخصائص ، ابن جني ، 1421413

32- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، ابن جني ، 2091

33- الخصائص ، ابن جني ، 1413

34- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، ابن جني ، 2821

35- خزانة الأدب، البغدادي، 612

36- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، ابن جني ، 1291

37- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، ابن جني ، 1/208-209

38- الخصائص ، ابن جني ، 3/ 151

39- الدر المصون في علم الكتاب المكنون، 2076

40- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، ابن جني ، 2851

41- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 1015

42- الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ، ص: 182-183

43- شواذ القراءات ، الكرماني ، ص: 66

44- البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي ، 1038

45-شواذ القراءات ، الكرماني ، ص: 208

46- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر الدمياطي ، ص: 511

47- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، ابن جني ، 202

48-المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، ابن جني ، 4291

49- البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي ، 1335

50- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ، ص: 34-35

51- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، ابن جني ، 1/124-125

52- شواذ القراءات الكرماني ، ص : 210 . البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي ، 5108

53- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ، الدمياطي ، ص: 585

54- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ،الدمياطي ، ص: 169

55- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، ابن جني ، 1291

56- البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي ، 791

57- معاني القرآن ، الأخفش الأوسط ، 1822

58-المحتسب في تبين وجوه الشواذ القراءات والإيضاح عنها ، ابن جني ، 202

59- البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي ، 2117

60- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، ابن جني ، 1/353--354

61- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، ابن جني ، 542

62- حجة القراءات لابن زنجلة، 851

63- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، ابن جني ، 901

64- سرّ صناعة الإعراب ، ابن جني ، 901

65- سرّ صناعة الإعراب ، ابن جني ، 811

66- شرح المفصل ، ابن يعيش ، 1079

67-اللهجات العربية في القراءات القرآنية ، د/ عبده الراجحي ، ص: 108

إحياء التراث وتحقيقه ونشره
تحقيق تاريخ دمشق لابن عساكر نموذجاً

أ. د. صلاح كزّارة

- جامعة حلب ـ سوريا

التراث العربي الإسلامي هو ذاكرة الأمّة، وعنوان هويتها، بل هو مكوّن مهم من مكونات الشخصية. ويعد إحياؤه وتحقيقه ونشره ضرورة علمية قومية إنسانية، فهو حقل خصب لرفد الحاضر وإغنائه وربما صياغته وبنائه واستشراف المستقبل. [1]

والمقصود بإحياء التراث العربي الإسلامي- في بحثنا هذا- طباعة الكتب المخطوطة المعروفة باللغة العربية في مختلف العلوم والفنون والمعارف[2] ، أو إبراز نصوص المخطوطات المكتوبة باللغة العربية ونشرها بعد تحقيقها تحقيقا علميا وفق الأصول والقواعد المتعارف عليها في هذا الشأن [3] ، أم في إعادة الحياة إليها بطباعتها مجرد طباعة بعد تصحيحها حيناً [4]، أو إغفال ذلك التصحيح في معظم الأحيان، كما نرى اليوم في كثير من المطبوعات التجارية.

يتناول «إحياء التراث» كل ما خلّفه لنا الأجداد في مختلف المجالات الثقافية والأدبية والعلمية، هذا التراث الذي مازال معظمه قابعاً في

المكتبات العامة والخاصة والمساجد والأديرة وغيرها من الأماكن يبحث عمّن ينفض عنه غبار السنين، ويخرجه من عالم النسيان إلى عالم التذكّر ومن عالم الظلمة إلى عالم النّور.[5] ولكن يحسن بنا قبل الحديث عن تاريخ إحياء هذا التراث بالمفهوم الذي أوردناها والدافع إليه أن نحدد المراد بـ «التراث العربي الإسلامي». أمّا كلمة (التراث) لغةً واصطلاحاً فلن نعيد ما ذكره الباحثون حولها.[6] وأمّا « العربي الإسلامي» فهو: كما يقول عبد السلام هارون كل ما كتب باللغة العربية، وانتزع من روحها وتيارها قدراً بصرف النظر عن جنس كاتبه، أو دينه، أو مذهبه، فإن الإسلام قد جبّ هذا التقسيم وقطعه في جميع الشعوب القديمة التي فتحها، وأشاع الإسلام لغة الدين فيها وهي اللغة العربية التي لوّنت الشعوب بلون فكري واحد متعدد الأطياف هو الفكر الإسلامي، وهو الفكر العربي.[7]

فالتراث «عربي» لأنّه كتب باللغة العربية ابتداءً أو نقلاً من السريانية والفارسية والهندية واليونانية وغيرها. وهو «إسلامي» لأنّه يعبر عن الفكر الإسلامي، وينطلق من المنطلقات الإسلامية، ويخدم الثقافة الإسلامية، ونشأ بين المسلمين.[8] ولكن ليس كل التراث الإسلامي عربيا من حيث اللغة، فهناك لغات غير عربية تحفل بالتراث الإسلامي.[9]

أمّا الدافع إلى إحياء التراث العربي الإسلامي في عصرنا هذا فكان دافعاً قومياً قبل أن يكون علمياً، بسبب طغيان الثقافة الأوروبية من جهة ، والنفوذ التركي من جهة أخرى. فأراد العرب أن يحسّوا بكيانهم المستمد

من كيان أسلافهم، في الوقت الذي ألفوا فيه الغرباء من الأوروبيين يتسابقون في نشر كنوز الثقافة العربية[10]، وكذلك كان من الدوافع الكبيرة إلى إحياء التراث ونشره الرغبة القوية في النهوض والإصلاح، ثم ملاحقة التطور الأوروبي الذي تناهت أصداؤه وثماره من خلال الغزو وإرسال البعثات.[11]

لقد لبس إحياء التراث العربي الإسلامي ثوباً جديداً بسبب النشاط السريع الذي تمثّل بإنتاج المطابع الحديثة، إذ يرتبط إحياء هذا التراث باختراع آلة الطباعة منذ القرن الخامس عشر الميلادي على يد الألماني يوهانس [يوحنا] غوتنبرغ [1397-1468]م، وكان ذلك سنة 1436م .[12] فكان هذا الاختراع إنجازاً حضارياً كبيراً وإيذاناً ببدء عصر جديد من انتشار العلم والتقاء الحضارات، وتبادل الثقافات، كما كان هذا الاختراع البديل العظيم للنسخ والوراقة اللذين كانا السبيل الوحيد لانتقال المعرفة وذيوع العلم.[13] ويعلق محمود الطناحي على ظهور المطبعة وعلاقتها بنشر التراث العربي الإسلامي قائلا:« وحين ظهرت المطبعة في القرن الخامس عشر الميلادي، كان المستشرقون من أسبق الناس إلى طبع الكتاب العربي. وإن المرء ليعجب من غزارة ما طبعوه من تراثنا، وكأن هذا الاختراع العظيم إنما جاء لخدمة ذلك التراث وحده، وإذاعته ونشره، وكأنه لم يكن بين أيدي الناس في تلك الأيام من تراث الإنسانية إلا تراث العرب».[14]

أما الطباعة العربية في أروبا فقد كان مهدها الأول في إيطاليا منذ أوائل القرن السادس عشر، إذ ظهرت أول مطبعة تطبع بحروف عربية في مدينة فانو على ساحل الأدرياتيكي سنة 1514، وقد احتفل البابا ليون العاشر بافتتاحها لدى نشرها أول كتاب بحروف عربية، وهو «صلاة السواعي» في 12 أيلول (سبتمبر) 1514[15] . ثم طبعت بعد ذلك كتب تعدّ من أقدم الكتب العربية المطبوعة مثل الكافية في النحو لابن الحاجب، طُبع في مطبعة مديتشي في فلورنسا سنة 1592، وكذلك كتاب القانون في الطب لابن سينا 1593، وكتاب التصريف للزنجاني سنة 1610. ثم أخذت المطابع العربية في الانتشار في العواصم الأوربية المختلفة، انتقلت بعد ذلك إلى الآستانة [إستنبول]، التي كانت أسبق مدن الشرق إلى الطباعة، ثم انتشرت في بلاد الشام منذ أواسط القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، ثم في مصر مع مجيء الحملة الفرنسية عام 1798م .[16]

ويرى بعض الباحثين أن الطباعة العربية في أروبا ما كانت لتنشر لولا ارتباطها ارتباطاً وثيقاً بصناعة الكاغد أولاً، وحُمّى التنصير ثانيا، والهيمنة الاستعمارية ثالثا، وتطور الاستشراق ووصوله إلى نظام مبني وفق قواعد منظمة رابعا. ويوضح ذلك بالقول: «لو لم يصنع الكاغد في أوربا لما كانت هناك طباعة، ولو لم يكن الاستعمار الأوربي بضروبه المختلفة لما كان هناك مجال للتنصير المنظّم، ولو لم يكن الاستشراق والتنصير لما كانت هناك طباعة عربية في أوربا».[17]

ويذهب الباحثون عموما إلى أن المطبوعات العربية في أوربا منذ القرن السادس عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر غلب عليها الطابع التبشيري التنصيري خصوصاً في القرنين السادس عشر والسابع عشر، إذ كانت موجهة لتعليم المبشّرين اللغة العربية التي هي أهم وسائل عملهم، فتعلّم العربية -كما يقول ريموند لول- يسهّل تنصير المسلمين.[18] ولما طبع كتاب التصريف للزنجاني بمطبعة مديتشي سنة 1610 قدّم له يوحنا ريموندیس بمقدمة أكّد فيها أهمية تعلّم اللغة العربية لأغراض تنصيرية لأنّه لا يكاد يوجد جزء في العالم لا يستعمل هذه اللغة .[19] أما في القرن الثامن عشر فقد نشرت فيه -إلى جانب الكتب التبشيرية- بعض النصوص التراثية مثل تاريخ أبي الفداء المختصر في أخبار البشر، وتقويم البلدان، وسيرة صلاح الدين لابن شداد وكتب اللطيف البغدادي الطبية، ولكنها لم تحظ بالعناية الكافية ولم تتوفر لها الشروط العلمية الصحيحة التي ستظهر في القرن التاسع عشر، وكانت النسخ التي تطبع من كل كتاب قليلة جداً، حتى في الكتب التي طبعت بعد ذلك وتوفرت لها شروط النشر الصحيحة، ذلك أن المستشرقين ما كان ليهمهم أن ينتشر الكتاب على نطاق واسع، بل كانوا يطبعون ما تحتاج إليه مراكز الاستشراق.[20] ويخلص بنا القول إلى أن نشر التراث العربي في أوربا قبل القرن التاسع عشر كان يهدف إلى تعليم اللغة العربية، والحرص على طباعة الكتب التعليمية المعنية على ذلك بدوافع تبشيرية وأهداف تنصيرية واستعمارية، كما أن ما نشر منه لم تتوفر له شروط النشر العلمي الصحيح.[21]

منذ أوائل القرن التاسع عشر أخذت عناية المستشرقين بنشر التراث العربي الإسلامي بصورتها الجادّة، وتجلّت جهودهم في خدمة هذا التراث -كما يقول الطناجي- في اتجاهات ثلاثة: نشر النصوص، والتعريف بالمخطوطات، ودراسة الفنون وأعلام التراث. وقد ظهر أثر الاتجاهين الأخيرين في مؤتمرات المستشرقين، ومجلاتهم المتخصصة، ودوائر المعارف.[22] وما يعنينا هنا هو جهودهم في تحقيق التراث ونشره. وما كان لهذه الجهود لتنضج وتؤتي أكلها إلا بعد أن بدأ اهتمام الأوروبيين منذ القرن الخامس عشر بإحياء آدابهم القديمة اليونانية واللاتينية، وتطوّر نقد النصوص من شعر وغيره ليتحول إلى علم من جهة، وإلى صناعة واصطلاح من جهة أخرى. فراحوا ينشرون هذه النصوص القديمة دون أن يكون لهم -كما يقول المستشرق الألماني برجشتراسر- منهج معلوم ولا قواعد متّبعة حتى القرن التاسع عشر حين وضعوا أصولاً علمية لنقد النصوص ونشر الكتب القديمة مستنبطين هذه القواعد من الآداب اليونانية واللاتينية، ثم آداب القرون الوسطى الغربية، فألّفوا المقالات والكتب في فن نقد النصوص، ثم استعمل المستشرقون - بعد زملائهم بمدة- تلك الأصول وتلك القواعد في نقد الكتب العربية والشرقية ونشرها.[23]

وهكذا ظهر في هذا القرن المستشرقون العظام الذين انتهجوا تلك الأصول وطبّقوا تلك القواعد في تحقيق الكتب العربية ونشرها، فكان جهدهم العلمي في إحياء التراث جهداً لا يستطاع إنكاره، فكانوا -كما

يقول عبد السلام هارون-«أساتذة الجيل الحاضر في الطريقة العلمية التي جروا عليها». ويذكر هارون أمثلة لهؤلاء، «العلماء الأمناء الذين قاموا بنشر عيون ثمينة من التراث العربي على الوجه الأمثل ومنهم: وستنفلد الألماني الذي ألّف وحقّق نحو مئتي كتاب بين صغير وكبير، وبيفان الإنجليزي ناشر نقائض جرير والفرزدق... ولايل الانجليزي محقق شرح المفضليّات لابن الأنباري مع ترجمة شعرية لها باللغة الانجليزية، وجاير النمساوي محقق ديوان الأعشى والأعشين الآخرين في عناية فائقة وتخريج مستفيض[24]». ويشيد محمّد كرد علي - مؤسس المجمع العلمي بدمشق بمئات المستشرقين النابغين في العربية وآدابها الذين كانوا من العوامل الكبرى في النهضة العربية الأخيرة، بما أحيوا من كتب العربية القديمة، وخدموها بمعارضتها على النسخ المتعددة، وبوضع الفهارس المنوعة لها ليسهل الانتفاع بها بسرعة، ومنهم تعلّمنا هذه الطريقة.[25] «ويذكر في مقالة أخرى أنّه: «لولا عناية المستعربين بآثارنا لما انتهت إلينا تلك الدرر الثمينة التي أخذناها من طبقات الصحابة، وطبقات الحفّاظ، ومعجم ما استعجم، وفهرست ابن النديم... ولولا إحياؤهم تاريخ ابن جرير [الطبري] وابن الأثير وأبي الفداء والمسعودي... لجهلنا تاريخنا الصحيح، وأصبحنا في عناية من أمرنا. ولو جئنا نعدّد حسنات دواوين الشعر أو كتب الأدب والعلم التي أحيوها لطال بنا المطال.[26]

ولكن هذه المواقف المشيدة بجهود المستشرقين والمبيتة مالهم من أثر واضح لا سبيل إلى إنكاره في خدمة التراث العربي، ما كان ليرضي

الكثير من الباحثين الذين وقفوا من الاستشراق والمستشرقين موقف العداء والحطّ والتجاهل، إن لم نقل الإنكار، وليس من غرضنا هنا أن نعرض لما كتبه أعداء الاستشراق من كتب ومقالات، ولا أن نذكر الاتهامات والانتقادات الكثيرة التي كيلت للمستشرقين ولنواياهم ولأعمالهم. وما يهمّنا في هذا الجانب -جانب نشر التراث وتحقيقه- أن هناك من يرى أن المستشرقين ليسوا هم من وضع أصول تحقيق النصوص ولا التقعيد لها، ولا صناعة الفهارس الفنية التي ينسبها الكثيرون إليهم. ويرون أن المستشرقين إنما هم عالة على علمائنا القدامى، والمنصف من هؤلاء كعبد السلام هارون الذي وصفهم بأنهم أساتذة الجيل الحاضر في الطريقة العلمية التي جروا عليها، يرى أن تحقيق النصوص وتوثيقها فن عربي أصيل، يتجلّى في معالجة أسلافنا الأقدمين لرواية كتب الحديث واللغة والشعر والأديب والتاريخ في دقة وأمانة ونظام بارع، ولكن المستشرقين تبنّوا إحياء هذا الفن في هذه العصور القريبة».[27]

وينقل الطناحي عن بعض العلماء المعاصرين الذين اعترفوا بفضل المستشرقين في إحياء التراث العربي ونشره وفق المناهج العلمية الدقيقة، ولكنهم نظروا فيما استحدثه المستشرقون من مناهج، وما أصلّوه من قواعد، فإذا هو «منتزع من داخل التراث نفسه، موصل الأسباب والنتائج بما صنعه الأوائل، والمستشرقون أنفسهم يعرفون ذلك حق معرفته».[28] ويعلّق شوقي ضيف على صنيع اليونيني في إخراج صحيح البخاري بعد أن فصّل الكلام عليه قائلاً: وإخراج اليونيني لصحيح البخاري على هذا

النحو يدل بوضوح على أن أسلافنا لم يبقوا لنا ولا للمستشرقين شيئاً يمكن أن يضاف بوضوح في عالم تحقيق النصوص.[29]

وقد سبق كل هؤلاء الشيخ أحمد محمّد شاكر حين قال في تقديم «جامع الترميذي» الذي أخرجه في ثلاثينيات القرن الماضي: «إن هؤلاء الأجانب لم يكونوا مبتكري قواعد التصحيح، وإنما سبقهم إليها علماء الإسلام المتقدمون، وكتبوا فيها فصولاً نفسية، نذكر بعضها هنا، على أن يذّكّر القارئ أنهم ابتكروا هذه القواعد لتصحيح الكتب المخطوطة، إذ لم تكن المطابع وجدت، ولو كانت لديهم لأتوا من ذلك بالعجب العجاب».[30] وبعد أن يشيد الشيخ بما امتازت به مطبوعات المستشرقين من العناية بوضع الفهارس المرشدة للقارئ والتفنن في أنواعها، يرى أن الناس اغترّوا بصناعة المستشرقين في الفهارس وظنّوا أنّها شيء لم يعرفه علماء الإسلام والعربية.[31]

إحياء التراث وتحقيقه في العصر الحديث

لاشك أن الأمم الحية تهتم بتراثها في مظاهره كلها، ويعد التراث المكتوب[المخطوط] حجر الأساس في نهضة أية أمة، فهو التعبير الأصيل عن حضارتها وتاريخها ومنجزاتها. وهذا شأن تراث الأمة العربية. فلا عجب أن ينهض أبناء هذه الأمة لإحياء هذا التراث تحدوهم دوافع شتى سبق الحديث عنها، ولا ضير أن نذكر منها أن التفاتنا إلى تراثنا بدأ مع حركة اليقظة التي لاحت بوادرها في القرن الثامن عشر، حيث أدرك

روادها أن ارتباط اليقظة بجديد الغرب وحده، بفقدها عنصر الأصالة الذي ترتهن به صحتها وسلامتها، فلم تنفصل حركة إحياء التراث عن حركة اليقظة اليومية، ولا قامت بمعزل عنها، وإنما كانت عنصراً أساسياً في برنامجها، وموقعاً من مواقع النضال في الميدان الذي تقاسمه الرواد فيما بينهم.[32] ولم يغب عن رواد النهضة أنهم أمام تراث ضخم ينبغي إحياؤه، واستلهام قيمه وذخائره في حركاتهم القومية، والسياسية، والاجتماعية للخروج من الحالة التي آلت الأمة إليها أواخر الحكم العثماني.

لقد قُدّر هذا التراث الضخم بثلاثة ملايين مخطوطة في تقدير المقلين [33]، وبأكثر من خمسة ملايين في تقدير المكثرين[34] فشمّر أبناء هذه الأمة سواعد الجد لإحياء هذا التراث إثر دخول المطبعة إلى ديار العرب والمسلمين، وابتداء طباعة الكتب العربية فيها، وذلك بعد مرور أكثر من مأتي سنة على طباعة الكتب العربية في أوروبا بحروف عربية[35]، وما ذلك إلا لأن مكتبات الأوروبيين ومتاحفهم كانت عامرة بالمخطوطات العربية الإسلامية التي وجدت طريقها إلى هذه المكتبات والمتاحف بطرق شتى لا يعنينا الخوض فيها، وحسبنا أن نذكر ما نقلته الدكتورة بنت الشاطئ عن الأستاذ الرئيس محمد كرد علي:«كتب الأستاذ السيد محمد كرد علي - رحمه الله - في خطط الشام: ومن المصائب التي أصيبت بها كتب الشام، أن بعض دول أوربا ومنها فرنسا وجرمانيا وبريطانيا وهولانده وروسيا، أخذت تجمع مند القرن السابع عشر كتباً - من تراثنا - تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشّرين من رجال

الدين. وكان قومنا ولاسيما من اتّسموا بشعار الدين ومن كان يرجع إليهم أمر المدارس والجوامع، بلغ بهم الجهل والزهد في الفضائل أن يفضلوا درهماً على أنفس كتاب، فخانوا الأمانة واستحلوا بيع ما تحت أيديهم أو سرقة ما عند غيرهم والتصرف به كأنه ملكهم».[36] وتعلق بنت الشاطئ قائلةً: وهكذا تسرّبت أكثر البقية من كنوزنا إلى الغرب ونحن نيام، وأُبيحت ذخائر تراثنا للأجانب دون أن يجدوا من يصدّهم عنها، فذهبوا بها على مرأى منا ومسمع، وكان كل نصيبنا من ثمن البضاعة قروشاً معدودات لحرّاس الكتب وخدّام دور العبادة. وفرصة للتندّر بحمق أولئك [الخواجات] المغفلين الذين تستهويهم مخطوطات قديمة صفراء لا قيمة لها في حسابنا».[37] ولكن ما ضاع أيضاً من هذا التراث بسبب غفلة الناس وجهلهم وتفريطهم، والنكبات التي حلت بهذه الأمة منذ المغول والصليبيين، والصراعات المذهبية شيء كثير جداً.[38]

توالت على أية حال إصدارات الكتب منذ دخول المطبعة إلى القسطنطينية أولاً ثم إلى لبنان فسورية[39]، فمصر التي تأخر دخول المطبعة إليها حتى سنة 1798 مع الحملة الفرنسية التي جلبت معها مطبعة كانت تطبع المنشورات والأوامر الرسمية في عرض البحر، ولكنها لم تتم طويلاً فخلفتها مطبعة بولاق التي أنشأها محمد علي باشا عام 1821 وكان لها شأن أي شأن في نشر الكتب عامة وكتب التراث العربي الإسلامي على وجه الخصوص.[40] ثم انتشرت المطابع في مصر وفي سائر البلاد العربية والإسلامية، وخرج عنها كتبٌ تراثية كثيرة كان نشرها نشراً

بدائياً، لم تحظَ بالعناية اللازمة من التحقيق والتدقيق والفهرسة[41]، وحسبنا أن نحيل إلى بحث الدكتور صلاح الدين المنجد الذي تحدث فيه عن: منهج نشر التراث في أوائل القرن الرابع عشر الهجري[42]، وإلى كتاب الدكتور محمود محمد الطناحي الذي أحلنا إليه مراراً: مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، لنقف على حقيقة معظم هذه المطبوعات، والتي كان لمصر وحدها إنتاج ضخم منها، إذ طبعت خلال ثمانين عاماً(1822-1900)- أي منذ تأسيس مطبعة بولاق- (8844) عنوانا، تمثل تقريباً شطر ما طبع من الكتب العربية خلال أربعة قرون.[43] لقد كان لمطبعة بولاق نشاط ظاهر في طبع مئات من الكتب في الطب، الرياضة، الطبيعة، الفنون الحربية التاريخ، الأدب والشعر، التفسير، الحديث، وغيرها[44]، حتى ليذكر بعض الباحثين أن «الوجه العربي الإسلامي للطباعة لم يظهر إلا في مطبعة بولاق في مصر وكان إنشاؤها في مصر صيحة مدويّة أيقظت الغافلين، ومركز ضوء باهر هدى الحائرين»[45]، كما أن «الذين قاموا على نشر كتب التراث بتلك المطبعة كانوا يستهدفون غاية ضخمة، هي إبراز كنوز الفكر العربي الإسلامي، فعمدوا إلى نشر الأمهات والأصول في كل علم، ولم يطغ فن على فن».[46]

تمثل مطبعة بولاق - كما يقول الطناحي - الباب الواسع الذي دخل منه العرب إلى النهضة الحديثة، كما تمثل في الوقت نفسه البعث الحقيقي لتراث الآباء والأجداد[47]، ولقد كان المصححون العظام في هذه المطبعة

أمثال الشيخ نصر الهوريني ومحمد قطة العدوي وإبراهيم عبد الغفّار الدسوقي ومحمد الحسيني ومحمد عبد الرسول إبراهيم[48]، كانوا الطلائع الأولى والممهدّين الحقيقيين لظهور الطبقة الأولى من المحققين الكبار فيما بعد، من أمثال أحمد تيمور أحمد زكي (شيخ العروبة) الذي ظهرت على الكتب التي حققها كلمة (تحقيق) لأوّل مرّة[49]، ومحب الدين الخطيب، ثم الطبقة التي تلت هذه، وكانت طبقة شوامخ المحققين والأفذاذ من الرجال، أمثال: أحمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر وعبد السلام هارون والسيد أحمد صقر وعبد العزيز الميمني ومحمد ابن تاويت الطنجي وسعيد الأفغاني وأحمد راتب النفاّخ وشكري فيصل وصلاح الدين المنجد ومحمد بهجة الأثري ومصطفى جواد وإحسان عبّاس وغيرهم من أقرانهم وتلامذتهم الذين جاؤوا بعدهم، فكانت تحقيقاتهم الرصينة تضاهي إن لم نقل يفوق بعضها تحقيقات المستشرقين أنفسهم. ولكن لا يسعنا أن نغفل الإشارة إلى تأثرهم بأعمال المستشرقين وبما استحدثوه من مناهج في تحقيق النصوص قبل أن ينهد كثير من العلماء المعاصرين لوضع كتب كثيرة تقعّد للتحقيق وأصوله.[50] ومع انتشار المحققين في أرجاء البلاد العربية والإسلامية، كان لابد من صيحات تنادي بتوحيد الجهود ورسم الخطط ووضع المناهج[51]، فكان أن تأسس معهد المخطوطات العربية في مصر، ومعهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب، ومركز إحياء التراث العلمي العراقي في جامعة بغداد، ومركز الوثائق والمحفوظات في الجامعة الأردنية ومركز المخطوطات والتراث

والوثائق بدولة الكويت، ومركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في دبي وغيرها من المراكز الرسمية والأهلية، هذا فضلاً عن المجامع العلمية وفي مقدمتها المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية حاليا)، والمجمع العلمي العراقي، ومجمع اللغة العربية في القاهرة، والمجمع الأردني إلى غير ذلك من مؤسسات حكومية كوزارات الثقافة والإعلام في بلدان مختلفة.

إن ثمرات هذه الجهود الكبيرة سواء أكانت جهود أفراد أم هيئات ومراكز ومجامع، كان لما حققته من هذا التراث تحقيقاً علمياً ونشرته نشراً متقناً أثر كبير في خفوت اهتمام المستشرقين بالتراث والسعي في تحقيقه ونشره. وقد لاحظ بعض الباحثين « أن نسبة المنشور عربيا تزداد في وقت تتناقص فيه نسبة المنشور استشراقيا. وتكاد تصل نسبة ما ينشره المستشرقون إلى8.5% من مجموع المنشور وهي في تنازل مطّرد» .[52] إنّ التفات العرب والمسلمين إلى تراثهم والعناية به وإحيائه بات حقيقة مؤكدة، تستنهض الهمم وتدعو إلى إعادة التراث إلى مقراته الأولى في العواصم العربية والإسلامية مع العناية به والرقابة عليه.

ومع كل ذلك لابد من معايير لإحياء هذا التراث، والمعيار الرئيس استكمال العلم بالتراث وأنه «لا يبعث إلاّ ما كان يضيف إلى علمنا بالتراث علمًا جديداً، وأنّه لا يبعث إلاّ ما كان مفيداً ذا جدوى وأنّ ما يُبعثُ لا يبعَثُ إلاّ من أجل أن يتحول إلى حالة تثقف عامّ» .[53] وفي ختام هذه الفقرة نردد القول إنّ إحياء التراث«أدّى وظائف مهمة على الصعيد

اللغوي والأدبي والاجتماعي والحضاري تمثلت في شحن الذاكرة الاجتماعية، واستنهاض الهمم ومنح الذات قدرا من الثقة في التعامل مع التحديات المصيرية المستجدة» .[54]

أما ما آل إليه إحياء التراث وتحقيقه ونشره اليوم، فلا يسعنا إلاّ أن نقول:«لا حول ولا قوة إلاّ بالله!» فقد غدا تحقيق الكتب التراثية ونشرها عملاً تجارياً قبيحاً، يحسنه قلّة قليلة من الأفراد، ويتطفل عليه الكثرة الكاثرة من الأدعياء الجاهلين. ولا أجد هنا خيراً مما قاله الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في وصف حال مشابهة لما نحن فيه، قال رحمه الله:«وكُسِر سياج العلم، فغدا كل متفرج على كتب الحديث محدّثا، وكل مُشتمّ لشمّه من العلم محققاً، واندلقت الكتب الغثاء من المطابع، واختلط الجيد بالرديء، والضار بالنافع.!» [55]

هذا كتاب من كتب التراث - مثلاً - هو «فقه اللغة» للثعالبي طبع قديماً مراراً(1858م ـ .1861م، 1284هـ، 1880م)[56]، نجد له اليوم في الأسواق عشر طبعات أو أكثر، تحمل أسماء عشرة من المجاهيل وكلهم يزعم لنفسه التحقيق والشرح والضبط، وكلهم عيال على الطبعة التي حققها مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، ونشرتها مكتبة مصطفى البابي الحلبي في القاهرة عام 1937 ثم أعادت نشرها منقحة في طبعة ثانية عام 1954. فلم تدع طبعات هؤلاء الأدعياء مجالاً لانتشار طبعة علمية محققة تحقيقاً متقناً صدرت في جزأين عن مكتبة الخانجي في القاهرة عام 1994، أنفق محققها خالد فهمي أربع سنوات في دراستها

وتحقيقها، وقدمها - في الأصل - أطروحة علمية إلى كلية الآداب بجامعة عين شمس تحت إشراف المرحوم الدكتور رمضان عبد التواب، والأمثلة كثيرة على النشر التجاري المزيف الذي يقوم على السطو والإغارة على أعمال الآخرين. والقائمون على هذه المنشورات من أصحاب دور النشر المختلفة لا يرعون ولا ذمّة، فهم يغيّرون على كتب تراثية كثيرة، سواء قام على تحقيقها محققون أجلاء أنفقوا في سبيلها ما أنفقوا من جهد ووقت ومال، أم كانت المطبوعات قديمة لم تحظ بأي شرط من شروط النشر العلمي الصحيح، فيعيدون صفّها وطباعتها من جديد بعد أن يغتالوا أسماء محققيها وأسماء ناشريها الأوائل بالطبع، ويعيدونها في حلة بهيّة جديدة، مزدانة بالتجليد الفخم، وموشاة بالألوان الزاهية، وليس فيها شيء من التحقيق والضبط المزعومين، بل تنتشر فيها الأخطاء والتصحيفات والتحريفات الفاحشة!! وحسبنا أن نشير - مثلاً - إلى عشرات الدواوين لشعراء جاهلين وإسلاميين وأمويين وعباسيين يتكرر إصدارها من دور نشر مختلفة، والديوان الواحد يصدر عن أربع أو خمس دور حاملا أسماء أربعة أو خمسة من أدعياء التحقيق، ونعزف عن ذكر أسماء الدور أو من يزعُم أنهم محققون، لأننا لا نبتغي التشهير والتجريح.

تاريخ دمشق لابن عساكر

وتاريخ دمشق لابن عساكر مما وقع فريسة النشر التجاري الزائف لبعض دور النشر في بيروت. وقبل تفصيل الحديث في ذلك تشير إلى أنه ليس من هدفنا أن نتكلم في هذه الوريقات على هذا التاريخ العظيم أو نعرف به، فحسبنا ما ذكره شيوخ أجلاء[57] فوصفوه بأنه ليس تاريخ دمشق وحدها، بل هو «تاريخ بلاد الشام، بل هو تاريخ الأمة العربية... وهو تاريخ حضاري لهذه البلاد كلها التي انتشر فيها الإسلام وسادت العربية... وهو تاريخ حضاري لهذه البلاد كلها التي انتشر فيها الإسلام وسادت العربية...وهو تاريخ للعالم الإسلامي كله... وهو تاريخ المدن كافة، فلم يظهر في التاريخ العربي كتاب مثله في الضخامة والسّعة والإحاطة، ولم يلحق به في تاريخنا مثله»، إلى غير ذلك ممّا قيل فيه. كذلك لا نريد تكرار التعريف بمؤلفه الحافظ الكبير هبة الله علي بن الحسن المعروف بابن عساكر (499-571هـ)، ففي كتاب ابن عساكر: في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته، وفي كتاب: الحافظ ابن عساكر محدّث الشام ومؤرخها الكبير كل الغناء.[58] أمّا طبع الكتاب ودور المجمع العلمي العربي(مجمع اللغة العربية حالياً) بدمشق في نشره فيحدثنا عن ذلك شيخنا الجليل المرحوم الدكتور شكري فيصل في تقديمه الجزء الذي صدر عام 1977، الخاص بتراجم حرف العين المتلوّة بالألف من عاصم إلى عايذ، قائلاً:[59] «كان طبع تاريخ دمشق للإمام العالم الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، المعروف

بابن عساكر (499-571هـ) من أعلى ما تمناه المجمع وعمل له وُسْعه..» كان يفكّر فيه ويقدُر له ويُعدّ العُدة لإخراجه، وقضى شطراً من دهر يتهيّأ له: يدرس نسختيه الخطيتين في دار الكتب الظاهرية ويستبين له ما فيهما من نقص أو تحريف لحداثة عهدهما، فيستقري النسخ الأخرى المبعثرة في خزائن المخطوطات في الشرق والغرب، ويجهد في طلبها من هنا وهناك، حتى إذا بلغ من ذلك المبلغ الذي رأى أنه يساعده على أن يخرج بالفكرة من القوة إلى الفعل، وأن يجوز بالمشروع منطقة النظر إلى حيّز التنفيذ والعمل، دعا إليه نخبة من جِلّة العلماء وأفاضل المحققين لمشاركته فيه ومعاونته عليه.

كانت تلك أولى محاولاته في هذا السبيل، وهي المحاولة التي حدثنا عنها الأستاذ الرئيس محمد كرد علي في تصديره للمجلدة الأولى، فأشار إلى الدواعي التي دفعت المجمع لنشر هذا التاريخ وقال فيها «حافظ المجمع على تجزئة المصنّف وسيكون التاريخ في ثمانين مجلدة كل مجلدة عشرة أجزاء من الأصل، تدخل في نحو تسعمائة صفحة من القطع الكبير».

ثم أشار الدكتور فيصل إلى أن هذه المحاولة تمثلت بالذي نشره المجمع من هذا التاريخ بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، المجلدة الأولى عام 1951، ثم القسم الأول من المجلدة الثانية عام 1954، والنشرتان كلتاهما تؤلفان مقدمة ابن عساكر لتاريخه الكبير. ثم توقف العمل في نشر الكتاب حتى عام 1963 فصدرت المجلدة العاشرة بتحقيق الشيخ محمد أحمد دهمان تضمنت التراجم المبدوءة بحرف الباء والتاء وبعض الثاء.

تولى الدكتور شكري بعد ذلك الإشراف على طبع الكتاب فأراد أن ينهض بهذا المشروع الضخم، بعد أن أوكل إليه زملاؤه في المجمع هذه المهمة، ففصل القول في هذا التاريخ وجوانبه المختلفة التي تجعل منه تاريخاً حضارياً للأمة، فهو يؤرخ للجاهلية وللسيرة النبوية ويترجم للخلفاء الراشدين، «ومن الطبيعي أن يكون كتاب ابن عساكر أغنى المصادر عن تاريخ الأمويين، ولكن تاريخ الأمويين ليس تاريخهم فحسب، وإنما هو تاريخ العرب والمسلمين في الفترة التي كانت فيها دمشق عاصمة الحياة العربية». وبعد أن يبين أهمية الكتاب لدراسي التاريخ الأندلسي يذكر أن هذا التاريخ «يمتد في المكان امتداد بلاد الشام... ثم يجاوز ذلك ليكون على امتداد الوطن الإسلامي والثقافة الإسلامية». كما يمتد في الزمان ليسجل أطرافاً من تاريخ الجاهلية حتى وفاة ابن عساكر في أواخر القرن السادس الهجري «571». ثم يختم هذه الفقرة ببيان موقف أعضاء المجمع حين عزموا على نشر هذا الكتاب فهم: «لم يفكروا فيه لأنه كتاب من كتب التراث فحسب، فما أكثر ما في هذا التراث من كنوز أخرى، وإنما فعلوا ذلك لأنهم كانوا يريدون أن يكتب التاريخ الحضاري والفكري والسياسي لبلاد الشام من خلال هذه المصادر التي ضاعت والتي احتفظ ابن عساكر بها كلها أو بأقسام كثيرة منها في نقوله عنها. كما كانوا ينظرون إلى أن تجديد كتابة التاريخ لهذه الأقطار العربية الإسلامية لا يمكن أن يمضي على أساس سليم مضيء ما لم يظهر تاريخ ابن عساكر إلى النور وأن يوضع موضع المدارسة والممارسة».

عرض شيخنا - رحمه الله - بعد تبيان موقف المجمع من نشر الكتاب، إلى أولى المحاولات التي تصدّت لتاريخ ابن عساكر في العصر الحديث، وهي محاولة الشيخ عبد القادر بدران (المتوفى سنة 1346هـ/1927م) نشر «التاريخ الكبير للحافظ... ابن عساكر»، فعرّف الدكتور شكري بعمل بدران وذكر الانتقادات الكثيرة التي وجهت لهذا العمل[60]، مختتمًا كلامه بقوله: «وأيًّا كان الرأي في عمل الشيخ بدران -رحمه الله- فقد كان خطوة رائدة إذا ما تمثلنا الظروف الثقافية التي وجد فيها، والأوضاع الاجتماعية التي كانت من حوله...) فقد كان وجه الفضل الأكبر أن عرف الناس الكتاب وأدرك الباحثون منهم قيمته في إغناء بحوثهم وردفها بالكثير»

تحدث الأستاذ بعد ذلك عن الكتاب وضخامة أجزائه التي لم تكن وحدها الصعوبة التي واجهت العمل أو واجهت العاملين فيه، فالأصول مبعثرة، وليس هناك نسخة واحدة كاملة، وإنما اجتمع منه لدى المجمع نسخ ناقصة وأجزاء متفرّقة فأخذ في وصفها وتبيان أماكنها، ثم تحدّث عن مختصرات الكتاب وأنّها لا تغني عن الأصل، فالمختصر كتاب جديد له روحه الخاصة وله مذاقه الخاص و«مختصرات الكتاب ليست الكتاب عينه، وإنما هي كتاب جديد يصنعه صاحبه المختصر»، ويختتم الكلام على ما يراه من نهج ينهجه هو والفريق الذي اختاره للعمل معه في تحقيق هذا الجزء، معرفاً بالأجزاء المخطوطة المعتمدة في تحقيق هذا الجزء، وبعض الضوابط في إخراج الكتاب.

وفي عامي 1981 و1982 أخرج المجمع جزأين من الكتاب بتحقيق أستاذنا الدكتور شكري فيصل وبعض طلابه، كما أصدر في عام 1984 الجزء الأول من السيرة النبوية تلاه الجزء الثاني منها عام 1992 وكلاهما بتحقيق السيدة نشاط غزاوي، ثم تتابع نشر الأجزاء المختلفة التي قاربت الخمسين جزءاً تحمل تواريخ من ثمانيات القرن الماضي حتى عام 2008، فكان الجزء الخاص يترجمة علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- آخر ما صدر عن المجمع في العام الماضي بتحقيق رياض عبد الحميد مراد ومحمود الأرناؤوط وياسين الخطيب، وما زالت بقية الأجزاء موزعة على بعض المحققين الأفاضل والمأمول إنجاز تحقيقها في وقت قريب إن شاء الله.[61]ويقتضي الإنصاف أن ننوّه بما بذلت السيدة سكينة الشهابي- رحمها الله- من جهودٍ خارقة في تحقيق الأجزاء الكثيرة من هذا الكتاب، قاربت العشرين جزءاً نهضت وحدها بعبء تحقيقها، وهي تأسف أسفاً شديداً لأن «هذا الكتاب(كتاب ابن عساكر)الذي ولد في دمشق وصنع في دمشق والذي كتبه ابن المؤلف بخطه مرتين لا يوجد منه بخط القاسم سوى قطعةٍ صغيرة، هذه القطعة الصغيرة لا يوجد منها ولا ورقة واحدة في مدينة دمشق، والموجود بخط القاسم إما في المكتبة الأزهرية بمصر، وإما خارج المدن العربية حكماً وهي تحمد الله - على كل حال - أنها عملت بجهد فردي شخصي حوالي ربع الكتاب».[62]

هذا ما كان من عمل مجمع اللغة العربية بدمشق في نشر هذا التاريخ الكبير على المنهج العلمي الدقيق الذي وضعته لجنة نشر هذا التاريخ في

المجمع، وذكره الدكتور صلاح الدين المنجد في تقديم المجلدة الأولى الصادرة عام 1951. وهذا يعني انصرام أكثر من نصف قرن على عناية المجمع بالكتاب، ولمّا ينته بعد. وقد أوكل المجمع - كما أشرنا - تحقيق بقية الأجزاء إلى بعض الأفاضل من المحققين الجادّين، ونسأل الله تعالى أن يتم نعمته بإنجاز تحقيق ما بقي من الكتاب، ليعيد المجمع طباعته - إن شاء الله - في طبعته كاملة موحدة.

ولكن بعض دور النشر اللبنانية التجارية المتسرعة كدار الفكر في بيروت أقدمت على نشر الكتاب كاملاً فيما يزعمون، وكان ذلك عام 1994 إذ أصدروا الكتاب في ثمانين جزءاً حملت الأجزاء الخمسة والأربعون الأولى اسم المدعو علي شيري محققاً(؟) للكتاب، ثم أعادوا نشر الكتاب عام 1997 مرة ثانية في خمسة وسبعين جزءاً بعد أن صغّروا حرف الطباعة فجعلوا الفهارس ثلاثة أجزاء بدلا من ستة، وجعلوا المستدركات في جزأين بدلا من أربعة، ولكن بتحقيق المدعو: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي! ولكن المدهش أن اسم المدعو علي شيري قد اختفى من هذه الطبعة!.

لقد كان اعتمادهم في نشر هذا الكتاب على مصوّرة مخطوطة الظاهرية السليمانية) التي عدّوها أصلاً، وهذه المصورة هيأتها لهم - على الأرجح - المصورة التي أصدرتها مكتبة الدار في الرياض، أو التي أصدرتها دار البشير في عمّان. فهاتان المصورتان جعلتا المغامرين يَجترئون على نشر هذا الكتاب الضخم، لا يدفعهم إلى ذلك إلا الربح المادي

السريع من دون مراعاة لأصول علمية يتبعونها أو منهج يسيرون عليه. وهذه المخطوطة - مخطوطة الظاهرية - لا تصلح وحدها - كما هو معروف - لنشر الكتاب فضلاً عن اتخاذها أماً (أو كنسخة أم، كما يعبرون!)، فهي ليست كاملة وفيها من الطامات الشيء الكثير، وحسبنا ما ذكروه هم في وصفها: اعتمدنا النسخة المصورة من المكتبة الظاهرية كنسخة أم فيها نواقص كثيرة وثغرات هامة وتصحيفات وأخطاء كثيرة وبياض بين الكلمات والأسطر (مقدمة الجزء الأول بتحقيق العمروي ص37). وقد ذكروا أيضاً أنهم استعانوا بنسخة مصورة من خزانة مكتبة يوسف بمراكش والمعروفة بالنسخة المغربية(?)، كما اعتمدوا جزءاً من نسخة مصورة من مكتبة أحمد الثالث في القسم الخاص بالسيرة النبوية، كما أفادوا من مختصر ابن منظور وتهذيب بدران. (المقدمة ص 40-41). ولا ندري لمَ أغفلوا في مقدمة هذه الطبعة ما ذكروه في مقدمة الطبعة الأولى عام 1994 بتحقيق من دعوه علي شيري، فقد ذكروا في مقدمتها (ص36) أنهم اعتمدوا بالإضافة لما ذكره العمروي نسخاً مصورة من الخزانة العامة في الرباط، ومن دار الكتب الوطنية بتونس، ومن مكتبة الأزهر، كما أنهم استرشدوا بالملاحظات القيمة التي سطرها الأستاذان الدكتور صلاح الدين المنجد في مقدمته للمجلدة الأولى والدكتور شكري فيصل في مقدمته للجزء عاصم - عايذ(ص 44-45)ثم ذكروا في الرموز (ص51): «- الأجزاء المطبوعة من تاريخ دمشق التي نشرها المجمع العلمي بدمشق أشرنا إليها بكلمة: المطبوعة»!!

على أية حال فهذه المطبوعة لا تصل بتحقيقها إلى الحد المطلوب، ففيها أخطاء كثيرة في كل جزء من أجزائها[63]« فضلاً عن الأسقاط الكثيرة أو البياض الكثير، والتحريفات والقراءات المغلوطة الفاشية فشواً عجيباً! .

وهذا ما عاينته بنفسي في أثناء تحقيق قسم من التاريخ يبدأ بمن إسمه (حجاج)- أسأل الله الفراغ منه قريباً- ومقارنته بهذه المطبوعة السقيمة.

ولم يقف الأمر عند هذه الطبعة السقيمة التي صدرت مرتين عن دار الفكر نفسها باسمين لمحققين (زعموا) مختلفين، فهناك طبعة أخرى أشد سقماً - وهي بالتأكيد منقولة عن طبعة دار الفكر هذه، وهذا ما ثبت لدي بالمقارنة- أصدرتها دار إحياء التراث العربي في بيروت عام 2001م، ولكنهم أغفلوا -في مصدرها- اسم المحقق المزعوم واكتفوا بكنيته ونسبته: أبي عبد الله الجنوبي؟!!

وهذه المطبوعة هي مسيخ مليخ - كما يقال- عن المطبوعة السابقة، لا تختلف عنها إلا بأمر واحد، وهو أن عبارات الترضي (رضي الله عنه) في الأولى قد تحولت في هذه أينما وقعت إلى (عليه السلام)!

كذلك أصدرت مؤسسة المحمودي في بيروت بضعة أجزاء من تاريخ ابن عساكر خصصتها - فيما أعلم- لتراجم علي بن أبي طالب ولابنيه الحسن والحسين وزين العابدين ومحمد الباقر - رضي الله عنهم- بين عامي 1398-1414 هـ.[64]

وقد تضخّمت التراجم في هذه الطبعة الصادرة عن تلك المؤسسة بما حشد فيها من أخبار تضخمت تضخماً غير معقول، جاوز ما جاء عند ابن

عساكر، فابن عساكر منها براء! فهل تصح أن تنتسب إليه أو تحمل اسمه؟!

ومن آخر الأجزاء المطبوعة من تاريخ ابن عساكر جزء لبس لبوس العلم واصطناع المنهجية العلمية في النشر، هذا الجزء المعنون بـ: سيرة السيد المسيح لابن عساكر الدمشقي، تحقيق سليمان علي مراد، وهو من منشورات المعهد الملكي للدراسات الدينية بالاشتراك مع دار الشروق في عمّان ودار الشروق في رام الله، الطبعة الأولى، عام 1996م. ويبدو من مقدمة التحقيق التي ينهيها المحقق بشكر أستاذيه كمال صليبي وطريف الخالدي اللذين شجّعاه على القيام بتحقيق ترجمة السيد المسيح أن العمل مقدّم في الأصل رسالة إلى إحدى الجامعات الأجنبية، إذ تبدو مقدمة التحقيق (من الصفحة 5 حتى 22) وكأنها مترجمة عن لغة أجنبية.

بدأها بالإشارة إلى مكانة المسيح عيسى ابن مريم المميزة في التشريع الديني الإسلامي، ثم عرف فيها بابن عساكر وبين السبب الذي دفعه إلى ترجمة عيسى ابن مريم في تاريخه على الرغم من أن المسيح لم يعرف عنه أنه عاش في دمشق فهو يعود إلى أحد تفاسير آية في القرآن هي: «وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين» (سورة المؤمنون: 50)، فوفقاً لتفسير هذه الآية فإن الربوة المذكورة هي دمشق. ويبدو أن هذين السببين كانا المبرر لابن عساكر لإدخال ترجمة المسيح في تاريخه «(ص ص8-9)، وبعد أن يشير إلى سعة معرفة ابن عساكر

بالأخبار المتعلقة بالمسيح في الأدبيات الإسلامية، إذ أننا لا نجد في أي مصدر عربي آخر هذا الكمّ من الأخبار عن المسيح عيسى بن مريم، وكون هذه الأخبار جامعة لمعظم التقليد الإسلامي حول حياة المسيح في مرحلتيها الأولى والثانية... إذ كان ابن عساكر على إطلاع على بعض الأناجيل والتقليد المسيحي عبر المصادر الإسلامية »(ص9)، ينتقل في الصفحة 9 وما بعدها ليذكر لنا النسخ المعتمدة في التحقيق قائلاً: «اعتمدت في تحقيق هذا النص على نسختين مخطوطتين من تاريخ مدينة دمشق، الأولى نسخة مكتبة الظاهرية في دمشق (رمز لها بحرف أ) ونسخة مكتبة أحمد الثالث في إسطنبول (رمز لها بحرف ب). وتكاد تتطابق هاتان النسختان تطابقاً تاماً لولا وجود فرق بسيط جداً بينهما، وهو فرق تقني بحت. ففي نسخة الظاهرية [أ]، كتبت أسماء الأعلام بإسقاط حرف [أ] مثال على ذلك: القاسم كتبت القسم، خالد كتبت خلد...الخ. وهذه التقنية أي إسقاط حرف الألف هي طريقة متعارف عليها استعملها النسّاخ لهدف السرعة، فيكتب الاسم [كذا] من دون ألف، ولكنه بلفظ، كما لو كان موجوداً. أمّا الأسماء في نسخة أحمد الثالث [ب] فقد كتبت من دون إسقاط حرف الألف...س والاختلاف الآخر بين النسختين هو في ما يخص مفردات الإسناد كـ: حدثنا وأنبأنا. ففي حين دوّنت في[أ] بشكل شبه متواصل كاملة، نجد أن في [ب] دوّنت باختصار[كذا]، إذ أصبحت «حدثنا»، «نا»، و أصبحت «أنبأنا»، «أنا». وهذه طريقة تقنية أيضاً استعملها النسّاخ للإيجاز والاستفادة من عامل الوقت

في النسخ « ص 20.» ومن العناصر التقنية الأخرى التي اتبعت في النسخ في كلا المخطوطتين تقنية إسقاط الهمزة في معظم الحالات وإبدالها بحرف الألف أو الواو أو الياء، حسب الكلمة، مثل الخطيئة كُتِبت الخطيّة، والمقرئ كُتبت المقري ... إلخ ، وقد قمتُ بإدخال الهمزة إلى هذه الكلمات لرفع الالتباس الذي يمكن أن يسببه غيابها في قراءة وفهم الكلمات (ص ص20-21).

ونظن في ما نقلناه عن « تقنيات» المحقق«الهمام» ما يغني عن الحديث عمّا عبث به في هذا النص «المحقق» المشحون بالتحريفات والتصحيفات وأخطاء الضبط والنسخ والنقل ومن إشارته في الهامش إلى آيات القرآن والأحاديث من دون أن يقوم بتصحيح الصياغة اللغوية في النص (مثلا في خبر رقم 1، في الأصل يمسني، والصواب يمسسني)!! ولم يزوّد الكتاب إلاّ بفهرس للأعلام غير دقيق، وهو في الوقت نفسه يذكر ترجمة من يقف لهم على ترجمة في أحد الكتب وكثيرا ما يخلط بين الأعلام الذين تتشابه أسماؤهم. ولسنا هنا بصدد قراءة نقدية لهذا التحقيق المزعوم الذي تزيّا - كما قدّمنا- بزي العلم والمنهجية العلمية.

ونختم بحثنا هذا بالإشارة إلى نصوص صغيرة منشورة من هذا التاريخ:

الأول: نشرته مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق في المجلد الثامن لعام 1928 تحت عنوان: «تاريخ الأسطورة» (ص ٧٨ 84 -) جاء في مقدمته: «ظفرنا في الجزء الثامن عشر من تاريخ دمشق للحافظ ابن

عساكر في تراجم من أسمائهم (يحيى) بهذه الرواية من خبر عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فأحببنا إطراف قرّاء مجلتنا بها خصوصا، وهي منقولة من مخطوط نادر من مخطوطات دار الكتب بدمشق». ثم يبدأ الخبر بذكر: يحيى بن عبد الله بن أسامة القرشي البلقاوي ... من أهل البلقاء عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: كان عمر بن الخطاب كثيرا ما يحدثنا عن أخبار الجاهلية وأهلها ... إلخ، والخبر يقرب من ست صفحات، فلعل المجمع يدفع بمن يحقق هذا الخبر من جديد بعد استقصاء خبر النسخة المشار إليها من الجزء الثامن عشر من التاريخ!!

الثاني:بعض النصوص التي ذكر في كتاب: ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته «أن بعض المستشرقين حققها ونشرها أو ترجمها وأفاد منها:

* جاء في الصفحة 1/373: نشر المستشرق نيكيتا اليسييف في المجلد (25) من «نشرة الدراسات الاستشراقية» التي يصدرها المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق بحثا بعنوان: «وثيقة معاصرة لنور الدين» ترجمة حياته بقلم ابن عساكر !

* وجاء في الصفحة 4/274: نشر الأستاذ تييري بيانكي في العدد (25) لعام 1972 من نشرة الدراسات الاستشراقية بحثا بعنوان:« رواية الحديث في سورية في العهد الفاطمي». ويشمل هذا البحث خمس تراجم لمحدّثين شاميين مستلة من تاريخ ابن عساكر. وقد نشر المستشرق هذه النصوص العربية مقدما لها ببحث وافٍ

وفي الصفحة نفسها إشارة إلى عملين آخرين للمستشرق نفسه معتمدا فيهما على تراجم مستلة من كتاب « تاريخ المستشرق» لابن عساكر. وذكر في الصفحة 342 من الكتاب نفسه أن المستشرق تريتون نشر قسما من تاريخ ابن عساكر يتعلق بخليج القسطنطينية في مجلة FF BSOAS22\1159\350 فلعل المجمع يكلف من يفحص عن أمر هذه النصوص ويعيد نشرها في مجلته إن لم تنتشر الأجزاء المتضمنة لها.

الثالث: هناك نص آخر منقول من تاريخ ابن عساكر بالوساطة، أعني ترجمة المتنبي أحمد بن الحسين شاعر العربية الأكبر منقولة من نسخة خطية من كتاب الإبانة عن سرقات المتنبي للعميدي محمد بن أحمد، حققها ونشرها الشيخ محمود محمد شاكر في كتابه: « المتنبي- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا » دار المدني بجدة ومكتبة الخانجي بمصر، 1407 هـ/ 1987، ص 659 .678 - وذكر الشيخ في الصفحة (396) أن الفضل كل الفضل في الوقوف على هذه التراجم الثلاث الأخيرة المتنبي عند ابن عساكر وابن العديم والمقريزي) مصروف إلى أخي وصديقي الأستاذ الجليل أحمد راتب النفاخ عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، نقل بعضها بخطه، وصوّر لي بعضها ...»

قلت: ومخطوطة الإبانة هذه محفوظة بدار الكتب المصرية تحت الرقم 2039 أدب، كما ذكر محقق الكتاب، إبراهيم الدسوقي الدمياطي في تقديمه الطبعة الثانية بدار المعارف بمصر سنة 1969، وقال في الصفحة (220) إن النسخة الأصلية كان ملحقا بها أربعة بحوث رابعها: نبذة من

أخبار أبي الطيب المتنبي مما أورده ابن عساكر في ترجمته في حرف الألف.

الحواشي:

[1] ينظر: تحقيق التراث الرؤى والآفاق، مجموعة من الباحثين، ص 14, 45, 58.

[2] انظر: قطوف أدبية حول تحقيق التراث، لعبد السلام هارون أيضاً، ص12. وهناك مفهومات أخرى لإحياء التراث قديماً وحديثاً. ففي العصور القديمة اتخذ إحياء التراث عدة أشكال منها: نسخ المخطوطات وتداولها على نطاق واسع، وهذا ما يقوم به الورّاقون والنسّاخون، ومنها: شرح التراث وتفسيره والتعليق عليه كشرح المفضليات وشرح الحماسة وشرح كتاب سيبويه وشرح المقامات، ومنها التلخيص والتهذيب والاختصار، كالتلخيص في علوم البلاغة، وتهذيب الأسماء والصفات واختصار تاريخ ابن عساكر لابن منظور وغير ذلك.

انظر: قطوف أدبية حول تحقيق التراث لعبد السلام هارون، ص31-34, ومدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي لمحمود محمد الطناحي ص25-26. أما مفهوم الإحياء في عصرنا هذا فقد اختلف الباحثون حوله اختلافاً شديداً لا داعي للخوض فيه، وحسبنا الإحالة إلى المراجع الآتية: نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى لفهمي جدعان ص24-25, والتراث والمعاصرة لأكرم ضياء العمري ص 31-35, ودور المخطوطات في مشروع إحياء التراث لمحمد قجة ضمن محاضرات مؤتمر المخطوطات العربية في إيران ص31, والتحقيق وإحياء التراث لشكري عزيز ماضي ضمن تحقيق التراث الرؤى والآفاق، ص 61-62.

[3] ظهرت كتب كثيرة لعرب ومستشرقين عُنيت بنشر أصول نقد النصوص وقواعد تحقيق المخطوطات، من أمثال عبد السلام هارون، وصلاح الدين المنجد، ومصطفى جواد، وبرجشتراسر، وشارل بلا وسوفاجيه. انظر تعريفاً شاملاً بالكتب التي قعّدت لتحقيق المخطوطات مقالة عباس هاني الجرخ؛ ما ألف في مناهج التحقيق قائمة وراقية تحليلية: توثيق ودراسة، في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 82/2]نيسان 2007م[، ص 277-300.

[4] انظر: منهج نشر التراث في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، لصلاح الدين المنجد، ضمن ندوة تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر ص 337-352.

[5]انظر: دور المخطوطات في مشروع الإحياء الإسلامي لمحمود مصطفى حلاوي ضمن محاضرات مؤتمر المخطوطات العربية في إيران، ص 22. ولكن يرى بعض الباحثين أن «ليس كل موروث يجب إحياؤه

وتحقيقه بالمعنى الدقيق لمفهومي الإحياء والتحقيق، لأنه ليس من الإحياء في شيء إعادة طبع كتاب اصفرّت أوراقه في كتاب ابيضّت فيه تلك الأوراق، أو نقل المادة من مخطوط إلى مطبوع من غير النظر إلى قيمة المخطوط والفائدة التي يمكن أن تجنى أولاً وقبل كل شيء من تحقيقه ونشره وإلى الهدف منه بحيث يخرج قارئه ودارسه بروح يستمدّها ممّا قرأ أو درس ليبثّها في حناياه. انظر: تحقيق التراث لماذا وكيف؟! يوسف حسين بكار، ضمن تحقيق التراث الرؤى والآفاق ص 46, وهو يلخّص في هذه الكلمات رأي الدكتور زكي نجيب محمود في مقالته المنشورة في مجلة العربي الكويتية، العدد 265 [ك1 1980] بعنوان إحياء التراث وكيف أفهمه.

[6] ينظر على سبيل المثال: التراث العربي لعبد السلام هارون ص 3-5, ومناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين لرمضان عبد التوّاب، ص 8-10, وتحقيق التراث لعبد الهادي الفضلي، ص 44-45, وجهود القدماء والمحدثين في وضع الأصول العلمية لأسس تحقيق التراث، ليلى توفيق العمري، ضمن تحقيق التراث، الرؤى والآفاق، ص 439-440, والتراث والمعاصرة، أكرم ضياء العمري ، ص 25-28, ويتحدث العمري [ص29] عن معنى التراث [LEGACY] في الحضارة الغربية المعاصرة، فهو يطلق على المخلفات الحضارية والثقافية والدينية. فالروح العلمانية غير الدينية جعلت الفكر الغربي الحديث لا يميز بين الدين وبقية الإرث الحضاري، بل هو يتعامل مع التراث على سواء بين ما مصدره الإنسان المخلوق وما مصدره الإله الخالق. وهنا يمكن خطر اعتبار الدين تراثا ضمن الظلال العلمانية الغربية التي أحاطت بمصطلح التراث ويخص فهمي جدعان في نظرية التراث ص 17 التراث بالمبدعات الإنسانية لأنه بطبيعته عمل إنساني خالص يدور في دائرة العربية أو الإسلام أو الاثنتين كلتيهما. ويستعبد د.علي بن إبراهيم النملة أن يكون القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة سندا ومتنا من التراث، لأن هذه المصادر كاملة بكمال الدين، وإنما النقص يعتري المطبقين لهذا الدين. انظر بحثه: أثر المستشرقين في خدمة التراث العربي، ضمن ندوة تاريخ الطباعة ص 308.

[7] التراث العربي، عبد السلام هارون، ص 7.

[8] أثر المستشرقين في خدمة التراث العربي الإسلامي، لعلي بن إبراهيم النملة، ضمن ندوة تاريخ الطباعة ص 309.

[9] دراسات في الكتب والمكتبات، عبد الستار الحلوجي، ص169 نقلاً عن النملة، أثر المستشرقين في خدمة التراث العربي ص 309.

[10] قطوف أدبية حول تحقيق التراث ص 73, ومدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، ص 33-34.

[11] مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ص 34

[12] مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ص25-26, وتاريخ الطباعة في الشرق العربي، خليل

صابات ص 12-14, والمستشرقون لنجيب العقيقي 357/1.

[13] أوائل المطبوعات العربية في مصر، محمود الطناحي، ضمن ندوة تاريخ الطباعة العربية ص 355.

[14] مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ص 213.

[15] المستشرقون للعقيقي357/1, وأوائل المطبوعات العربية في مصر للطناحي ص 355 حيث يصف الكتاب - كما جاء في عنوانه - بأنه: «صلاة السواعي، الصلوات الليلية والنهارية حسب طقوس كنيسة الإسكندرية الأرثودكسية». ويذكر أنه في [211] صفحة في حين يذكر العقيقي 357/1 أنه في [120] صفحة!

[16] انظر تاريخ الطباعة في الشرق العربي ص 17-18و121, والمستشرقون للعقيقي 358/1.

[17] الطباعة العربية في أوربا، قاسم السامرائي، ندوة تاريخ الطباعة العربية ص 355.

[18] الطباعة العربية في أوربا ص 54 وما بعدها والمستشرقون 357/1-359.

[19] الطباعة العربية في أوربا ص 57 وما بعدها.

[20] يعلّق شيخ العربية محمود محمد شاكر - رحمه الله- على قلة الأعداد التي كان يطبعها المستشرقون ممّا حققوه من كتب في «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» كتاب الهلال، العدد 489, القاهرة، أيلول سبتمبر1991 ، ص 78, الحاشية 1 قائلاً: لا تصدق من يقول لك إن الاستشراق قد خدم اللغة العربية وآدابها وعلومها، لأنه نشر هذه الكتب التي اختارها مطبوعة، فهذا وهم باطل. كانوا لا يطبعون قطّ من أي كتاب نشروه أكثر من [500] نسخة - ولم تزل هذه سنّتهم إلى يومنا هذا- توزّع على مراكز الاستشراق في أوربا وأمريكا،وما فضل بعد ذلك وهو قليل جدا، كانت تسقط منه على بلاد العرب المسلمين النسخة والنسختان والعشرة على الأكثر، لم يسعّوا قط إلى تسويقها بين ملايين العرب والمسلمين، كما يسوّقون بضائعهم وتجارتهم وسائر ما ينتجون، بين هذه الملايين طلباً لربح المال. هدفهم كان ما قلت لك لا غير.

[21] انظر: عرضاً موسعاً لجهود المستشرقين في طباعة الكتب العربية ونشر التراث العربي حتى نهاية القرن الثامن عشر: دور الاستشراق في نشر التراث العربي الإسلامي في أوربا في عصر النهضة، للدكتور جمال جودة، ضمن: التراث العربي الرؤى والآفاق ص 785-790.

[22] مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ص 217. ويذكر هنا أن الشيخ محمود محمد شاكر اختار تسمية «جمهرة» بدلاً من «دائرة المعارف» أو «الموسوعة» انظر رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص 79, ح1. ومنذ أوائل القرن العشرين اختار محمد كرد علي تسمية «المعلمة» بدلاً من «دائرة المعارف» أو «الانسيكلوبيديا» انظر: المذكرات 125/5, بتحقيق قيس الزلي، منشورات المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، دمشق 2008م.

[23] أصول نقد النصوص ونشر الكتب ص 11-12.

[24] قطوف أدبية حول تحقيق التراث ص 38-39, وقد ورد عنده أن بيفان هولندي، وجاير ألماني، والصحيح ما أثبتناه. وفي جهود المستشرقين عموما وفي تراجم من ذكرهم هارون ينظر: المستشرقون لنجيب العقيقي، وموسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوي، ومدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي للطناحي]فصل جهود المستشرقين في نشر التراث ص 206- 283, وهو فصل قيّم جدير بالقراءة، ففيه تقويم موضوعي منصف لأعمالهم، وفي تراجم لطوائف مختارة منهم من بلدان مختلفة.

[25] مذكّرات محمد كرد علي ج125/5.

[26] أثر المستعمرين من علماء الشرقيات في الحضارة العربية ص 30, ضمن: محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق، الجزء الثالث، 1374هـ -1954. وانظر: أثر المستشرقين في خدمة التراث العربي الإسلامي، د.علي إبراهيم النملة ص 311 وقد أحال إلى محاضرة كرد علي نفسها في مجلة المجمع العربي بدمشق، المجلد 7 لعام 1927, ص 455.

[27] قطوف أدبية حول تحقيق التراث ص 38. وانظر مقدمتي كتابه: «تحقيق النصوص ونشرها» حيث يذكر أنه صاحب أول كتاب عربي يظهر في عالم الطباعة معالجاً فن تحقيق النصوص ونشرها ص7 ، وأمه تمكّن من أن يضع علماً متكاملاً لم يسبق إليه من تجارب العلماء القدماء ومن تجاربه الخاصة التي ترسّم فيها خطاهم زهاء أربعين عاماً]ص8 من الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة 1977, والكتاب صدرت طبعته الأولى عام 1954م.

[28] مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ص 92و274-276, حيث يذكر أن الوسائل العلمية الجيدة التي اصطنعها المستشرقون في نشر التراث مأخوذة ممّا صنعه علماؤنا الأوائل، كجمع النسخ ومقارنة بعضها ببعض واختيار النسخة الأم وصناعة الفهارس والحرص على ذكر المصادر والمراجع حتى علامات الرقيم.

[29] البحث الأدبي ص 187. وانظر حول صنيع اليونيني ومناهج علمائنا القدامى في التحقيق: مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، للدكتور رمضان عبد التواب ص 13-53.

[30] تصحيح الكتب وصنع الفهارس المعجمة ص 15.

[31] نفسه ص42. وعلّق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة على كلام الشيخ شاكر في حاشية الصفحة قائلاً : « سيتبين لك بجلاء ووضوح أن هذه لفهارس العامة قد سبق إلى ابتكارها المسلمون قبل 800 عام». ويضرب مثلاً على هذا كتاب جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير المتوفى سنة 606, حيث زوّده ابن الأثير بالفهارس العامة، وبفهرس للألفاظ كان ابن الأثير هو أول من ابتكره من نحو ثمانية قرون وقبل نحو ثمان مئة سنة من أصحاب « المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي». ثم عرض

نماذج من فهرس الألفاظ عند ابن الأثير. انظر ص 76-87 من الكتاب نفسه

[32] تراثنا بين ماض وحاضر، بنت الشاطئ، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1968, ص 61.

[33] تحقيق التراث الرؤى والآفاق ص 303.

[34] نفسه ص 413.

[35] المستعربون من علماء المشرقيات، كرد علي ص 125.

[36] تراثنا بين ماض وحاضر ص 40 نقلاً عن خطط الشام، ط دمشق 198/6. وانظر: أثر المستعمرين من علماء المشرقيات ص 6-7, وتغريب التراث العربي بين الدبلوماسية والتجارة، د.محمد عيسى صالحية، دار الحداثة، بيروت، ط2 1985, ص 7-24, وتحقيق التراث الرؤى والآفاق ص 687.

[37] تراثنا بين ماض وحاضر ص 41.

[38] نفسه ص 33- 40, ومدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ص 22, وأثر المستشرقين في خدمة التراث العربي ص 310, وينقل عن حمد الجاسر أسفه لوقوفه على مخطوطات تباع على قارعة الطريق في إحدى مدن المملكة العربية السعودية على الساحل الشرقي! كما يروي عن أستاذه فوزي فيض الله « وجود ظاهرة استخدام ورق المخطوطات عند باعة الحَب يلفونها على شكل» محقان« مغلق من جهته التحتية ويوضع به ما يشتريه المارة من الحَب للتسلية، ومن ثم ترمى هذه الورقة في الطريق».

[39] التراث العربي، عبد السلام هارون ص 44-45.

[40] نفسه ص 45-47, ومدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ص 31-35.

[41] انظر ما يقوله أحمد محمد شاكر عن الكتب التي تطبع في مصر منقولة عن طبعات أوربية بعد إسقاط الفهارس والتعليقات وما تحفل به هذه المطبوعات من أخطاء وسوء طباعة، لا يستثني منها « في غمرة هذا العبث قلة من الكتب طبعت في مطبعة بولاق قديماً، عندما كان فيها أساطين المصحّحين، أمثال الشيخ محمد قطة العدوي، والشيخ نصر الهوريني، وفي بعض المطابع الأهلية كمطبعة الحلبي والخانجي». انظر: تصحيح الكتب وصنع الفهارس المعجمة ص 10, وانظر مقارنة الأستاذ محمد كرد علي بين مطبوعات المستشرقين وما يطبع في الأستانة وفي مصر، في: أثر المستعربين من علماء المشرقيات ص 29-30.

[42] ضمن ندوة تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر ص 352-377, حيث يذكر أن كتباً تراثية كبيرة طبعت في مصر والقسطنطينية لم يذكر فيها الأصل الذي أخذت عنه، وبعض الكتب يعاد طبعها عن طبعة سابقة دون بحث عن نسخ مخطوطة ولا ذكر لتصحيح أو تقويم، وكذلك بعض الكتب نقلت عن طبعات أوربية... إلى غير ذلك.

[43] منهج تحقيق المخطوطات، إياد خالد الطباع، دار الفكر بدمشق، ط1 2003, ص 20. ويورد المؤلف عقب ذلك جدولاً يبين نهاية القرن التاسع عشر. وانظر حول الكتب التي طبعت في مصر منذ إنشاء مطبعة بولاق إلى نهاية القرن نفسه: مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، ص 33-34.

[44] التراث العربي لهارون ص 47, وحول مطبعة بولاق وتأسيسها وما نشر فيها انظر: مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ص 31-34.

[45] مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ص 31.

[46] أوائل المطبوعات العربية في مصر، ص 359.

[47] نفسه، ص 357.

[48] انظر التعريف بهم وبجهودهم: أوائل المطبوعات العربية في مصر، ص 364-366, والتراث العربي لهارون ص 53.

[49] مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، ص 58.

[50] انظر: ما ألف في مناهج التحقيق قائمة وراقية تحليلية، عباس هاني الجراخ، في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد 82 لعام 2007, ص 277-300, وجهود القدماء والمحدثين في وضع الأصول العلمية لأسس تحقيق التراث العربي، ليلى توفيق العمري، ضمن تحقيق التراث الرؤى والآفاق، ص 437-522. فهما - فيما أعرف- أجمع من كتب في هذا الشأن.

[51] انظر: أسس تحقيق التراث العربي ومناهجه: نص التقرير الذي وضعته لجنة مختصة في بغداد، أيار 1980, منشورات معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ط1, الكويت 1985.

[52] أثر المستشرقين في خدمة التراث العربي، ص 321.

[53] نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى ص 25.

[54] التحقيق وإحياء التراث، شكري ماضي، ضمن تحقيق التراث الرؤى والآفاق، ص 61.

[55] تصحيح الكتب وصنع الفهارس المعجمة , ج1 ص 11 .

[56] معجم المطبوعات العربية والمعربة، ليوسف اليان سركيس، مطبعة الهلال، القاهرة 1928, ص 658.

[57] انظر آراء الدكتور شاكر الفحام والدكتور شكري فيصل والأستاذ عبد المعين الملوحي في كتاب: ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة عام على ولادته، الصفحات: يو، 236-238, 225, 228-229.

وانظر كذلك ما علقه الدكتور محمد مصطفى زيادة على كتاب ابن عساكر بعد نشر المجلدة الأولى منه في ص 219-220 من المرجع المحال إليه نفسه، إذ يصفه بأنه زمن أوائل الكتب الوطنية بالشام... وأنه أصل عريق من أصول الوطنية في الشرق الأوسط وأن الاهتمام بإحياء الكتب القديمة ليس للتقوى والزلفى فحسب، بل لبناء حاضر الثقافة في أمم هذا الشرق على أسس منهس، وانظر كذلك حول المؤلف وكتابه وأهميته، مائة أوائل من تراثنا، د.سهيل زكار، دار حسان للطباعة، دمشق 1982, ص 393-398.

[58] صدر الكتاب الأول: «ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته» عن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بوزارة التعليم العالي -دمشق عام 1979, وفيه كل ما كتبه القدماء والمحدثون عن ابن عساكر مع التعريف بمؤلفاته ومخطوطات هذه المؤلفات وما طبع منها. وقد قدم للكتاب الدكتور شاكر الفحام - رحمه الله- وأشرف على تحريره وطباعته الأستاذ مطاع الطرابيشي، جزاه الله كل خير.

أما الكتاب الثاني: الحافظ ابن عساكر... فهو من تأليف الزميل الدكتور محمد مطيع الحافظ، من منشورات دار القلم بدمشق عام 1424هـ- 2003م في سلسلة المسلمين 88. وهو كتاب حافل شامل يقع في 375 صفحة.

[59] انظر مقدمة الدكتور شكري فيصل للجزء الخاص بتراجم حرف العين المتلوّة بالألف من عاصم - عايذ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق عام 1977, ص 5-24, وقد أخذنا من هذه المقدمة فنصصنا على ما نقلناه حرفياً، وما لم ينصص تصرّفنا في عرضه، وهو كله من كلام الشيخ رحمه الله.

وقد أورد هذه المقدمة الأستاذ مطاع الطرابيشي في الكتاب المذكور في الحاشية، ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة علم على ولادته» ص 233-254.

[60] لا ندري سبب إغفال محرر كتاب: « ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة عام على ولادته» هذا النقد الذي استغرق صفحة واحدة من القطع الكبير وقد تضمن آراء كتاب المقدمة وصلاح الدين المنجد ويوسف العش ومحمد أحمد دهمان وأحمد عبيد!

[61] انظر الملحق بهذا البحث، وفيه تبيان لما طبع وما لم يطبع من تاريخ ابن عساكر. والملحق من صنع العاملين في مجمع اللغة العربية بدمشق، جزاهم الله خيراً. وما زيادة عليه سيدكر في متن البحث.

[62] ص 200و206 من كتاب: في المخطوطات العربية: قراءات تطبيقية، لإسماعيل إسماعيل مروة، دار الفكر بدمشق 1997م. وانظر حوار السيدة سكينة تاريخ دمشق مع مؤلف الكتاب كاملاً ص 199-206.

[63] انظر: الحافظ ابن عساكر محدّثها ومؤرخها الكبير، ص 483-484.

[64] انظر الملحق: التراجم المفردة، وقد أعاد طباعة بعض هذه التراجم بالتصوير مجمع إحياء الثقافة

الإسلامية في قم عام 1414هـ، انظر: ملاحظات على أعمال علمية لمخطوطات عربية مطبوعة في إيران من مقتنيات مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق، لخير الله الشريف، ضمن: محاضرات مؤتمر المخطوطات العربية في إيران، ص 1160.

المصادر والمراجع

- ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته 499-1399هـ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية دمشق 1977.
- أثر المخطوطات في حركة إحياء التراث الإسلامي- أثر العلماء الدمشقيين، د.نزار أباظة ص235-245 في: محاضرات مؤتمر المخطوطات العربة في إيران.
- أثر المستشرقين في خدمة التراث العربي الإسلامي،د.علي إبراهيم النملة، ص 305-335 في: ندوة تاريخ الطبعة العربية.
- أثر المستشرقين من علماء الشرقيات، محمد كرد علي، ص1-31 ف: محاضرات المجمع العلمي العرب، الجزء الثالث.
- أسس تحقيق التراث العربي ومناهجه نصّ التقرير الذي وضعته لجنة مختصّة في بغداد من 6-15 رجب 1400 هـ الموافق 20-29 مايو أيار 1980 ، منشورات معهد المخطوطات العربة للتربة والثقافة والعلوم الكويت 1405 هـ 1969.
- أصول نقد النصوص ونشر الكتب، برجشتراسر، إعداد وتقديم د. محمد حمدي البكري، دار الكتب المصرية- مركز تحقيق التراث القاهرة 1969.
- أوائل المطبوعات العربة في مصر، د. محمود محمد الطناحي ص 353 -338 في: ندوة تاريخ الطباعة العربية.
- البحث الأدبي: طبيعته - مناهجه - أصوله- مصادره د. شوق ضيف، ط1 دار المعارف بمصر 1972.
- تاريخ الطباعة في الشرق العرب،د. خليل صابات، ط1 دار المعارف بمصر 1958.
- تاريخ المجمع العلمي العرب، أحمد الفتح، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق 1375هـ 1956.

- تحقيق التراث،د. عبد الهادي الفضلي، دار الشروق جدة 1410هـ 1990م، ط2.
- تحقيق التراث الرؤى والآفاق، أوراق المؤتمر الدولي لتحقق التراث العربي الإسلامي، إعداد وتحرير د. محمد محمود الدروبي، منشورات جامعة آل البيت، المفرق، عمّان ج1-3, 1427 هـ 2006م.
- تحقيق التراث: لماذا وكيف؟ د. يوسف حسين بكار، ص 43- 54 في تحقيق التراث: الرؤى والآفاق
- تحقيق النصوص ونشرها، عبد السلام هارون، ط4 مكتبة الخانجي بالقاهرة 1397هـ 1977م
- التحقق وإحياء التراث،د. شكري عزيز الماضي،ص 55-64 في: تحقيق التراث: الرؤى والآفاق
- التراث العربي، عبد السلام هارون، سلسة كتابك، دار المعارف بمصر 1978
- التراث والمعاصرة، أكرم ضياء العمري، كتاب الأمة الدوحة شعبان 1405 هـ 1985م
- تراثنا بين ماض وحاضر،د.عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة 1968.
- تصحيح الكتب وضع الفهارس المعجمة وكيفية ضبط الكلمات وسبق المسلمين الإفرنج في ذلك، بقلم أحمد محمد شاكر، اعتنى به وعلق عليه وأضاف إليه عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب دار البشائر الإسلامية بيروت 1414 هـ 1993م
- جهود القدماء والمحدثين في وضع الأصول العلميّة لأسس تحقيق التراث العرب، ليلى توفق العمري، ص 437-522 في: تحقق التراث: الرؤى والآفاق
- الحافظ ابن عساكر محدّث الشام ومؤرخها الكبير، د.محمد مطيع الحافظ، دار القلم بدمشق 1424 هـ 2003م، سلسلة أعلام المسلمين 88.
- دور الاستشراق في نشر التراث الإسلامي في أوربا في عصر النهضة،د.جمال جودة، ص 785-795, في: تحقيق التراث الرؤى والآفاق.
- دور المخطوطات في مشروع الإحياء الإسلامي، محمد قجة، ص 28-37 في: محاضرات مؤتمر المخطوطات العربة في إيران.

- دور المخطوطات في مشروع الإحياء الإسلامي،د. محمود مصطفى حلاوي، ص 225-234 في: محاضرات مؤتمر المخطوطات العربية في إيران.
- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، كتاب الهلال العدد 489 دار الهلال القاهرة 1991م
- الطباعة في أوربا،د.قاسم السامرائي ص 45-108 في: ندوة تاريخ الطباعة العربية.
- في المخطوطات العربية، قراءات تطبيقية، إسماعيل إسماعيل مروة، دار الفكر بدمشق 1997م
- قطوف أدبية، دراسات نقدية في التراث العرب حول تحقيق التراث، عبد السلام محمد هارون، مكتبة السنة - القاهرة 1409 هـ 1988م
- كنوز الأجداد، محمد كرد علي، دار الفكر بدمشق 1404-1984.
- ما ألف في مناهج التحقيق، قائمة وراقية تحليلية: توثيق ودراسة د.عباس هاني الجراخ، ص177-300 في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد 82/ج2/ نيسان أبريل 2007
- مائة أوائل من تراثنا،د. سهيل زكار،ط2 دار حسان للطباعة والنشر، دمشق 1402-1982م
- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد 82/ج2/ نيسان أبريل 2007.
- محاضرات المجمع العلمي العرب الجزء الثالث، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق 1374هـ 1954م.
- محاضرات مؤتمر المخطوطات العربية في إيران، دمشق 18 و 2002/5/19 المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق 1423 هـ/2002.
- مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، مع محاضرة عن التصحيف والتحريف،د. محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي القاهرة 1405 هـ 1984م
- المذكرات، محمد كرد علي، الجزء الخامس، تحقيق قيس الزرلي، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى- دمشق 2008.
- المستشرقون، نجيب العقيقي، ط3 دار المعارف بمصر 1964- 1965

- المستعربون من علماء المشرقيات، محمد كرد علي، ص 124-139 في: المذكرات، الجزء الخامس
- معجم المطبوعات العربية والمعربة يوسف إليان سركيس، القاهرة 1928.
- ملاحظات على أعمال علمية لمخطوطات عربية مطبوعة في إيران من مقتنيات مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق، خير الله الشريف، في: محاضرات مؤتمر المخطوطات العربية في إيران، ص 98-122.
- مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين،د. رمضان عبد التواب،ط1 مكتبة الخانجي القاهرة 1406هـ 1986م
- منهج تحقيق المخطوطات، ومعه كتاب شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام لابن وحشية النبطي، إياد خالط الطباع،ط1 دار الفكر بدمشق 1423هـ 2003م
- منهج نشر التراث في أوائل القرن الرابع الهجري،د. صلاح الدين المنجد،ص 337-352 في ندوة تارخ الطباعة العربية
- موسوعة المستشرقين،د. عبد الرحمن بدو،ط3 دار العلم للملايين - بيروت 1993.
- ندوة تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر، 28-29 جمادى الأولى 1416هـ 22-23 أكتوبر تشرين الأول 1995 الوقائع والبحوث التي ألقيت فيها، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث- دبي والمجمع الثقافي - أبو ظبي 1996.
- نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى،د. فهمي جدعان، ط1 دار الشروق للنشر والتوزيع عمّان 1985.

الرائد المعجمي
أبو نصْر الجوْهريّ النيسابوري
شهيد الإبداع
في الذكرى الألفية لوفاته سنة 2009 م

الدكتور / ابن حويلي ميدني
جامعة الجزائر

مقدمة :

تحفل الأمم المتحضّرة في سائر الدنيا برجال العلم وأهل الفضل فيها، اعترافا بما قدّموا من جهود لأجل تنوير العقل، وتربية الهمم على حب العلم والعمل، و محو الجهل والكسل، وما أكثر علماءنا ذوي الفضل على الأمة، وما أجدر بنا أن ننوّه بجهودهم العلمية، وما تركوا من آثار خالدة تشحذ الهمم وتبعث الأمل في الاقتداء بما قدموا، فلعلّ النفوس تحي إن نظرت ، ولعلّ العقول تنهض إن اعتبرت.

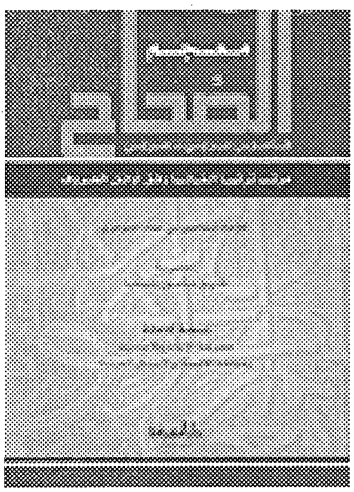

صورة غلاف معجم الصحاح
في طبعة حديثة [1]

وأقل واجب على الأمة المؤمنة بقدرات علمائها، المتطلعة إلى مستقبل أجيالها أن تقف تقديرا وتنحني عرفانا لمن شرّف ماضيها، وتخص بالذكر الطيب أولئك الذين رصعوا جبينها إكليل الإبداع العلمي والأدبي، ووشّحوا صدرها وسام المجد خالدا تباهي به الدنيا إلى يوم الدين.

ومن أفاضل علماء العربية الذين تركوا بصماتٍ مشرّقةً في مجال البحث اللغوي، وهم كُثُر، نتذكّر فنترحّم على أبي نصر إسماعيل بن حمّاد، الجوهري، الفارابي، النيسابوري، في ذكرى وفاته الألفية، هذا العام 2009م.

1 - الجوْهريّ ، في المكان والزمان :

1 / 1 - الانتساب والمرْبى :

ولقب (نيسابوري) نسبة إلى مدينة (نيسابور)، واللفظ هذا أصله من مدينة (نيشابور) قبل تعريبه ، وهي مدينة تابعة تاريخيا إلى إقليم «خراسان» ، قال ياقوت في وصفها: « والعامة تسميها نشاوُور... وهي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة معدن الفضلاء ، ومنبع العلماء لم أر فيما طوّفت من البلاد مدينة مثلها... ومن هناك طالت أعمار أهلها». [2] ورد ذكرها في المصادر بأسماء مختلفة منها (أبرشهر) ، وهي اليوم في إيران.

والمنطقة عريقة في تاريخ الحضارة الإسلامية ، بلغت قمة ازدهارها في القرن الثالث الهجري، ويسجل التاريخ أنها فتحت في عهد الخليفة عثمان بن عفان على يد القائد العربي «عبد الله بن كُريز» سنة

29هـ/649م. [3] ومنذ ذلك الوقت نزح إليها الكثير من العرب واستقروا بها واتخذوا لهم مواطن فيها لازالت آثارهم شاهدة إلى اليوم على أنها كانت مركزا إشعاعيا وحضاريا ، وكانت من أمهات مدن العالم الإسلامي بما امتلكت من منابع العرفان، ومراكز العلم والثقافة والتجارة عبر العصور، ابتداء من الفتح الإسلامي وحتى أوائل القرن 7هـ/13م.

ويكفي أن نذكر في ميدان الإشعاع الروحي ما كان لمساجدها وجوامعها العامرة من خدمات جليلة في مجال نشر العلوم الإسلامية وعلوم اللغة العربية وآدابها ، وكان لمسجد (عقيل) بالذات فضل كبير، إذ كان مجمعاً لأهل العلم لشهرة مكتبته ، وما احتوت من خزائن الكتب المتنوعة الموقوفة أصلا على طلاب العلم، وهي من عظيم منافع نيسابور التي يطلبها الناس في كل عصر ومصر.

وفي مجال التربية والتعليم نشير إلى (نظامية نيسابور) التي أسسها الوزير السلجوقي « نظام الملك» [4] حوالي عام 450هـ/1087م ، والتي كانت تقدم لطلاب العلم من شتى أصقاع البلاد الإسلامية خدمات متميزة ، يكفيها فخرا أن تخرّج منها علماء وفقهاء حملوا اسمها عاليا، وكانوا ذخرا للأمة الإسلامية، بما صنعوا من أمهات الكتب والمصادر العريقة.

ومن أعلام (نيسابور) في الفقه واللغة والفكر...، أولئك الذين تركوا بصماتِهم في مدارسها النظامية وحلقاتها العلمية والفقهية، نذكر ثلّة من الأعلام البارزة، ابتداء بعلماء الشريعة، وانتهاء بعلماء اللغة والأدب، مرتبة وفق تاريخ الوفاة:

- الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، أمير أهل الحديث، لم يشهد تاريخ الإسلام مثله في قوة الحفظ ودقة الرواية والصبر على البحث مع قلة الإمكانات، حتى أصبح منارة في الحديث وفاق تلامذته وشيوخه على السواء. وهو صاحب كتاب « صحيح البخاري» أصحّ الكتب عند أهل السنة بعد القرآن الكريم، هذا العالم نفسه أصله من منطقة بخارى - خراسان، طوّف الدنيا ينشر العلم ، ومكث في نيسابور زمنا، يأخذ عنه علماؤها وطلابها «الحديث الصحيح» ، وفيها تعرض إلى محنة شديدة مع أمير (بخارى) كادت تعصف به، وبرحمة ربه خرج منها سالما غانما. توفي 256هـ/ 869م.

-الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صاحب «صحيح مسلم»، هو أحد الأئمة الحفاظ وأعلام المحدثين. توفي عام 261هـ/ 874م.

-أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، من كبار المحدثين ، ومن أصحاب (الصحاح) ، اشتهر بكتابه (المستدرك على الصحيحين) ، لقب بالحاكم لتوليه القضاء في نيسابور مرة بعد مرة ، ثم اعتزل بنفسه ليتفرغ إلى العلم والتصنيف. توفي عام 405هـ/1014م.

- الإمام أبو الحسن على بن أحمد الواحدي النيسابوري، صاحب التفسير، وإمام علماء التأويل في زمانه، ومن مؤلفاته البسيط، والوسيط، والوجيز. توفي عام 468هـ/ 1065م .

- أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد، لقبُه ضياءُ الدين ، ومشهور بالإمام الجُوَيْني، نسبة لجوين من قرى نيسابور، ويلقب

أيضا بإمام الحرمين، شافعي، أشعري، كان عالماً أصولياً نظّاراً، محققاً بليغاً، شيخ الشافعية بنيسابور، جلس للتدريس في نظامية نيسابور ما يقارب الثلاثين سنة. توفي عام 478هـ / 1085م.

- أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الشافعي، الإمام الغزالي ، حجة الإسلام، ملأ الدنيا ذكره ، وطار في الآفاق صيته . تتلمذ على يد الإمام الجويني ، ثم خلفه في التدريس. كان رئيس المدرسين في نظامية نيسابور. له تصانيف كثيرة في التصوّف والفقه والفلسفة... ، ومن أشهر مؤلفاته كتاب « إحياء علوم الدين» . توفي عام 505هـ/ 1111م.

- أبوسعد محمد بن يحي؟ بن منصور النيسابوري ، الملقب بـ «محي الدين» ، الفقيه الشافعي:

أستاذ المتأخرين ، كان عالما زاهدا، أخذ الفقه عن حجة الإسلام أبي حامد الغزالي. برع في فقه المذهب الشافعيّ ، وانتهت إليه رئاسة فقهائه بنيسابور. توفي عام 548 هـ / 1153م.

- عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، ويعرف بأبي منصور الثعالبي النيسابوري، صاحب التآليف الجمة، ومنها (معجم فقه اللغة) ذو الفائدة العظيمة لطلاب علم اللغة في مجال الموضوعات والحقول الدلالية، وهو مطبوع معروف. توفي عام 429 هـ /1038م .

وفي ذكر علماء نيسابور وأدبائها وفقهائها فيْضٌ من الكلام لا يتسع المقام هنا لذكر كل ما أردنا ذكره، غير أنه من الممكن- لمن يريد المزيد - أن يتصفح موسوعات ضخمة كثيرة سجلت تاريخ هذه المدينة وعجائبها،

ومن أعظمها فائدة كتاب أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (العالم المعّرف أعلاه)، جمع فيه تاريخ علماء نيسابور في ثمانية مجلدات ضخمة، وأسماه « تاريخ نيسابور»، وذيّل عليه أبو الحسين عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي النيسابوري، المتوفّى سنة 529هـ/1134م كتاباً أسماه « السياق لتاريخ نيسابور»، وهو في مجلد ضخم.

وفي هذا الوسط المفعم بالحركة الثقافية والنشاط العلمي الخلاق سطع نجم عالمنا أبي نصر الجوهري، ليكون مَعْلَمًا متميّزا بين أقرانه.

1 / 2 - الجوهريّ ... مَنْ هُوَ ؟

هو إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصْر، الفارابي، النيسابوري. واختلف المؤرخون في سنة ميلاده ووفاته، كما اختلفوا في كنيته، فقيل هو أبو نصر، وقيل أبو العباس، والأولى أرجحُ . وأغلب المؤرخين على أنه ولد عام 332هـ / 943م في مدينة فاراب (تركيا) (5) ، وإليها نسب أولا، فقيل أبو نصر الفارابي.

واتفقت كثير من المصادر- التي تحت يدي- على نعته بصفات حميدة فريدة ميّزت شخصيته الفذة، وكان ممن يأكل من عمل يده، ويظهر من لقب (الجوهريّ) أنه قد اشتغل يوما ما بحرفة (صناعة الجواهر)، إلى جانب اهتمامه بطلب العلم والأدب والفنّ والتضلّع فيهما حتى أصبح إماماً لا يبارى وعَلَمًا لا يمارى، ويضرب بجودة خطه المثل،

حتى لا يكاد يُفرّق بين خطه وبين خط ابن مُقلة [6] ، وعلّم هذا الفن لمن يريد، واستغل موهبته هذه في كتابة المصاحف والكتب الأخرى، فاتسعت بذلك قريحته بكثرة الاطلاع والممارسة وحسن المدارسة.

وقد أخذ في مسيرة تحصيله عن جملة من كبار اللغويين المؤلفين والمبدعين في زمانه، كأبي علي الفارسي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار (ت 377 هـ/987م)، وأبي سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان (368هـ/978م) ، وأما الخال أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم، الفارابي (ت 349هـ/ 961م)، الأديب النحوي واللغوي المشهور، فقد كان له الأثر البليغ في تكوين شخصية ابن أخته (إسماعيل) العلمية بشكل اتضحت معالمه في اتساع علمه، وتتبّع خطاه في طلب العلم والتعلّم وطرائق التأليف والنشاط الفكري والإبداع بعد ذلك.

وكان (الخال) نفسه رائدا في الطريقة التي ألّف بها معجمه (ديوان الأدب) ، تلك الطريقة المبتكرة التي قامت على التبويب والتفصيل بكيفية متميزة ، إذ ترتب الكلمات بعد تجريدها من الزوائد بناء على الحرف الأخير، ويسمى بابا، والحرف الأول ويسمى فصلا. وجاء (الجوهري) فأخذها عن خاله وطوّرها، وشهّرها في (معجمه الصحاح) الذي ألفه في ما بعد، فطار به صيته في الآفاق، وبه صار إماما للآخرين، إذ تواترت طريقته هذه وظهرت في جملة من الإنجازات المعجمية المتداولة (سنذكر بعضا منها لاحقا بإذن الله) .

وكان (إسماعيل) مثل خاله (إسحاق) تماما، يحب الأسفارَ والتغرّبَ طلبا للعلم والرواية، قضى معظم حياته متجوّلا باحثا عن اللغة والأدب ،

فدخل العراق منبت علماء اللغة وذوي الشهرة الأولين، أصحاب الفكر والمذاهب والرواية اللغوية الأصيلة، أولئك المشهود لهم بسعة الفضل في اللغة والأدب والفنّ، فالتقى مشاهير علماء البلد وأخذ عنهم، ثم يمّم الحجاز، وشافَهَ باللغة العربَ العاربةَ، وطوّف بلاد ربيعة ومضر، وأخيرا عاد إلى خُرَاسان، فنزل الدامغان عند أبي الحسين بن علي، أحدِ أعيان الكتّاب والفضلاء، فاجتمعت لديه أسبابُ العزّة ، حتى صار« من أعاجيب الزمان ذكاءً وفطنةً وعلمًا » .[7]

1 / 3 - أبو نصر... العالم المصنّف

وبالنظر إلى العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية التي تعاورت الجوهري فشكلت شخصيته وصقلت مواهبه، التي مكّنته من تحصيل الفنون والآداب وتفرّد بين أقرانه بحبّ الإبداع والظهور حتى كان المجدّد المبدع. وهو يكرّس خالص جهده لإظهار مواهبه وإبراز عزيمته في التأليف والتصنيف في ميادين شتى من فنون المعارف والآداب والخطاطة...، وظهرت له كتب قيمة في النحو والعروض...، وله أنظار جريئة في اللغة وعلومها، وشارك الشعراء ميدانَهم، فقال مقطوعاتٍ لكنها لم ترقَ به إلى مستوى مصاف شعراء زمانه.

وكانت دعوات تيسير استعمال اللغة العربية وقواعدها ابتداء من مادة النحو (أشهر الموادّ التعليمية وأقدمها وأكثرها تعقيدا في نظر الكثير) تصدح عالية بغية رفع العراقيل التربوية في وجه المعلمين والمتعلمين، كما هو الحال مع ثورة ابن مضاء الأندلسي على نظرية العامل في كتابه

المشهور (الرّدّ على النحاة)[8]، هذه النظرية التي تعتبر من أسس الإعراب الأولى، وقد دار حولها خلاف كبير بين المدارس النحوية العربية عبر الأزمان. وانتهاءً بمادة العروض والقوافي وأوزان الشعر التي تعدُّ هي الأخرى من المواد التعليمية التي لا تقلّ تعقيدا عن مادة النحو، فكلاهما يتطلب براعة الفكر وصحة التدليل وقوة المنطق.

ومادة العروض بالذات هي من أهمّ المواد التعليمية في حصص الشعر وقواعده، ولا تقل أهمية وصعوبة عن مادة الرياضيات، فكلاهما يتطلب دراية وقدرا معتبرا من استعمال المنطق الصوري والتدليل العقلي، ومن لم يكن له نصيب من هذا فلا حظّ له في إتقان أي فن منهما (النحو والعروض) على الإطلاق.

وقد وجدنا للجوهري أثرا في (فن العروض) ، وصوْلاتٍ ضليعةً في مسالك التفعيلات، ولم يفوّت فرصة اهتمام الناس بهذا الميدان فأظهر براعته في حل مغاليق هذا العلم العويص، وانبرى يؤلف فيه فكان له كتيّب أسماه (عروض الورقة) ، طرَح فيه آراءَ عروضيّةً خالف في بعضها أستاذَ الجميع الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ / 791م) ، شيخَ النُّحَاةِ وأستاذَ سيبويه. صاحبَ أول معجم عربي، ومؤسس علم العروض والقوافي، بل نعتبره – نحن – أبَ الدراسات اللغوية العربية الأولى دون مُنافس.

قدم الجوهري عدة استدراكات على الخليل ، فأجاز زحافات كان نظام الخليل يمنعها، كما أثبت أنواعا لبعض البحور نتيجة اعتماده على شاذ الشعر وعلى المُحْدَث في زمانه ، من ذلك مثلا أنه يقول: «وأما مفعولات،

فليس بجزء صحيح، على ما يقوله الخليل، وإنما هو منقولٌ من مستفعلن مفروق الوتد. لأنه لو جاز أن يكون صحيحا لتركّب من مفرده بحر، كما ترتب من سائر الأجزاء ».

ويقول عن الرجز: « ويجوز تفريق الوتد في مسدسه فيصير مستفعنلُ بتقديم النون على اللام وهو الذي يسميه الخليل بالمنسرح».

وقد تتبع الباحث المغربي (محمد العلمي) تلك الآراء والأنظار المستدركة والمبتدعة من خلال كتاب (عروض الورقة)، وحلل الكثير من مضامينه القيمة في كتاب له مطبوع.[9]

وأما عن متن اللغة ، والمقصد بالمصطلح هنا إلى المفردات ودراستها وعلم المعاجم والتأليف في ميدانه ، فإن للجوهري باعا طويلا وإبداعا ملموسا خلد اسمه ونشاطه وجعله أعجوبة زمانه ، بما فعل ، ونقصد بذلك إنجازه معجما لغويا صار به إمام مدرسة قائمة بذاتها تسمى مدرسة الجوهري المعجمية.

2 / 1 - معجم الصحاح وأعجوبة الترتيب :

1 - الصحاح معجم لغوي عام :

ويعدّ من أشهر معاجم التراث ، وعليه قامت شهرة مؤلفه ، بل هو أهم إنتاجه على الإطلاق، واسمه الكامل«تاج اللغة وصحاح العربية »، وفيه آراء كثيرة في تسميته ، أهمها الصِّحاح (بكسر الصاد) ، والصَّحاح (بفتح الصاد) ، والأول هو المشهور. ومعلوم أن الغرض المعجمي من وجود المعجم على العموم هو غرض تربوي بالدرجة الأولى، يتمثّل في (إزالة

الإبهام والغموض) عن الألفاظ الموجودة بالفعل في (القائمة الاسمية للقاموس العام) عند الأمة الناطقة بلسانه ، تلك الألفاظ التي يفترض وجود نسبة القبول الجمعي على تداولها والرضا الخاص باحتضان استعمالها عند الضرورة ، فمتى كان الجوهري وما صحّ عنده بالذات هو معيار الفيصل لقبوله الألفاظ أو رفضها في الضمير الجمعي للقاموس العام ؟ مع العلم أنه لم يشرح لنا صفات هذه الصحة التي يرمي إليها بتلك الانتقائية المعتمدة عنده في البحث عن (الصحيح من الألفاظ)، وماذا يقصد من مصطلح (الصحيح) حينما قال : «أما بعد فإني قد أودعت هذا الكتاب ما صحّ عندي من هذه اللغة التي شرف الله منزلتها ، وجعل علم الدين والدنيا منوط بمعرفتها، على ترتيب لم أسبق إليه ، وتهذيب لم أغلب عليه ، في ثمانية وعشرين بابا ، كل باب منها ثمانية وعشرون فصلا، على عدد حروف المعجم وترتيبها... بعد تحصيلها بالعراق روايةً وإتقانها درايةً، ومشافهتي بها العرب العاربة في ديارهم بالبادية، ولم آلُ في ذلك نُصْحاً، ولا ادخرتُ وُسعاً » .[10]

لقد لخص القول السابق الذي تضمنته مقدمة المؤلف جملة من الخصائص المميزة لبحثه، ويهمّنا منها ما تعلق بجمع المادة وترتيبها، وابتداء نقول إنه قد ركّز نبر القول على ما اعتقده مقيّما لجهده، مبرزا لاجتهاده ، ومنه اعتماده على السماع ومشافهة العرب الفصحاء في البوادي في الحجاز وربيعة ومضر حيث القبائل الفصيحة، وإلزام نفسه بما صحّ لديه من لغتهم، ثم اتخاذ منهجا تربويا في عرض المادة وتقريبها إلى التناول إلى حاجة الناس التربوية ليقدمها في معجمه العملي الميسّر،

فيكون بذلك فعله أقرب إلى المنطق التداولي في اللغة، الذي يرمي دوما إلى تلبية الحاجات الملحة في التعبير عن مختلف أغراض الحياة بسهولة ويسر، وأقصد بالحاجة هنا القدرة النشطة على إزالة الإبهام والغموض ، ومن ثمة فك معضلة التعبير باللسان عن الأغراض والمعاني المستجدّة. وكل ما لا يفيد - من قريب أو بعيد - في معالجة مثل هذه القضايا يُفترض إبعادُه عن الطرح.

هكذا يصرّحُ بأنه قد استمدّ مادة كتابه من السماع، والرواية عن العلماء، ومن مشافهة العرب في البوادي، ولكنه قد أخذ أيضا من مؤلفاتٍ سبقتْه إلى هذا الميدان كالعين، والجمهرة ، وما إليهما... ، وليستْ فعلتُه هذه بدعةً، فقد أثبت التاريخ أن أخْذَ اللاحق عن السابق أمرٌ مألوف ومؤكد ومصرّح به أحيانا باللفظ والمعنى، وجاء من بعد الجوهري من أخذ مادة (الصحاح) وجعلها رافدا لأعماله ومَعينا ؛ كالفيروزأبادي، وابن منظور، والصغاني، والزَّبِيدي ... ، وغيرهم . (وسأكشف الدليل في الصفحات الآتية).

ومعجم الصحاح هذا الذي بأيدي الناس اليوم، وعليه اعتمادهم، أحسن تصنيفه، وجوّد تأليفه ، وهو معجم لغوي ، وأعني بذلك أنه مصنّف « يمثل مخزنا للموادّ اللغويّة التي تعدّ لَبِنَة في بناء بقية المعاجم. وبدايته قديمة تعود إلى بداية حاجة الناس إلى المعرفة. و المعجم مؤلف مَرْجِعيّ يحتلّ مكانة في تقدير المثقفين بوصفه «حُجّة» في مادّته. وعادة ما يكون « وحيد اللسان Monolingue ». يتناول جوانب المعرفة بحسب ما يسطّر له من أهداف تربوية، فيشمل كل ما يمكن جمعه من موادّ اللغة،

قديمَها وحديثَها، مستعملَها ومهملَها. وقد يتناول المعارفَ بأنواعها دون حدود، لذلك فهو مُتميّز بصفة التوسّع(Extensif) ، إذ ليس للمعجم العام حدّ معيّن في الحجم، باعتباره يجمع بين سِمَات عديدة لأنواع المعاجم، كأن تكون فيه سماتُ المعجم المفهرس، والمعجم السياقي، والمعجم الدلالي... وأنواع من معاجم أخرى، كلها في عمل معجمي واحد، حتى أنه قد يستغرق حجمُه آلافَ الصفحات، ويأخذ إعْدَادُه أمَدًا طويلا، فيتجاوز مقادير أعمار الباحثين». [11]

إن للجوهري نظرةً أخرى هي أقرب إلى الاعتبار التداوُلي في مفاهيم البحث، ومعلوم أن الجوهري قد ألّف معجمَه في فترة لم تكن الوسائل المساعدة فيها متاحةً، كما هي متاحة اليوم، ومجرّدُ التفكيرومحاولة التطبيق يعتبر سبقا يحسب في ميزان حسناته العلمية في مجال البحث التداولي، فهو، وإن كان قد سبقه من حاول طرق هذا الباب كمعجم البارع وتهذيب اللغة، إلا أن معجم «الصحاح» هو من اتّسم بهذه الخاصية وعُرف بها، مما يساعد على فهم طبيعة الفكر اللغوي عند الجوهري المائل إلى البحث في المنافع المباشرة لخصائص اللغة الاجتماعية التي من أهمها التعبير عن الأغراض من أقرب طريق وأوضحها ، ولا يكون ذلك إلا بالقدر المطلوب، ومنه (الصحيح من الكلمات) الخادمة لقضية التعبير والتبليغ بين أفراد المجتمع، على اعتبار أن اللغة كلها هي في الواقع «أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم». [12]

هذا الملمح الاجتماعي طالما شاع في مصادر التراث اللغوي العربي، مع العلم أن ابن جنيّ يكون قد سبق من حيث الفكرة – رغم بساطة

العرض – أقوال المحدثين، بجعله اللغة ظاهرة اجتماعية، نفسيّة وبشرية...، وعليه فإن عملية التعبير السليم ومن أقرب طريق يستدعي البحث عن وسيلة لتوفير الجهد بالتزام الصحيح ونبذ ما سواه.

ويَرى ابن خلدون أن من أهم أغراض اللغة البيان عمّا في الضمائر من مَعان وأفكار ومقاصد، والبيان في نظره « إنما يكون بالعبارة؛ وهي الكلام المركّب من الألفاظ النّطقيّة التي خلقها الله في عضو اللسان مُركّبةً من الحروف، وهي كَيفيّة الأصوات المقطّعة بعضلة اللهاة واللسان ليتبيّن بها ضمائر المتكلّمين بعضهم لبعض في مخاطبتهم » [13].

وقد شغلت دراسة اللغة من حيث الوجهة الاجتماعية فكر الدارسين، قبل ابن خلدون وبعده ، فلا غرابة أن يتفطّن الجوهري نفسه إلى أهمية البحث اللغوي التطبيقي، ويخلص من اختياره (صحيح اللفظ) في معجمه إلى أن الناس يبتغون (التعبير السليم بأقل جهد)، وهي المعضلة ذاتها التي تريد التداولية معالجة تعقيداتها وفك خيوطها المتشابكة في إطار الوظيفة الاجتماعية للغة ، هذه الوظيفة التي كان علماؤنا العرب الأولون قد نبّهوا إلى أهميتها دون تبيين حدودها أو الإفاضة في بلورة مصطلحاتها، وجاء المحدثون من علماء الغرب فألفوا في وصف حدودها ومعالمها وقيدوها بنظريات نسبوها إليهم (!)، وعلى رأس هؤلاء العالم اللغوي الفرنسي السويسري دي سوسور(de saussure) الذي يرى اللغة ظاهرة اجتماعية، لها « جانبانِ اثنان، فَرْدي واجتمَاعيّ، ولا يمكن تصوّرُ أحدِهما من دون الآخر»[14] .

تعدّ (الكلمة) الوحدة الأساس في بناء المعجم اللغويّ ، وقد تدعم بوسائل أخرى غير لغوية، ولذلك قيل بأنّ المعجم كتاب يضم بين دفتيه أكبر عدد من مفردات اللغة مقرونة بشرحها، وتفسير معانيها، على أن تكون المواد مرتبة ترتيباً خاصاً، إما على حروف الهجاء أو الموضوع، «والمعجم الكامل هو الذي يضم كل كلمة في اللغة مصحوبة بشرح معناها واشتقاقها وطريقة نطقها وشواهد تبيّن مواضع استعمالها » . [15]

2 - خصائص مادة الصحاح المعجمية، وأعجوبة الترتيب:

بلغ عدد المواد اللغوية في معجم الصحاح ما يقارب الأربعين ألف مادة، جمع جلها من الميدان اللغوي مباشرة (كما سبق قوله)، وهو رقم كبير بالموازنة إلى المعاجم اللغوية التي سبقته ، وسار في تنضيدها مسلكا خالف فيه من سبقه ، وحاول أن يتخلى عن طرائق الأولين فلم يلزم نفسه بما ألزموا أنفسهم به من صعوبات الترتيب والتبويب ، ومعلوم أن أشهر معجم جاء قبـله هو كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، وقد اتبع منهجه في الترتيب الصوتي والتقليبات [16] ثلة من المعجميين فألفوا على منواله.

وأما عن الجوهري فيبدو لي أن كَلَفَه بالتجديد وميلَه إلى الإبداع وحب (الظهور) كان الدافع الأساس إلى تحلي الرجل بسلوكيات غريبة أدناها ولوج باب المغامرة الواسع ، وأقصاها امتطاء مركب (الانتحال) ، فمثلا لو أن الناظر منا تمعّن سرّ شهرة (معجم الصحاح) العائدة أصلا إلى (فن

الترتيب المعجمي) لوجد بيسر أصول هذا الترتيب عند خاله أبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم، الفارابي (ت 349هـ/ 961م) ، في كتابه (ديوان الأدب) ، وما كان من فعل الجوهري مع قصة الترتيب إلا (تلميع) الموجود ونسبته لنفسه .

وأجملُ الآن بعضَ خصائص (معجم الصحاح) التي شهّرته، ثم نتمعّن شيئا من مزاياه الكثيرة :

1 – التزم ترتيب حروف الهجاء المعروفة منذ (نصر بن عاصم) بعددها 28 حرفا ، وحاول أن يجعل أبواب الكتاب بعددها ، إلا أنه جمع بين الواو والياء في باب واحد ، فكانت الأبواب 27 بابا فقط ، أما الفصول فجاءت 28 فصلا بحسب عدد حروف الهجاء ...، وقدم الهاء على الواو، واختتم معجمه بالألف اللينة.

2 – يجرد الكلمة من (اللواحق و اللواصق) وصولا إلى المادة المجردة التي تكوّن الأصل (الثلاثي أو الرباعي) ، فمثلا: مسكن، استغفر، معلمون ...، تصبح الكلمات بعد التجريد : سكن، غفر، علم...، ثم تكتب أصولا معجمية على هذا الشكل (س ك ن)، (غ ف ر)، (ع ل م).

وإذا كان في الكلمة حرف مقلوب عن حرف آخر يردّ إلى أصله حتى تتميز حروف المادة الأصلية، فمثلا همزتا (سماء) و (دعاء) أصلهما (سماو) و (دعاو) . يعودان إلى أصلين مختلفين : (س م و) و(دع و) .

3 - يرتب المواد في الباب بحسب الحرف الأخير، وفي الفصل بحسب الحرف الأول، فمثلا (س ك ن) توضع في باب (النون)، وفصل (السين) ، و(غ ف ر) في باب (الراء) فصل (الغين) ، و(ع ل م) في باب (الميم) فصل (العين) . وتخلص العملية إلى:

الكلمة	الأصل	الأصل المعجمي	الترتيب
مسكن	سكن	س ك ن	باب(ن)+فصل(س)
استغفر	غفر	غ ف ر	باب (ر)+ فصل (غ)
معلمون	علم	ع ل م	باب(م) +فصل (ع)

ولم يكْتَفِ الجوهريُّ بالوقوف عند الحرف الأخير من الكلمة في ترتيب الأبواب والحرف الأول بالنسبة للفصول، بل تجاوز ذلك إلى ترتيب المادة في الفصول ذاتها واعتبار الحرف الثاني في الثلاثي، والحرف الثالث في الرباعي، والحرف الرابع في الخماسي، فجاء ترتيبه على كيفية بديعة ميّزت إنجاز (الصحاح) عن المعاجم الأخرى ، فذاع به صيته ، وباهى به أقرانه، إذ قال في مقدمة المعجم: «على ترتيبٍ لم أسبق إليه، وتهذيب لم أُغلب عليه ».

4 - وبالنظر إلى طبيعة الكلمة قسم الكتاب إلى ستّة أقسام هي : السالم - المضاعف- المثال - ذوات الثلاثة - ذوات الأربعة - الهمز... وكلّ قسم في بابين: الأسماء والأفعال.

5 -وتجنّبا لمخاطر التصحيف ابتدع الجوهري جملة من السمات المحسوسة منها ضبط الكلمات بالحروف والأوزان.

6 – حرص على إفادة القارئ بمعلومات متعلقة بجملة القواعد النحوية والصرفية واللغوية، مع جرأة في مناقشة آراء العلماء الذين ينقل عنهم، ومع التنبيه إلى مواطن الاتفاق والافتراق، وقد يغلّب رأيا على آخر دون غلو، كما أنه يهتم كثيرا بنسبة ما ينقل إلى أصحابه.

7 – والسرّ في اعتماده أواخر الألفاظ في ترتيبها ، بدلاً من أوائلها، ربما يعود إلى غلبة فن السجع على كتّاب عصر الجوهري، إذ كانت المادة المسجوعة مطلوبة بحدة لحاجة الشعراء والكتاب إلى القافية والكلام المسجوع. وقراءة متأنية في مقدمته قد تدل على غلبة هذا الفن في كلامه ...، وهذا ملمح (تداولي) واضح.

وقد اهتدى المحقق عبد الغفور عطار إلى تفسير مقنع لاختيار الجوهري لمنهجه بقوله: « رأى الجوهري أن الفاء والعين لا تثبتان في موضع، ولا تبقيان على حال، أما اللام فثابتة، فترك ترتيب الكلمات على أوائل الحروف لان فيه متيهة الباحث الذي لا يعرف التصريف والمجرد والمزيد، فكلمة « أكرم» واستنوق وترهل ومحجّة تضلل الباحث الشادي، بل رأيت بعض العلماء يضلون في الكشف عن مواضعها من المعجم، ولا يعرف في أي حرف هي ... أما طريقة الجوهري فمأمونة هادية، فيجد الباحث «أكرم» وكل ما تفرع من مادة «كرم» في باب الميم، واستنوق في باب القاف، وترهل في باب اللام، ومحجّة في باب الجيم، وإذا كان الباحث عارفا بالمجرد والمزيد فإنه سيجد أكرم في فصل الكاف، واستنوق في فصل النون، وترهل في فصل الراء، والمحجّة في فصل الحاء... وأعتقد

أن ما ذكرته هو الذي حمل الجوهري على اتباع منهجه الذي ابتكره ابتكارا » .[17]

وفي عبارة (ابتكره ابتكارا) دلالة على أن المحقق جازم بنسبة المنهج إلى الجوهري ، مع وجود آراء مخالفة تراه مقلدا لا مبدعا، وأن رائد هذه الطريقة ومبتكرها إنما هو أبو بشر اليمان بن اليمان البندنيجي (ت 284 هـ/897 م) . وأما قول الجوهري :« على ترتيب لم أُسبَق إليه » ، فربما يدلّ على أنه لم يعرف عمل (البندنيجي) هذا في مصنفه «كتاب التقفية» ولم يطلع عليه، إذا استبعدنا هاجس المنافسة العلمية ، باعتبار أن الفارق الزمني بينها مديد.

والخلاصة أن معجم الصحاح قد تميز بسهولة البحث فيه، وعناية المؤلف بالمسائل النحوية والصرفية إذا عرضت له، كما يتميز بدقة نظامه وبساطته في الوقت نفسه.

3 - أثر الجوهري في من جاء بعده :

كان معجم (الصحاح) محط أنظار العلماء والباحثين وطلاب اللغة المتميزين. وشاعت طريقته في الترتيب، ولقيت من الشهرة ما لم تلقه أية طريقة ترتيب أخرى قبله ، وسارت عليها معاجم هي معالم كان لها وزنها في التراث اللغوي. وتعددت أسماؤها، ولعلّ النّاظر في مخزون هذا التراث وفي تلك المنجزات المعجمية يدرك من أسمائها غرض أصحابها، وطريقة جمع مادتها، فكل اسم منها يوحي بذلك على وجه التقريب، كما هو الحال مع معجم (الصحاح).

3 /1 - تلاميذ الجوهري و مآثرهم المعجمية :

صار الجوهري شيخا لمدرسة، ولها تلاميذ تيمموا منهجه. وتأثرُ علماء زمانه بإنجازه العلمي وفكره المعجمي بارزٌ واضحُ المعالم والأهداف لدى الكثير منهم، وقد أحصى محقق (الصحاح) أحمد عبد الغفور عطار وأثبت في مقدمته أمورا هامة تدل على العناية البالغة والمكانة المرموقة التي تبوّأها الصحاح وصاحبه، فوجد تسعة تعليقات، وسبع حواش، وتسعة كتب جمعت الصحاح مع غيره من المعاجم، وسبع تكميلات ومستدركات، وعشرة كتب تناولت الصحاح بالنقد، وستة عشر كتابا أُلفت في الدفاع عن الصحاح، وسبعة عشر مختصرا، وثمان ترجمات إلى اللغتين الفارسية والتركية، وعشرة كتب اقتبست اسم الصحاح أو سارت على منهجيته. [18] ويمكن أن نأتي لاحقا على ذكر أهمها من وجهة نظرنا :

1 - الإمام الصغاني ومعاجمه اللغوية الثلاثة :

الصَّغَانِي أو الصّغَنِيّ، واحد من أنجب تلاميذ الجوهري ، واسمه الكامل : رضي الدين، الحسن بن محمد بن الحسن. ولد في لاهور بإقليم البنجاب (شمال الهند). واختلفوا في سنة ميلاده، والراجح أنها 577 هـ/1181م. وقال السيوطي في (بغية الوعاة) إنه « الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن علي العدوي العمري، الإمام رضي الدين أبو الفضائل الصغاني – بفتح الصاد المهملة وتخفيف الغين المعجمة، ويقال الصاغاني بالألف – الحنفي. حامل لواء اللغة في زمانه». وذكر الزَّبِيدِيُّ

في« تاج العروس» [19] أن الصاغاني- كالجوهري - كان من محبي الأسفار والترحال، ورحلاته كثيرة زار فيها العراق والحجاز واليمن والصومال والهند أكثر من مرة.

والصَّغَانِي عالم واسع الاطلاع، له تآليف جمَّة عظيمة الفائدة في اللغة والحديث والقراءات...، ومنها معاجم لغوية أظهر فيها براعة وصدقا، واقتدى فيها بمعجم (الصحاح) ، وذكروا منها (العباب) و(التكملة والذيل والصلة) ، و(مجمع البحرين)، وأشهرها جميعا الأول، ويليه الثاني، وأما الثالث فلم يصلني مطبوعا، ولا أعرف عنه إلا القليل. ولقيت هذه المعاجم كلها- عبر الأزمان- شهرة مرموقة وثقة واسعة من لدن علماء زمانه فنهلوا منها ما شاؤوا، واتخذوها مصادر للغة وبيانها، وحجة علمية في مؤلفاتهم في ما تعلّق باللسان العربي ومعانيه، وعاء علوم الدين والدنيا.

و معجم (العباب الزاخر واللباب الفاخر) معدود في نوادر معاجم اللغة العربية المؤلفة في القرن السابع الهجري. ويقع في ثمانية وعشرين جزءاً على عدد حروف الهجاء، تتفاوت عدد أوراق كل جزء عن الآخر، لتفاوت عدد مفردات كل باب. ويمتاز معجم الصغاني بتحقيق مفرداته، وتوثيق مصادرها. ويقال إنه لم يتمه ، وإنما وصل فيه إلى لفظ (بكم) ، وفيه قيل:

إن الصَّغَانيّ الـذي حاز العلومَ والحـكمْ
كان قصارى أمـرِه أن انتهى إلى (بكـمْ)

والمعجم مطبوع بتحقيق فير محمد حسن، الجزء الأول، القسم الأول، ومراجعة وإشراف لجنة معجمية ، ضمن منشورات المجمع العلمي العراقي بغداد ، الطبعة الأولى 1398 هـ/ 1978م.

و(التكملة والذيل والصّلة) استدرك فيه على (الجوهري) ما فاته من اللغات، واستتم ما أغفله من معاني الكلمات، وتعقّب أوهامه، وما أخطأ فيه بالتصحيح . يقع في ستة مجلدات ضخمة ، نشر بتحقيق عبد العليم الطحاوي وإبراهيم الأبياري ومحمد أبو الفضل .ونُشِر مُصوَّرا عن دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى سنة 1970م. في ستة مجلدات. توفي الصغاني على الأرجح عام 650هـ / 1252 م.

2 - ابن منظور و (لسانه) :

هو أبو الفضل جمال الدين ابن منظور محمد بن مكرم الأنصاري الرُّويفعي الإفريقي ابن منظور. ولد سنة 630 هـ/1232 م. في القاهرة ، وقيل في طرابلس الغرب، وقيل في تونس. كان عالما في الفقه واللغة، خدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة، ثم ولي القضاء في طرابلس. أشهر إنجازاته معجم«لسان العرب» في عشرين مجلداً، جمع فيها أمهات كتب اللغة، ومن بينها (معجم الصحاح) فكاد يغني عنها جميعاً، كان مغرما باختصار الكتب المطولة فاختصر منها الكثير. كف بصره في آخر عمره، وتوفي في مصر عام 711 هـ/1311 م.

وأما معجمه « لسان العرب» فيعدّ من أضخم المعاجم العربية وأغزرها مادة، إذ بلغ عدد موادّه ثمانين ألف مادة، مع شواهد كثيرة، وأخبار،

وأشعار، جعلته موسوعة مختلفة الألوان، وحظي على مدى الأيام بتقدير العلماء وثقتهم، وإن كان لا يخلو أيضاً من بعض المآخذ.

ويقول صاحب (اللسان) في مقدمة معجمه إنه اعتمد على خمسة معاجم أساسية، هي أمهات كتب اللغة :

1- «تهذيب اللغة »، لأبي منصور الأزهري.

2 - «المحكم والمحيط الأعظم» ، لأبي الحسن بن سِيدَهْ .

3 - « الصحاح » لأبي نصْر الجوهري.

4 - « التنبيه والإيضاح عما وقع في الصحاح ، المشهور بحاشية ابن برّي على الصحاح » لأبي محمد عبد الله بن بري المصري .

5 - «النهاية في غريب الحديث والأثر»، لأبي السّعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري.

ثم يلتفت إلى الجوهري وكتابه ، ليقول: «ورأيت أبا نصر إسماعيل بن حماد الجوهري قد أحسن ترتيب مختصره وشهّره بسهولة وضعه شهرةَ... فخفّ على الناس أمره وقرب عليهم مأخذه فتداولوه وتناقلوه ، غير أنه في جوّ اللغة كالذرة ، وفي بحرها كالقطرة، وإن كان في نحرها كالدرّة، وهو مع ذلك قد صحّف وحرّف...س. [20] وقد طبع «لسان العرب » مرارًا منذ سنة 1300هـ / 1882م، إلى اليوم.

3 - الفيروزابادي و (قاموسه المحيط) :

والفيروزابادي هو مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي الفيروزابادي. ويختصر اسمه إلى (المجد). ولد في

(كارزين) أجمل مدن (شيراز) ، سنة 729هـ/1328م. كان عجيب الحفظ، وقد قال عن نفسه أنه (لا ينام حتى يحفظ مائتي سطر كل يوم). حفظ القرآن الكريم وهو في السابعة من عمره. اشتهر بنسبته إلى مدينة (فيروزأباد) موطن أبيه وجده. سافر في طلب العلم إلى بلاد كثيرة منها الشام ومصر وبلاد الروم والهند ، وتتلمذ على علماء كبار حتى صار إماما ومرجع عصره في اللغة والأدب والحديث والتفسير، وكان محبا للأسفار وطلب العلم، ولا يسافر إلا ومعه عدة أحمال ينظر فيها إذا نزل، ويحملها إذا رحل. وقصده طلاب العلم من جميع بلاد المسلمين، ينهلون من علمه الغزير، ومعرفته الواسعة. وله مؤلفات كثير منها : (الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف)...، وأشهرها معجمه (القاموس المحيط). عاش المؤلف حياة حافلة بالعلم ، وتوفي في مدينة (زَبِيد) باليمن ، سنة 817هـ /1414 م.

ويعدّ الرجل أشهر تلاميذ الجوهري، ومعجمه (القاموس) أشهر المعاجم التراثية اللغوية العامة التي سارت على درب الصحاح، وانتهجت سبيله في التبويب والترتيب على الإطلاق، وأكثرها رواجا وإقبالا عبر تاريخ الدرس اللغوي العربي منذ العصور الوسطى إلى اليوم.

ويبدو أنه أراد من تأليف معجمه (القاموس) أن يغُضّ من إكبار الناس للصحاح وصرْفهم عنه بأن يصنع لهم ما يفوقه علما ونظما، أو يبدع لهم ما ينافسه ويظهر عجزه وقلة بضاعته غير أنه لم يستطع أن يبتكر سبيلا جديدة، فاتبع خطاه ونسج على منواله في الترتيب والمنهج، بل وأخذ عنه كثيرا من المادة المعجمية كما هي.

وكان قد فكّر في بداية الأمر أن يصنع معجما ضخما ، قدّر له نحو ستّين جزءاً ، كي يتفوّق به على منافسه (الجوهري)، ويتظاهر عنه، إرضاء لنزعة الاعتداد بالنفس وحب الغلبة ، ولم يستطع أن يخفي تحامله على الجوهري، والغمز في قناته ، فصدح بالقول : « ولما رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهري- وهو جديرٌ بذلك، غير أنه فاته نصف اللغة أو أكثر؛ إما بإهمال المادة، أو بترك المعاني الغريبة النادّرة - أردت أن يظهر للناظر باديَ بدءٍ فضلُ كتابي هذا عليه، فكتبت بالحمرة المادة المهملة لديه» .[21]

وشرع في البداية يؤلف معجما أسماه « اللامع المُعْلَم العجاب، الجامع بين المحكم والعباب» ، ثم عدل عن المشروع إلى اختصار كل ذلك في كتابٍ محذوف الشواهد، مطروح الزوائد، مُعْرباً عن الفُصَح والشوارد ، وأسماه « القاموس المحيط » .

وطار صيت المعجم هذا، وشاع ذكره على كل لسان، حتى طغى اسمه على ما سواه، وحسب الناس لفظي (القاموس) و(المعجم) مترادفين، بل حل لفظ القاموس محل كل لفظ سواه للدلالة على المعجم، بوجه عام، لكثرة تداوله وسعة انتشاره، بل نجد من طلاب اللغة وشواردها في عصره من كان يتباهى بحفظ مادته المعجمية ، ويفاخر بذلك أقرانه.

وطريقة البحث فيه (القاموس المحيط) اقتفت أثر (الصحاح) في الوضوح والبساطة وقد لخصها قول الناظم:

إذا رمت في القاموس كشفا للفظة فآخرها للباب والبدء للفصل

ولا تعتبر في بدئها وآخرها مزيدا ولكن اعتبارك بالأصل .[22]

4 - الزَّبِيدِي و (تاجه) :

الزَّبِيدِيُّ هو السيد مرتضى بن محمد بن محمد بن محمد الزبيديّ (بفتح الزاي وكسر بعدها)، نسبة إلى مدينة زَبِيد، وهو بالتأكيد ليس الزُّبَيْدِيّ ، (بضم الزاي وفتح الباء العالم الأندلسي) ومختصر معجم العين . ولد عام 1145 هـ / 1732م ، في بلجرام (بلدة بالهند) ، ونشأ في زَبِيد باليمن. رحل إلى الحجاز، وأقام بمصر وتوفي بها، بسبب وباء الطاعون الذي اجتاح مصر. وتوفي صاحب (التاج) عام 1205 هـ / 1790م.

والزَّبِيدِيّ عالم جليل، وشيخ ضليع في علوم الحديث واللغة العربية والأنساب ...، وهو من كبار المصنفين في عصره. خلف حوالي (107) أعمال أدبية، بين رسالة وكتاب. أهمها وأضخمها معجمه المسمى «تاج العروس من جواهر القاموس» [23] .

و(التاج) هو من أعظم كتب التراث العربي، وأهمها شأنا في اللغة العربية. وهو في أصله شرح لمعجم القاموس المحيط، قد رتبه المؤلف بحسب الحرف الأخير من المادة على حروف الهجاء؛ أي على طريقة الصحاح للجوهري.

يضع مؤلفه مادة القاموس بين قوسين، والشرح خارجهما. وهو مع ذلك يضمّ إلى صميم اللغة أمشاجا من التراجم والبلدانيّات، والمصطلحَات المولّدَة، ويهتمّ بالشواهد، ويُعنى باللهجات ودلالات التراكيب. وتأتي أهمية المعجم من أن المؤلِّف أثبت فيه الألفاظ العامية التي كانت سائدة في عصره، وهو ما يعطي قدرة لدارسي تلك الفترة على تبيُّن ملامح الحياة الشعبية في البلدان العديدة التي اطلع على ثقافاتها.

وإذا كان «الفيروزأبادي» قد اختصر كتابه بكيفية يراها هو لغرض تربويّ لم يصرّح به، ووجّه عناية كبيرة إلى استيعاب أكبر عدد ممكن من ألفاظ اللغة وجعلها في أقلّ عدد ممكن من المجلّدات، فإن الزَّبِيدِيّ قد وجد«القاموسَ» متْناً، فأقام عليه شرحاً موسَّعا في«التاج». إذْ أرجع بعض الأقوال إلى رواتِها ٱلأُوَل ، وأضاف ذكر الرواة اللغويين فتمكّن من الكشف عن المراجع التي نقل عنها قبله «ليردّ في بعض الأحيان الاقتباس إلى مصدره الأصلي »[24] . وبذلك صار أكبر المعاجم اللغوية العربية وأغناها محتوى بما تضمّن من شروح مطوّلة، مستعينا بأكثر من مائة وعشرين كتابا من أمهات الكتب.

ويعدّ هذا المعجم آخر المدّ المعجمي- على رأي بعض المستشرقين- ، وبعده توقّف تماما إنتاج المعاجم العربية لما يقرب من قرن من الزمان ، وهي المدة التي صفق خلالها باب مصنع المعاجم إلى أن فتح في بداية العصر الحديث على يد علماء العربية اللبنانيين بظهور معجم « محيط المحيط » على يد المعلم بطرس البستاني عام 1870م، والذي يعتبر أول معجم لغوي عربي ولد في مطلع العصر الحديث.

والزبيدي ممن أطرى (الصحاح) وأثنى على صاحبه، فقال: « وأول هذه المصنفات وأعلاها عند ذوي البراعة وأغلاها كتاب الصحاح للإمام الحجة أبي منصور الجوهري ، وهو عندي في ثمان مجلدات بخط ياقوت الرومي، وعلى هوامشه التقييدات النافعة لأبي محمد بن بري، وأبي زكريا التبريزي » .[25]

كما يذكر الزبيدي بعدها أنه قد جمع مادته المعجميّة مما يقرب من مائة وعشرين كتاباً من بينها المعاجم السابقة، كالجمهرة، والتهذيب، والمحكم، والصِّحَاح، والمجمل، ولسان العرب، والتكملة وأساس البلاغة ...، وغيرها، موضحاً في مقدمته أنّ عمله قد اقتصر في كتابه (تاج العروس) على جمع ما تفرّق في هذه الكتب، إذ قال: « وجمعت منها في هذا الشرح ما تفرّق وقرنت بين ما غرّب منها وبين ما شرّق، ... وليس لي في هذا الشرح فضيلةٌ سوى أنني جمعت فيه ما تفرّق في تلك الكتبِ ».

وتولي المؤسساتُ العلميةُ في البلاد العربية مثلَ هذه المعاجم التراثية الخالدة عناية خاصة. وقد علمتُ أنه «على مدى يومين احتفل المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت بانتهاء تحقيق وطباعة معجم »تاج العروس« كاملا والذي جاء في أربعين جزءا... بمشاركة 25 عالما لغويا وباحثا ومراجعا من كل أرجاء الوطن العربي... وأن تحقيق هذا العمل قد استغرق ما يقرب من 36 عاما ». [26]

3 /2 - كتب شهيرة حول (الصحاح) :

والمعجم أي معجم مهما علت قيمته وسمت مكانته في مجاله هو عرضة للتنقيح والجرح والتعديل والنقد، وتحبير الحواشي بالتذييل والتكميل، والاختيار والتلخيص... وهلم جرا. وكان (الصحاح) محورا لمثل هذه العوارض، إذ دارت حوله (دراسات) عبر العصور قديما وحديثا، وسنذكر بعضا منها لاحقا. ولا يقدح هذا الفعل في الكتاب ولا في صاحبه؛ بل هو – في نظرنا – ظاهرة لغوية صحية مطلوبة بإلحاح، على

اعتبار أن (اللسان الحي) في تطوّر وتغيّر مستمر...، وفقا لتطوّر الناطقين به، إن سلبا أو إيجابا. وكل جيل ينظر إليه من الزاوية النفعية الخالصة، يأخذ منه ما يحتاج للتعبير عن أغراضه، وليس من الغضاضة أبدا إن وجدنا من جاء بعد الجوهري يتم ما يراه نقصا، أو يصحّح خطأ، أو وهْما، أو استدراكا...، فبرزت ثمار كثيرة من اجتهادات العاملين في هذا الميدان، عبر الأزمان والأوطان، وأعطت (أكلها) بأسماء متباينة ، ومناهج مختلفة.

وهاك بعضا منها على سبيل التنوير:

1 – (التنبيه والإيضاح عما وقع في الصحاح)، لأبي محمد عبد الله بن برّي المصري، (ت 582هـ/1186 م)، ويعرف الكتاب بين الناس باسم «حواشي ابن بري على الصحاح ». وأصلها استدراكات مسهبة، تجاوز المؤلف فيها ما وَهم فيه الجوهري إلى التوسع في شرح الشواهد ، أو تفصيل المسائل اللغوية الصرفية والنحوية المتعلقة بها ، وربما ذهب أبعد من ذلك ليصل إلى قضايا الشعر والشواهد؛ كنسبة الشاهد إلى قائله، عندما يغيب علمه عن الجوهريّ. نشر هذا الكتاب بتحقيق مصطفى حجازي، عن دار الكتب المصرية لأول مرة سنة 1980م ، في مجلدين.

2 – (تهذيب الصحاح) ، لأبي المناقب، أو أبي الثناء محمود بن أحمد بن محمود الزنجاني الشافعي. كان المؤلف فقيها شافعيا مفتيا، اشتغل مدرسا في نظامية بغداد ، وقتل سنة 656هـ /1258 م ، بسيوف التتار عند دخولهم بغداد. أدّت عملية التهذيب إلى اختصار مواد الصحاح إلى ما يقارب ثلث الأصل. وقد حققه عبد السلام هارون و أحمد عطار، وعني

بنشره محمد الضبان، في دار المعارف بمصر، سنة 1953م، وظهر في ثلاثة أجزاء على ترتيب الصحاح نفسه. وقام لاحقا محمود خاطر بإعادة ترتيبه حسب ترتيب المعاجم الحديثة، ليطبع سنة 1907 م، منقحا ومحذوفة منه كل الكلمات النابية التي لا ترضاها الأذواق والأسماع.

3 – **(مختار الصحاح)**، للشيخ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، المتوفى عام 760هـ/ 1349 م. بلغت مادته ما يقارب عُشر ما في الصحاح، ولذا كان مختصراً جداً . واقتصر المؤلف في انتخابه للألفاظ على ما رآه ضروريا لكل عالم فقيه، أو حافظ، أو محدث، أو أديب...، معتمدا ظاهرة كثرة الاستعمال وجريانها على الألسن، خصوصاً ما تعلّق بألفاظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وتجنب غريب اللغة وعويصها.

وظهرت طبعته أول مرة عام 1325هـ/ 1907م ، ثم تعددت طبعاته في بلاد الشام ومصر، بإثبات ما حذف منه تارة، والعودة إلى الحذف تارة أخرى.

4 – **(نفوذ السهم فيما وقع للجوهري من الوهم)** ، وكتاب (غوامض الصحاح) وكلاهما من تأليف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (نسبة إلى مدينة صفد بفلسطين) ، المتوفى عام 764 هـ/ 1362 م.

و« نفوذ السهم» هذا كتاب قد تخصص في تحديد أوهام الجوهري وعثراته، ولم يتجاوز ذلك، وقد استخلصه المؤلف من تعليقات علماء كُثُر، وزاد عليه فوائد أدبية واستدراكات حسنة كثيرة انفرد بها، وقد اعتمد ما هو شائع من (فنون القول) ، عند فصحاء العرب، مستعينا

بأمهات المعاجم. نُشِر حديثا بإصدار دار البشائر الإسلامية، بيروت ، بتحقيق الأستاذ محمد عايش.

وأما كتاب (غوامض الصحاح) فهو من كتُبه التي وصلت إلينا تامة بخطّ مؤلفها. تم تحقيقُه ونشرُه من قبل معهد المخطوطات العربية بالكويت عام 1985م ، وأعيد نشرُه في (مكتبة لبنان ـ ناشرون) عام 1996م.

وفي العصر الحديث ظهرت مؤلفات أخرى تدور في فلك صحاح الجوهري وتوابعه، وقد اجتهدتْ في ترقية المادة وتنقيتها وتكميلها، وإعادة تنضيدها، كمثل:

1 - **(المختار من صحاح اللغة)** ، لمحمد محيي الدين عبد الحميد، ومحمد عبد اللطيف السبكي، وقد أضافا إلى مختار الصحاح (السابق الذكر) زيادات، مع المحافظة على الأصل، ووضع زياداتهم بين أقواس لتمييزها عنه. طبع عدة مرات ابتداء من سنة 1353هـ = 1934م.

2 - **(إيضاح مختار الصحاح)** ، لنديم المرعشلي ، وأسامة المرعشلي، وعادل المرعشلي. وهو إحياء لمختار الصحاح على طريقة متكاملة تقوم على إكمال الآيات القرآنية وتخريج الأحاديث النبوية وإتمام الأبيات الشعرية مع شرح ما يعسر فهمه من ذلك كله. نشر سنة 1997م.

3- **(الصحاح في اللغة والعلوم)**، لنديم مرعشلي وآخرين، وفي أواخر القرن الماضي ظهرت طبعة حديثة تنسب إلى منهج الصحاح وتعزى إليه. وتطمح إلى تجديد صحاح العلامة الجوهري، باعتماد معالجة حديثة متطورة كإدخال الجديد من المصطلحات العلمية والفنية التي تمخضت عن الدراسات العلمية الجادة للمجامع والجامعات العربية. مع إعادة

ترتيب المادة المعجمية على أوائل الأصول بدلاً من أواخرها. وصدر الكتاب عن دار الحضارة العربية، بيروت 1974, في مجلدين.

4 - الجوهري و (صحاحُه) في الميزان :

قامت شهرة معجم الصحاح وصاحبه على عوامل كثيرة داخلية وخارجية، جعلت منهما مضرب المثل، ومحور العناية بالدرس والتمحيص والتدقيق والتحقيق والنقد والإطراء والتجريح. وكأي عمل إنساني مهما علت قيمته وارتفعت سمته فإن فيه ما يقال ويردّ عليه، وما ذلك بضائر له، فحسنات الإمام الجوهري العلمية والفنية قد أثقلت ميزانه، وتفرده عن الكثير من السابقين واللاحقين بمزايا قلما تجد لها مثيلا عند غيره، مثل :

1 – نزوع النفس إلى البحث عن الجديد في مواقعه، واحتمال المتاعب في سبيل تحقيق مآربه، وتكلّف مشقة البحث عن المعلومات الأصيلة في مظانها، والصبر على متاعبها، وساعده في ذلك علوُّ الهمّة، وما يمتلكه من فطنة وذكاء ورجاحة العقل ، ونشأة في وسط علمي وأدبي زاخر.

2 – حقق الجوهري ثنائية إبداعية تتمثل في النظر في صحيح اللغة وتقصير البحث فيه، وذلك بخلاف سابقيه. وابتكار منهج القافية في ترتيب مواد المعجم وترسيمه تيسيرا للباحثين.

3 – الابتعاد عن التعقيد الذي عرفه منهج الخليل، ذلك الذي استمرّ ما يقارب ثلاثة قرون (من القرن 2 إلى القرن 4 الهجري).

4 – الحرص على الدقة العلمية والابتعاد عن التحريف والتصحيف بضبط الكلمات بلسان القلم.

5 – نهاية الجوهري علامة مسجَّلة :

لقد كان (معجم الصحاح) أهمّ عامل في بناء مجد الجوهريّ العريض، إلا أنه كان بالمقابل سببا لتعاسة صاحبه، فقد قيل أنه لما صنّف الصحاح سمع عليه إلى باب الضاد المعجمة، ثم أصيب بعد ذلك بمرض نفسي (الوسواس) واشتدّت عليه الأزمة، فصوّرت له أوهامُه أن يحلقَ في الفضاء مع الطيور والنسور، فتنقَّل إلى الجامع القديم بنيسابور، وصعد سطحه، ثم قال: «أيها الناس، إني قد عملتُ في الدنيا شيئاً لم أسبق إليه، وسأعملُ للآخرة أمراً لم أسبقْ إليه » ، وضمّ إلى جنبيه مصراعي بَابَيْن وتأبَّطهما ، وزعم أنه يطير، فوقع ميِّتا شهيد الفكر والإبداع.

واختلفوا في سنة وفاته، كما اختلفوا في المكان الذي صعده، أهو سطح بيته، أم سطح مسجد، والراجح أنه توفي في حدود سنة 400هـ/1009م. والله أعلم.

وفي الختام ...، نقول: يا حبذا لو تتكفَّل المؤسسات العربية ذات القدرة العلمية والمادية في هذه البلاد الشاسعة بإحياء مثل هذه المناسبات الطيبة حتى يتعرّفَ طلابنا من أبناء هذه الأجيال الشابة على تراث الأجداد وما صنعوا من مفاخر لهذه الأمة المجيدة ، فلعلّ بهذا الفعل الخلاق تحي القلوب ويعتبر الألباب ، والله من وراء القصد.

مصادر البحث ومراجعه

1 -ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية بيروت. ط2 ، ج4.

2 -ابن جني، عثمان الموصلي، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط2. ج1.

3 -ابنُ حُوَيْلي ميدني، المعجم اللغوي العربي من النشأة إلى الاكتمال ، طبعة دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر 2003.

4 -ابنُ حُوَيْلي ميدني ، المعجمية العربية في ضوء البحث اللساني والنظريات التربوية الحديثة. (مخطوط) تحت الطبع.

5 - ابن خلدون، المقدّمة. تح / علي عبد الواحد وافي. ط2 / لجنة البيان العربي بيروت. 1968.

6 -ابن مضاء القرطبي، الردّ على النحاة ، حققه شوقي ضيف ، وطبعته دار المعارف بالقاهرة ، ج م ع . ط2 .

7 -ابن منظور، لسان العرب ، تحقيق عامر أحمد حيدر وعبد المنعم خليل إبراهيم ، دار الكتب العلمية بيروت، ط1 / 2003م، ج1 .

8 ـ إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي بمصر، 1956, ج 1 .

9 - جريدة (أخبار الأدب)، وهي فرع عن شبكة (أخبار اليوم المصرية)، العدد 429, ليوم 17 فبراير 2002م.

10- دي سوسور، محاضَرات في الألسنيّة العامّة. ترجمة يوسف غازي، ومجيد النصر. منشورات المؤسسة الجزائرية للطباعة 1986م .

11- الزبيدي، مرتضى ، تاج العروس من جواهر القاموس ، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، ط1/1306هـ. المجلد 35 .

12- السبكي، تاج الدين ، طبقات الشافعية الكبرى، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، 1413هـ/ 1992م، ج4.

13- السيوطي، جلال الدين ، بغية الوُعَاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر، ط2/1979م، ج1.

14- محمد العلمي، العروض والقافية، دراسة في التأسيس والاستدراك ، دار الثقافة ، الدارالبيضاء ، المغرب.

16ـ عبد الله درويش، المعاجم العربية مع اعتناء خاص بمعجم العين للخليل بن أحمد، مكتبة الأنجلو- المصرية القاهرة 1956م .

17- عبد الغفور عطار، مقدمة الصحاح، ج1.

18- الفيروزأبادي ، القاموس المحيط ، للفيروزآبادي ، دار الكتاب العربي بيروت ، (د.ت) . مقدمة.

19- ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، مكتبة عيسى البابي الحلبي، د.تا، ج5.

20- ياقوت الحموي، معجم البلدان ، دار صادر بيروت ، 1957م ، ج5.

الهوامش:

1 - معجم الصحاح ، قاموس عربي- عربي .تأليف إسماعيل بن حمّاد الجوهري. تحقيق خليل مأمون شيحا. الناشر، دار المعرفة للطباعة والنشر. تاريخ النشر2005/08/01 .

2 - ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر بيروت، 1957م، ج5, ص 331

3 - المصدر نفسه ، ج4 ، ص 332

4 - هو الوزير الصالح أبو علي حسن بن علي بن إسحاق الطوسي ، يعد من أهم الرموز التاريخية . بذل جهودًا مضنية لخدمة الشريعة الإسلامية، والمحافظة على المذهب السني. عني به أبوه فحفّظه القرآن وعلّمه المذهب الشافعي، وغرس فيه الأخلاق الفاضلة والخلال الكريمة فشب في غاية الفطنة والذكاء والحكمة والعقل، والقدرة على تصريف الأمور، والكياسة وحسن السياسة ، قال ابن الأثير في وصفه: «إنه كان عالمًا ديّنًا، وجوادًا عادلاً حليمًا، كثير الصفح عن المذنبين، طويل الصمت، كان مجلسه عامرًا بالقراء، والفقهاء، وأئمة المسلمين، وأهل الخير والصلاح» .

(انظر الكامل في التاريخ، لابن الأثير، (ج4/ ص341 وما بعدها).

تولّى نظام الملك الوزارة، فكان زمانه مرحلة جديدة من مراحل عزة الإسلام ونهضة الأمة، وكان هو نفسه يبدي اهتماما منقطع النظير بالعلماء والفقهاء والأدباء ، يعرف قدرهم ، ويثّمن دورهم غاليا في رفع هامة الأمة وعزتها أمام الأمم المتحضرة، لا يتردد في فعل ما يستوجب تحضير العقول وتربية النشء ، ولأجلذلك أسّس نظاميات (مدارس) كثيرة ومتميزة ، في حاضرة الخلافة الإسلامية، وكان من أجلها (نظامية) بغداد التي تأسست عام 457هـ/ 1064م، على نهر دجلة، وبنى حولها أوقافًا لتمويلها، وأقام بها عديدًا من المرافق والخدمات؛ لتشجيع الطلاب على الدراسة فيها . قتل غدرا يوم الخميس في العاشر من شهر رمضان عام 485هـ/ 1092م. (انظر قصة اغتياله في طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، ج4, ص185 وما بعدها).

5-هي مدينة فاراب، أو «باراب» كما ينطقها الأتراك، وهي ولاية في حوض نهر سيرداريا في بلاد ما وراء النهر. منطقة سبخة، لكن بها حقول ومزارع.

6-هو أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة، الوزير المشهور توفي 328هـ/ 939م. نبغ في الخط العربي وبلغ مرتبة عالية في فنه إلى أن انتهت إليه جودة الخط وحسن تحريره. وضع القواعد المهمة في تطوير الخط العربي وقياس أبعاده وأوضاعه، ويعتبر المؤسس الأول لقاعدتي الثلث والنسخ، وعلى طريقته سار الخطّاطون من بعده.

7-راجع ترجمة الجوهري في " بُغية الوُعَاة في طبقات اللغويين والنحاة " للسيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط2/1979م، ج1, ص446 ـ 448. رقم الترجمة 913 . وفي " معجم

الأدباء " لياقوت الحموي، مكتبة عيسى البابي الحلبي، د.تا، ج5, ص 151, وما بعدها.

8 ـ انظر كتاب ابن مضاء القرطبي، المعروف باسم «الرد على النحاة»، حققه المرحوم شوقي ضيف، وطبعته دار المعارف بالقاهرة، ج م ع، ط2.

9-راجع محمد العلمي في كتابه " العروض والقافية " دراسة في التأسيس والاستدراك ، دار الثقافة ، الدارالبيضاء ، المغرب. الصفحات 238 – 254 ، ويذكر المؤلف أنه وجد لكتاب (عروض الورقة) نسخة مخطوطة ، محفوظة بالخزانة العامة بالرباط ، تحت رقم 930.

10-إسماعيل بن حمّاد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي بمصر، 1956, ج 1 ، ص 33.

11-ينظرُ كتابنا " المعجميّة العربية في ضوء البحث اللساني والنظريات التربوية الحديثة " . ط/ دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر 2009م.

12-ابن جني ، الخصائص ، ج1, ص 314

13- ابن خلدون ، المقدّمة. تح / علي عبد الواحد وافي. ط2 / لجنة البيان العربي بيروت. 1968.ج 4. ص 1345. وابن خلدون هو أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون. مؤرّخ وفيلسوف اجتماعيّ عربي. ولد بتونس عام 1332م ، ونشأ فيها. أقام في تلمسان ثم انتقل إلى مصر حيث تولّى قضاء المالكية. توفي بالقاهرة عام 1406 م.

14- دي سوسور، محاضَرات في الألسنيّة العامّة. ترجمة يوسف غازي، ومجيد النصر. منشورات المؤسسة الجزائرية للطباعة 1986م . ص 20 .

وفيرديناند دي سوسور (Firdinand de saussure) لسانيّ من أصل سويسري ، ولد في جنيف 1857م ودرس بها، ثم في ليبزيغ (Leipzig). وكان أول كتبه " مُذكّرة على نظام حروف العلّة في الألسن الهندية – الأوروبية " ...

Mémoire sur le système des voyelles dans les langues Indo- européennes

15- عبد الغفور عطار ، مقدمة الصحاح ، ج1, ص38

16-راجع كتابنا " المعجم اللغوي العربي من النشأة إلى الاكتمال " ، طبعة دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر 2003 ، ص 58 76 -

17-عبد الغفور عطار، مقدمة معجم الصحاح.

18- يراجع تاج اللغة وصحاح العربية، (مصدر سابق) ، ج 1, ص 33.

19 - مرتضى الزَّبيدِيّ، تاج العروس، المجلد 35 ، ص 308

20-ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عامر أحمد حيدر وعبد المنعم خليل إبراهيم ، دار الكتب العلمية

بيروت ، ط1 / 2003م ج1, ص 6 ، وما بعدها.

21- انظر مقدمة القاموس المحيط ، للفيروزآبادي ، دار الكتاب العربي بيروت ، (د.ت) .ص 03

22-المصدر نفسه، ج1, ص8

23-لم أعثُر في المصادر التي بين يديَّ على زمن واضح يؤرّخ لظهور هذا المعجم في الساحة التربوية.

24- عبد الله درويش، المعاجم العربية مع اعتناء خاص بمعجم العين للخليل بن أحمد، مكتبة الأنجلو – المصرية القاهرة 1956م . ص 109

25- انظر تاج العروس من جواهر القاموس، منشورات دار مكتبة الحياة بيزوت، ط1/1306هـ، ص 03

26- راجع جريدة (أخبار الأدب)، وهي فرع عن شبكة (أخبار اليوم المصرية)، العدد 429, ليوم17 فبراير .

مجمع اللغة العربيّة في رحلته مع التراث

د. نزار أباظة

مجمع اللغة العربية- سوريا

الحديث عن التراث وأخباره حديث شائق ذو شجون، خصوصاً إن كان من خلال مؤسسة عريقة كمجمع اللغة العربية الذي دأب منذ تأسيسه عام 1919 على رعاية اللغة العربية والحفاظ عليها، فكانت له وظائف جلى أهمها ربط حاضر الأمة بغابرها من خلال وضع المصطلحات العربية لألفاظ الحضارة الحديثة، وتصحيح الأخطاء الشائعة على الألسن.

وأسبقية مجمع دمشق من بين المجامع العربية معروفة في هذا المجال غنية عن التعريف، سارع منذ قيام الدولة العربية في دمشق بعد انسحاب الأتراك إلى تعريب ما تحتاج الأمة إلى تعريبه في المجالات كلها فاضطلع بالمهمة على أحسن وجه.

ورأى من أولى مهامه رعاية كتب السلف وإخراجها من الظلمات إلى النور إخراجاً يعتز به كل باحث ويحرص عليه كل دارس ويتلهف إليه ذوو العلم والفضل الذين لا يزالون يتصلون بالمجمع من الشرق والغرب يتتبعون أعماله ويقتنون كتبه وإنتاجاته التي تربو يوماً بعد يوم.

وتراثنا العظيم الذي حفظت الأيام أقساماً منه قد تكون ضئيلة بالنسبة لحقيقته وحجمه ونوعه وبالنسبة لعظمة حضارتنا وأصالتها يحتاج إلى عناية فائقة وأياد خبيرة ذات دربة، فإنه لا يقتدر على التعامل معه كل من أحب ولا كل من رغب.. ومن كالمجمع في هذا المضمار؟ أنه جمع فأوعى، حفظ الأمانة وقام بالواجب المنوط به خير قيام وحقق الآمال المتعلقة به أحسن تحقيق.

وليس الكتاب الذي يطرحه المجمع بين الأيدي إلا ثمرة جهود طويلة متصلة لا تهدأ ونتيجة تعب مستمر لا يتوقف وخبرة أتى عليها حين من الدهر قد استحكم نابها واشتد عودها وقوي ساعدها.. فالمجمع لا يرضى عن الكتاب الذي ينشره إلا بعد تمحيص وتحقيق ولا يعجبه أن يمهره بخاتمه وشعاره إلا بعد لأي ومناقشة، مناقشة علمية مجمعية، فكان من الطبيعي أن تخصص من بين اللجان العديدة لجنة للتراث عرفت باسم (لجنة المخطوطات وإحياء التراث وهي ذات صلة وشيجة بلجنة أخرى قد تكون متممة لها هي (لجنة المطبوعات).

تتلقف لجنة المخطوطات وإحياء التراث ما يحال إليها من كتب محققة محلية يسعى بها أصحابها أو وافدة مع البريد من المشرق والمغرب. ومن خلال اجتماعات اللجنة يناقش الكتاب مناقشة متأنية ذات خط ومنهج فيقبل أو يرفض.. وقد يطلب من المحقق صورة عن أصل الكتاب المخطوط وقد يفرض عليه أن يعدل قسماً أو يستكمل شيئاً أو يطيل في مقدمته أو يختصر منها بحسب المقال ولكل مقام مقال.

والفكرة التي تستحوذ على القائمين بأمر المجمع عموماً، وعلى لجنة المخطوطات وإحياء التراث خصوصاً نقاوة العمل وجزالته وموافقته للروح المجمعية وللطريق الذي يسلكه المجمع كما أشرت آنفاً، وليس يضر بهذا أنه كان وراء بعض ما قبلته اللجنة رغبة في فتح الطريق أمام جيل جديد من المحققين ربما يكون له روح مختلفة ونسغ جديد.

نعرض فيما يأتي بعض ما أنتجه المجمع إذ لا يسعنا في مقال واحد أن نستوعب أعمالاً جليلة تمت خلال سنين طويلة وإنما هي صورة حديثة قد تعطي فكرة مجملة.

أول ما يمكن أن نتناوله بالحديث عن الإنتاجات التراثية المجمعية هو تاريخ مدينة دمشق[1] للحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر، ذلك التاريخ الذي دأب المجمع على تحقيقه وإخراجه منذ سنوات فأصدر أجزاء منه هي المجلدة الأولى وتتحدث عن فضائل دمشق وأصل اشتقاق تسمية الشام وتاريخ بناء هذه المدينة التاريخية ومعرفة من بناها والأحاديث الواردة فيها وأخبار ملوكها قبل الإسلام والسرايا التي أرسلها النبي إلى هاتيك النواحي ثم صدر القسم الأول من المجلدة الثانية ويضم خطط دمشق فيصف مسجدها الجامع ومساجدها الأخرى وأبوابها وقلعتها ومدارسها وميادينها وأسواقها وحماماتها وأنهارها وقنيها وطواحينها وبساتينها وكنائسها وأديرتها والقرى من حولها.

وقفز الكتاب مرة واحدة فخرج للناس منه المجلدة العاشرة التي تضم التراجم المبدوءة بحرف الباء والتاء والثاء، ثم قفز قفزة أخرى فطلع علينا

جزء يضم تراجم حرف العين المتلوة بالألف (عاصم -عايذ) وجزء مصور من النسخة المخطوطة يضم التراجم التي بين عبد الله بن عمران وعبد الله بن قيس الأشعري. وها هو ذا المجمع قد دفع للمطبعة جزأين يضمان تراجم العبادلة.

كما أنه لا يزال بصدد السعي الدؤوب والعمل الجاد في سبيل استكمال هذه الموسوعة التاريخية العظيمة التي تمتد في المكان امتداد بلاد الشام من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها، ثم تجاوز ذلك لتكون على امتداد الوطن الإسلامي والثقافة الإسلامية. وهي تنفسح اتساعاً في الزمان لتلمس أطرافاً من تاريخ الجاهلية، وتمضي لتكون تاريخاً للسيرة النبوية، والعصر الراشدي والأموي والعباسي والدويلات التي استقلت فيما بعد حتى وفاة ابن عساكر في أواخر القرن السادس الهجري سنة 571هـ.

وهي موسوعة تفهم التاريخ فهماً عميقاً فلا تقف عند الأحداث والوقائع وحدها بل تتناول روح التاريخ حينما تقدم المادة الأولية الغنية لرصد الحركة الحضارية ديناً وشريعة وثقافة وفكراً.

هذا ما دفع المجمع فتبنى نشر ذلك التاريخ العظيم الذي يعد بحق كنزاً من كنوز التراث نظر المجمعيون من خلاله إلى تجديد كتابة التاريخ العربي والإسلامي. ونحن نتلهف أن يمضي أولو الأمر قدماً بسعي حثيث لاستكمال هذه الموسوعة، وأن يستردفوا للعمل لفيفاً من الباحثين الخلَّص ليذللوا الصعوبات التي تعترض في الطريق، طريق كل غاية عظيمة وكيف لا يكون كذلك وأصل الكتاب المخطوط يقع في 800 جزء

وكل عشرة أجزاء تؤلف مجلدة واحدة فهو إذن في ثمانين مجلدة ضخمة، أفليس هو عملاً تنوء به العصبة أولو القوة من أصحاب الهمم الكبيرة فضلاً عن أن الكتاب لا يقاس بالصفحات بمقدار ما يحسب بالمضمون وبالمادة الغنية الصادرة عن رجل مليء علماً وعبقرية مثل الحافظ ابن عساكر.

ولقد اعتمد المشرفون على تحقيق تاريخ مدينة دمشق أصولاً مخطوطة فيها ما فيها من صعوبة ومشقة، إذ لم يكن بين الأصول أصل واحد كامل، وإنما تحصل لهم نسخ ناقصة وأجزاء شتى.

أقدم هذه النسخ مخطوطة الأزهر الشريف التي أنزلت من بين الأصول منزلة الأم ذلك أنها بخط ابن المؤلف القاسم بن علي العالم الحافظ الذي أخرج للناس كتاب أبيه مضبوطاً مجوداً. ثم نسخة بخط الحافظ البرزالي وهي مضطربة الأوراق.

وبحث المجمع عن أجزاء الكتاب في مكتبات العالم فكان أن تحصَّل لديه نسخة من المغرب ونسخة من مكتبة أحمد الثالث في استانبول وأجزاء متفرقة من تونس والهند ولندن وكامبردج وغيرها. هذا بالإضافة إلى نسختين دار الكتب الوطنية الظاهرية الأولى من وقف سليمان باشا العظم وهي أوسع من الثانية وأقل نقصاً، والثانية من وقف أسعد باشا على مدرسة والده اسماعيل باشا بالخياطين بدمشق وهي مأخوذة فيما يبدو من الأولى وفرع عنها.

طرح بعض أولي الرأي أن يطبع الأصل المخطوط طباعة تصويرية مشفوعة بمقدمات مناسبة متلوة بملاحظات ملائمة تفيد الدارسين

وتنفعهم نفعاً مختلفاً على قدر رسوخ أقدامهم في البحث والعلم والدراية، وربما كان هذا السبب في أن أصدر المجمع الجزء المصور الذي سأتحدث عنه بعد وعن مصورات المجمع.

أما طريقة التحقيق وأسلوبه فندعها قائلين إنه قد أعطيت القوس باريها..

* * *

ولئن كان أمر ابن عساكر قد ملأ المجمع وشغل المجمعيين فإنه زهرة وإن تكن فريدة في البستان الرحيب ففيه الكثير سواها والعديد غيرها متشابهاً وغير متشابه يفوح شذاه عابقاً ويتضوع عرفه فواحاً. إنه لابد من وقفة قصيرة تلقي نظرة متأملة على ذلك البستان النضير.

ولنبدأ بكتاب (المعاصرون) الذي صدر في السنة الفائتة للأستاذ الرئيس محمد كرد علي، ذلك الرجل الذي لا يزال فضله متجسداً حياً من خلال حياة المجمع وأعماله.. خلف الأستاذ الكبير كتابه «المعاصرون» جزازات متناثرة[2] بقيت عند أسرته ولما يفرغ بعد من تنقيحها وتحريرها حينما ألم به داعي المنون فلحق بربه مغفوراً له، ولكنها وإن كانت تحتاج إلى تنظيم وترتيب أنها كحبات اللؤلؤ الثمينة لا ينقصها سوى ناظم.

ترجم الأستاذ كرد علي في كتابه المعاصرون لطائفة ممن اتصلت أسبابه بأسبابهم من علماء البلاد العربية وأدبائها ومن المستشرقين، كان منهم من ربطته بهم صداقة راسخة وآخرون لقيهم خلال المؤتمرات والندوات العلمية وطائفة واصلهم عن طريق المراسلات والمكاتبات.

والكتاب غنم عظيم للمهتمين بتاريخ النهضة العربية وأعلامها خصوصاً أن التراجم فيه تنساب من تحت قلم سيال يمج مع المداد مدداً من العذوبة والبلاغة والصدق والأمانة، يعطي الرجال حقوقهم وينزلهم منازلهم ويقول فيهم ما يقول بصراحة غير ممجوجة ويمدح من يستحق المدح ببيان لا يشوبه التكلف ولا التعمل حتى ليغنيك في سطور معدودة عن كلام طويل.. يعطي فكرة عن أ هم النقاط في حياة صاحب الترجمة ويتحدث عن صفاته الخلقية وعن إنتاجه العلمي واهتماماته ثم يعرّج -إن كان شاعراً- على شاعريته فيرى فيها رأيه وينتقي من شعره، وهو بهذا موفق الاختيار يورد كل طريف.. فإذا به يشد القارئ إليه فيترنم معه ويطرب حتى جاء الكتاب نزهة أدبية يتسلى به إلى جانب الفائدة العلمية من أراد حين يسأم من متاعب يومه فيقضي مع الأستاذ الرئيس أوقاتاً ممتعة لطيفة.

وكتاب المعاصرون يذكرنا بكتاب شبيه له كان قد أخرجه المؤلف سنة 1950 وهو كنوز الأجداد وسار فيه على الخطة نفسها من حيث الترجمة والمنهج، إلا أن كنوز الأجداد تتناول أعلاماً غابرين وعلماء سابقين كابن قتيبة والجاحظ والحريري والأصبهاني في حين يصور الكتاب الأول مؤلفه وسط ثلة من أصحابه وأصدقائه ونظرائه.

على أن لـ «المعاصرون» ميزة هي الطراوة في التركيب والطلاوة في الأسلوب كأن صاحبه يتحدث إليك وقد وضع التكلف فجاء نفسه بسيطاً ولكن بساطته بساطة الأديب الذي استحكم أدبه فكان ملء

نفسه. وليس معنى هذا أننا ننفي لكنوز الأجداد تلك الحلاوة وهاتيك الطلاوة، كلا بل إنه يمتح فيه عن أسلوب آخر وعبارات أخرى وتراكيب تفرضها عليه تلك الشخصيات الخالدة.

× × ×

ومن الكتب التراثية اللطيفة التي أصدرها المجمع حديثاً كتاب القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية لمحمد بن طولون الصالحي حققه العلامة الشيخ أحمد محمد دهمان، وهو كما يشير اسمه يختص بصالحية دمشق فيتحدث عن بدء إنشائها بعد سنة 550 هجرية على أيدي المهاجرين الصالحين[3] الذين فروا من ظلم الإفرنج في فلسطين واستوطنوا سفوح قاسيون فعمروه وأسسوه على التقوى والعلم من أول يوم نزلوا. واستفاض حديث ابن طولون فوصف الصالحية وصفاً دقيقاً ذاكراً أنهارها وطبيعتها، مساجدها ومدارسها، أوقافها وجراياتها، زواياها وتربها، بساتينها ومنتوجاتها ولم يدع شيئاً يتصل بالصالحية من قريب أو بعيد إلا وذكره على أحسن وجه. ثم عرّج على علمائها فترجم لهم واحداً واحداً حتى أولئك الذين زاروا الصالحية في أيام معدودات وعبروا بها. وختم عمله ذاك بذكر أربعين حديثاً مسلسلة برواية علماء الصالحية الذين اشتهروا كثيراً بعلم الحديث وبرعوا فيه وأتقنوه مشايخ وشيخات.

تصدرت الكتاب مقدمة مطولة عن قاسيون ومكانته المقدسة وشرفه في الأمكنة وعن أولئك المهاجرين الصالحين ومعاناتهم في سبيل الحق والخير والعلم، وختم بفهارس مفصلة وافية.

* * *

وقبل القلائد طبع المجمع (تاريخ أبي زرعة) وهو سفر عظيم في التاريخ الإسلامي يقع في 1096 صفحة وتأتي أهميته في أنه أحد المصادر المهمة في التاريخ4 والرجال فضلاً عن أنه من أهم مصادر الحافظ ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق. صاحب المصنف عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله النصري أبو زرعة الدمشقي المتوفى سنة 281 هجرية، وهو من كبار العلماء المدققين. بدأ كتابه بذكر ما يتعلق بسيرة النبي (وتطرق إلى نسبه العريق وصفاته الكريمة ثم بذكر أزواجه وعددهن والخلاف في ذلك مع بعض أخبارهن وانتقل إلى سير الخلفاء الراشدين من بعده حتى إذا أتي إلى عصر بني أمية قدم لنا قائمة بأسماء الخلفاء وتاريخ خلافة كل منهم ومقدارها دون تفصيل إلا أنه توقف قليلاً عند عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. ثم قدم قائمة أخرى كاملة بأسماء الخلفاء العباسيين وتنتهي بهارون الرشيد المتوفى سنة 193هـ وهي مقتضبة وأكثر إيجازاً من التي قبلها، لا تتعدى ذكر اسم الخليفة وتاريخ خلافته ومدتها. ويبدو أن أبا زرعة يحب القوائم فهو يسلسل قائمة جديدة بقضاة مدينة دمشق منذ الفتح حتى نهاية القرن الثاني الهجري ويلحق بها قائمتين لقضاة فلسطين ولقضاة مرو وهما ناقصتان.

وهناك قوائم أخرى بأسماء الصحابة النقباء الأنصار وبأسماء الأعلام المعروفين بالكنى وبالعكس. وينتقل أبو زرعة إلى أخبار الصحابي عبد الله بن بسر المازني ثم يتحدث عن الوقائع التي جرت في الشام زمن

خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ويبين من توفي بالشام من الصحابة في ذلك الوقت ومن التابعين وتابعي التابعين مع ذكر وفيات بعض شيوخه.

في الكتاب معلومات حضارية قيمة ونصوص فريدة في مختلف الشؤون، إلا إنها متناثرة في صفحات الكتاب لا يجمعها رابط، كذكره بعض الوظائف في القرن الهجري الأول ولباس كثير من العلماء وأصول الرواية وعلاقة العلماء ببعضهم وغير ذلك. فهو كتاب قيم كما نرى يعتد به وتأتي أهميته من أنه يحوي معلومات فريدة في القرنين الأول والثاني الهجريين توضح بعض النواحي عن الحياة الثقافية والاجتماعية والإدارية آنذاك بالإضافة إلى ما ذكرنا ومع أن ما ورد في تاريخ أبي زرعة قد ورد في كتب أخرى إلا أن هذا التاريخ مصدر موثوق فضلاً عن أن تكرار هذه المعلومات يرفع من قيمتها لأنها تصبح بمنزلة الأخبار المتواترة التي يمكن القطع بصحتها.

ويمثل هذا التاريخ الأثر المهم الوحيد الباقي من آثار أبي زرعة الدمشقي، يحمل معلومات كثيرة تتعلق بمؤلفه وبعلماء الشام الذين أسهموا أيما إسهام في الحركة العلمية وخاصة في مجالات الحديث وعلم الرجال فليس بدعاً بعد هذا أن ينقل عنه علماء كثيرون ويقتبسوا من نوره. ويضم تاريخ أبي زرعة مجموعة كبيرة من الأسانيد تتجاوز خمسين ومائتين وألفي سند ولأول مرة يجتمع عندنا مثل هذا العدد من أسانيد الشاميين، ودراسة هذه الأسانيد تبين مكثري الروايات من مقليها وتدلنا على كبار العلماء والمحدثين والرواة من صغارهم.

* * *

من الكتب المهمة التي تؤثر للمجمع كتاب (شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف) لأبي أحمد الحسن ابن عبد الله العسكري، يدرك المتأمل فيه والمتصفح له أنه عمل امتلأ علماً وظرف حشي ظرفاً، يجمع إلى ضخامة الموضوع وفرة الشواهد.

صدر القسم الأول من هذا الكتاب ويضم في الأبواب الثلاثة الأولى[5] منه كلاماً في قبح التصحيف وبشاعته ونكده ومن ابتلي به ونوادر من التصحيف أضحكت من قائليها ثم يقسم العلماء المشهورين إلى طائفتين، بصرية وكوفية ويذكر أوهام كل عالم باسمه وما وقع فيه من أغلاط. ثم يتعرض لطائفة ثالثة تضم أقواماً شتى. وبعد ذلك يستعرض ما يمكن أن يصحف لشعراء معينين كامرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى وغيرهم مما جاء في كتاب الحماسة. حتى إذا استوفى هذا تناول ما يمكن أن يشكل من أيام العرب وأسماء الفرسان والأنساب والأماكن وغير ذلك.

حفلت مقدمة المحقق بأشياء كثيرة أولها ترجمة للمؤلف أبي أحمد العسكري مع ذكر لمؤلفاته التي بلغت اثني عشر مؤلفاً، وبعدها جرى الحديث عن تقسيم الناس إلى طبقات ثلاث: الجهلة والعوام والخواص، ولما بسط الكلام رأى أن الجهلة لا تستحق أية عناية أو محاولة للإصلاح فإن العلم كفيل بالقضاء عليها إذا تيسر لهم الحصول عليه، وأورد قول الجاحظ: وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم، ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا ثم

حدد معنى اصطلاح التصحيف عندما تعرض لذكر الخواص فقال: إلا أن هناك نوعاً آخر من الغلط والوهم يتعرض له العلماء والخواص من القراء والمحدثين وأصحاب الأخبار واللغة في محاضراتهم وحلقاتهم للتدريس والإملاء وقد اصطلح على تسميته التصحيف، ومنشؤه التباس الحروف وإهمال الضبط في الكتابة العربية بحيث لا يمكن لأحد مهما تقدم في العلم أن يعتمد على قراءاته في الصحف المكتوبة ويستغني عن السماع من أفواه الثقات.

ونقل المحقق عن حمزة الأصفهاني أن سبب وقوع التصحيف في كتابة العرب هو وجود حروف متشابهة في صورة واحدة هي الباء والتاء والثاء والياء والنون.

وبعد أن عرف التصحيف ناقلاً عن الخليل والمعري والجاحظ قال: إن الكلام في التصحيف لا يخلو منه أي كتاب في الأدب واللغة وتراجم البلغاء والنحاة وخص بالذكر ثلاثة كتب ألفت في هذا، ثانيها هذا الكتاب وقبله (التنبيه على حدوث التصحيف) لحمزة الأصفهاني المتوفى قبل سنة 360هـ وبعده (التصحيف في ما تلحن فيه الخاصة) لأبي هلال العسكري المتوفى سنة 395هـ.

فالكتاب كما نرى يتطرق لموضوع عظيم اهتم له المتقدمون من أصحاب اللغة والأدب خدمة للغة العربية المقدسة وهو موضوع لا يقتدر عليه إلا خواص الخواص ممن أنفقوا عمرهم في العلم والتعلم والضبط. ولئن تلقينا القسم الأول منه متلهفين فإنا على انتظار قسمه الثاني على مثل ذلك التلهف.

* * *

وعني المجمع خلال إخراجه لكتب التراث بالشعر فأصدر دواوين ومجموعات شعرية مختلفة ويبدو من خلال قائمة ما نشر أنه كان يريد إخراج النادر العزيز الذي غفلت عنه المؤسسات الثقافية أو المحققون فطبع مجموعات شعرية -وإن تكن قليلة- إلا أنها من الأهمية بمكان كشعر ابن هرمة القرشي آخر من يحتج بشعره من الشعراء وشعر دعبل بن علي الخزاعي وشعر الراعي النميري وشعر ابن أحمر الباهلي وغالب هذه الأشعار مبثوثة في كتب الأدب جمعها الجامعون وأخرجوها عملاً محققاً متقناً بعد عمل طويل.

إلى جانب الشعر المجموع دواوين توخى المجمع أنها تغني المكتبة العربية كديوان ذي الرمة وديوان ابن الخياط وديوان الخالديين وديوان ابن حيوس وديوان ابن عنين وديوان طرفة وديوان الصاحب الشرف الأنصاري وديوان ابن أبي حصينة وديوان الأبيوردي. واعترافاً من المجمع بفضل رئيسه الأسبق الأستاذ الشاعر المرحوم خليل مردم عمد إلى نشر ديوانه مع مقدمة تنوه به، وهاهو ذا اليوم يكرم أحد أعضائه البارزين فيدفع إلى المطبعة ديوان المرحوم شفيق جبري شاعر الشام مضيفاً إلى المكتبة الشعرية مجموعة لطيفة ممتعة.

وإلى جانب الأشعار والدواوين نوع ثالث من الشعر هو المجموعات الشعرية كمثل خريدة القصر والاختيارين، وكمثل شرح مفضليات الضبي التي يمكن أن تكون عملاً مشتركاً بين الاختيار الشعري واللغة.

أما خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني الكاتب فهي جمهرة أشعار حافلة[6] تضم شعراء العالم الإسلامي ولا تقتصر على العرب وتمتد في الزمان فيما بعد المائة الخامسة إلى سنة 572هـ. أنفق صاحبها في جمعها حقبة من الزمن طويلة واستعان عليها بأسفاره وصلاته ومكانته من السلطان فلقي العديد من العلماء والمحدثين والرواة ووقف على جملة جيدة من الدواوين واتصل بكثير من شعراء عصره وأدبائه فسمع منهم واستكتبهم.

تنقسم الخريدة إلى أربعة أقسام: قسم العراق، قسم العجم وفارس وخراسان، وقسم الشام، وقسم مصر وصقلية والمغرب وبلاد الأندلس. وهي لا تضم شعر الشعراء فحسب بل وشعر الكتاب والفقهاء والمحدثين وأبناء الأجناد، بل وتورد مختارات من النثر الذي يعبر عن أسلوب العصر.

وتأتي أهمية كتاب الاختيارين للأخفش الأصغر المتوفى سنة 315هـ من أنه كتاب مصطفى مختار من كتابين عظيمين أولهما (المفضليات) للضبي ذاك العالم الذي كلفه الخليفة أبو جعفر المنصور أن يختار أجود قصائد المقلين ليدرب بها ابنه ولي العهد المهدي ويعلمه رائع الشعر وخالصه، وثانيهما (الأصمعيات) للأصمعي قصائد انتقاها بإشارة منه فاختار له من عيون الشعر القديم... فهما كتابان عظيمان من صنعة عالمين كبيرين لتعليم طالبين يتهيئان ليكونا خليفتين يحكمان الدنيا وأي دنيا تلك التي كانت زمن المنصور والرشيد! وإذا جاء اختيار الأخفش

الأَصغر بعدئذ من هذين الكتابين الموجودين فهو اختيار لباب اللباب وصفوة الصفوة.

ولم تكن اختيارات الأخفش الأصغر تورد القصيد المقطعات دون عناية فلقد كان هم صاحبها أن يشرح الغامض من العبارات ويوضح العويص من الكلمات ويعلق على المبهمات فجاء كتاباً شعرياً لغوياً أدبياً وهذا ما يهتم به المجمع من خلال عنايته باللغة خاصة.

نوع أخير من كتب الشعر التي يهتم بها المجمع هو ذاك الشعر الذي يغلب عليه الغريب ككتاب تفسير أرجوزة أبي نواس في تقريظ الفضل بن الربيع للغوي العبقري ابن جني. كان هذا الكتاب قد طبع سنة 1966 ثم أعاد المجمع طباعته مؤخراً سنة 1980 بعد أن أعاد فيه محققه النظر على ضوء مخطوطة أخرى عثر عليها في المتحف البريطاني واعتماداً على مخطوطتي المدينة المنورة التي تشير إليهما مقدمة الكتاب.

والأرجوزة النواسية هذه ضرب لطيف مما حفل به تراثنا العظيم، وأبو نواس قد آثر فيها الغريب مجارياً رجز الأوائل القدماء. ومع أنها ليست بخير شعره إلا أنها من أجزل شعره الجاد وأشده إعرابية وأحفله بالغريب، وهذا ما حدا إمام اللغة ابن جني إلى الاهتمام بها وشرحها خصوصاً أنها كانت في عصر ابن جني بعض ما يتمرس به شداة اللغة من الشبان المثقفين لتستحكم به ملكاتهم وينمو حسهم اللغوي ويقوي لسانهم، إضافة إلى أن تفسير هذه القصيدة قد اشتمل على اللغة والإعراب والشعر والمعنى والنظير والعروض والتصريف والاشتقاق، وعلى شيء من علم القوافي. ومن هنا اعتنى بها عناية خاصة.

* * *

ولئن كانت الكتب المجمعية التراثية تنشعب ذاهبة في أكثر من طريق لتغطية علوم مختلفة وفنون متعددة من تاريخ ولغة وأدب وأصول ورحلات وجغرافية فإن مجلة المجمع هي بدورها تتحمل نصيبها في إحياء التراث والإسهام بنشره وتحقيقه ونقده. ففي تلك المجلة الغراء التي تصدر مع فصول السنة الأربعة ترى كل حين تحقيقاً لرسالة مخطوطة أو إشارة لمخطوط أو دراسة تراثية.. وربما ترى بين أعدادها قوائم لأسماء مخطوطات منثورة في بلدان العالم طالتها يد جوال عربي فبعث بها يبتغي إفادة الدارسين وعونهم.

فمما نشرته عن رسائل تراثية: أسماء مؤلفات ابن تيمية لابن قيم الجوزية، وتاريخ الخلفاء لمحمد بن يزيد وهو تاريخ مختصر جداً للسيرة النبوية والخلفاء الراشدين والأمويين وبعض العباسيين ويحفل على صغر حجمه بمعلومات غزيرة ملخصة، ورسالة بعنوان سؤال في يزيد بن معاوية لابن تيمية، وصحيفة همام بن منبه أقدم تدوين في الحديث النبوي وقرة العيون في أخبار باب جيرون لابن طولون الصالحي وغير ذلك كثير ولا تزال المجلة الأصيلة توالي نشر الكنوز ما تتابع صدورها، وتهتم بالتراث وتضعه في الصدر الأول من الأهمية.

* * *

ومن عناية مجمع اللغة العربية بالتراث الكريم أنه اهتم بالمخطوطات النفيسة التي تحتوي عليها دار الكتب الوطنية الظاهرية، فصنع لها فهارس مخطوطات بحسب أنواعها المختلفة. ومن هنا كثرت كتب الفهارس

المختصة التي نيف عددها على خمسة عشر فهرساً لمخطوطات القرآن الكريم والحديث الشريف والتاريخ والجغرافيا وعلم الهيئة والفقه الشافعي والحنفي والتصوف والشعر والرياضيات والفلسفة وعلم العربية بفنونه المختلفة. بل ونشر أسماء بعض المخطوطات في غير مدينة دمشق كالمنتخب من مخطوطات المدينة المنورة، وقسماً مما في بعض مكتبات إنكلترة وغيرها مما طالته أيدي الباحثين. ولئن بقي بعض من المخطوطات في الظاهرية لم يفهرس في كتب، إن النية عازمة على استكمال ذلك.

سارت هذه الفهارس على خطة سديدة تغني الباحث وتنفعه ولو كان بعيداً قصياً فهي تتناول كل مخطوط فتصف شكله وحجمه وقياسه وتذكر عدد أوراقه وعدد السطور في كل ورقة وتورد بعض جمل من مبتدئه ومنتهاه وتشير إلى أسماء الناسخين والتملكات التي عليه ثم تذكر رقمه وغير ذلك مما يراه المفهرس مفيداً ومما ينسجم مع الخطة العامة التي تسير عليها لجنة المخطوطات وإحياء التراث لتكون أعمال الفهرسة كلها على نسق واحد، منطبعة بطابع واحد. لا يعني هذا أنك لن ترى خلافاً في العمل، إن الفروق الفردية سمة الله في خلقه ولابد أن تكون.

إنها لفتة كريمة تحمد للمجمع وتؤكد حرصه على تعميم الفائدة من المخطوطات وإيصالها إلى كل يد ذات نفع وعطاء نفعاً للعلم وخدمة له وقياماً بالأمانة الملقاة عليه والتي حملها فأحسن حملها وأداها فأتقن أداءها، وإلا لكانت موءودة على الرفوف ليست في عالم الأحياء.

* * *

ومن اهتمام المجمع بالتراث أنه عمد إلى تصوير بعض المخطوطات كما هي وإخراجها مصدرة بمقدمة دون تحقيق. كان ذلك تجربة لها ما يبررها، وقد أشرت عند الكلام على ابن عساكر إلى مصورة جزء من تاريخ مدينة دمشق (من عبد الله بن عمران إلى عبد الله بن قيس الأشعري) وقد ذكر في المقدمة الأسباب التي دفعت القائمين على شؤون المجمع إلى نشر المصورات: «ويرجو المجمع وهو يلبي الحاجة الماسة إلى تداول كتب التراث أن يكون هذا الأسلوب في النشر سبباً من أسباب الإقبال على التحقيق وتيسير وسائله بين أيدي المهتمين بالثقافة العربية دراسة وتحقيقاً، وهو بعد ذلك وسيلة من أفضل الوسائل للتعرف إلى طريقة الكتابة العربية وما التزمه المؤلفون والنساخ العرب في مؤلفاتهم وكتبهم من ضروب النقط والشكل لضبط النصوص وسلامتها من التحريف والتصحيف مما يمهد أمام الناشئة العربية صلة بكتب التراث أوثق وأشمل»[7].

وكان المجمع قد أصدر من قبل مصورة عن مخطوطة الجزء الأول من ديوان الفرزدق تمهد لها مقدمة رصينة تصفها وتنبئ بجليل شأنها[8]. كان ذاك أول عمل تصويري للمجمع أتقن إخراجه وأولاه اهتماماً خاصاً. ثم سكت عن التصوير حتى كان الاحتفال بذكرى مرور مائة عام على ولادة محمد كرد علي فطرحت بين الأيدي بهذه المناسبة مصورات على المجلد الأول والثاني والعشرين من مجلة المجمع التي بلغ عدد مجلداتها إلى اليوم ستة وخمسين مجلداً، وما هذا إلا دعماً لفكرة التصوير وميلاً

في تحقيق رغبة الكثيرين الذين يبتغون اقتناء المجلة التي نفد الكثير من أعدادها.

وآخر ما نشر المجمع على طريقة التصوير مخطوطة قاموس الأطبا وناموس الألبا في جزأين لمدين بن عبد الرحمن القوصوني المصري سار فيه على حروف المعجم وتعرض لذكر كثير من الأمراض والنباتات والمواد التي تفيد في العلاجات وغير ذلك، والخط الذي كتب فيه الجزء الأول يختلف عنه في الجزء الثاني ولكنها على كل حال نسخة في جزأيها معتنى بها واضحة موشاة بالحمرة.

* * *

بعد كل هذا العرض السريع لابد لنا أن نتساءل متوقفين وفي أنفسنا شيء كبير من مسؤولية: أين هو موضع التراث العظيم من المعاصرة؟ وهل نحن اليوم ننتفع الانتفاع الحق بهذا الذخر الذي اجتهد أسلافنا العظماء أن يخلفوه لنا؟ كيف يمكن لنا أن نفتخر بلغتنا وعروبتنا وأصالتنا ونحن نضع هذا الإرث على الرفوف ونقطع صلتنا به أو نجعلها صلة واهية واهنة... الجهد الذي يقوم به بعض الدارسين جهد مشكور معترف به، أفيكفي هذا ويغني، أيجزئ ويفي تجاه ما عندنا من كنوز؟ إن على الأمة الأصيلة التي تبتغي مكانة متميزة بين شعوب الأرض أن تحافظ على أصلها، وليس الحفاظ على الأصل كلام أجوف نردده في كلامنا وفي كتبنا بعبارات جوفاء لا تعني شيئاً. كثيراً ما نقول ونعيد: إننا صانعو حضارة مشرفة أسدت إلى الإنسانية خدمات جلى ونستشهد بكلام فلان وفلان من الغربيين ثم تنتهي المشكلة ولا نسأل أنفسنا وماذا صنعنا

نحن. يجب أن نسأل أنفسنا سؤالاً جاداً: كيف يمكن أن نستفيد الفائدة الكاملة مما تركه علماء الأمة وأحبارها ونوليه أهميته ونميز الغثاء منه من الثمين.. كيف تنعكس عظمة أمتنا فينا فنبدع مثلهم ونسير على خطاهم ونكون أمة عظيمة صانعة أمجاد.

أهم شيء في تراثنا لغتنا الأصيلة المعجزة التي انتشرت مع الفتح في الشرق والغرب، يجب أن يتقن الناشئة هذه اللغة ويتمكنوا منها أي تمكن ويحسنوا التعبير بها بيسر وسهولة.. لا يكفي أن تكون مناهجنا المدرسية عربية بل يجب أن تكون عريقة أصيلة كان التعليم عندنا ذات يوم أعجمياً فلما قامت الثورة العربية تولى مجمع دمشق أمر التعريب وما كلية الطب عندنا إلا شاهد صدق على ذلك ونجح في مهمته نجاحاً باهراً وما ذلك إلا لحماسته من جهة ولأصالة اللغة العبقرية من جهة أخرى. وإلى جانب هذه الخطوة المجمعية الحميدة كان المجمع يتولى تقويم الاعوجاج اللغوي من خلال مهاجمة بعض الكتبة الذين ينشرون في الصحف والمجلات فيتتبع أخطاءهم بروح من الغيرة الواضحة.. وأتت هذه الطريقة أكلها ونفعت حتى جعل الناشرون يفكرون قبل أن يقدموا على الكتابة. ونحن نأمل اليوم أن يتابع مجمع اللغة العربية أعماله كما عودنا في الطليعة حافظاً للغة راعياً لها يحمل الشعلة النيرة التي يمشي في ركابها أولو العلم والمعرفة، وكأن لبيداً رضي الله عنه يقول فيه:

أنا إذا التقت الجامع لم يزل منا لزازُ عظيمة جشامها
من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سُنَّة وإمامها

الهوامش:

1 ـ انظر مقدمات الأجزاء التي أخرجها المجمع. وانظر أيضاً الكتابين اللذين أصدرتهما وزارة التعليم العالي بمناسبة مهرجان ابن عساكر سنة 1979.

2 ـ انظر مقدمة الكتاب.

3 ـ انظر مقدمة الكتاب.

4 ـ انظر مقدمة الكتاب.

5 ـ انظر مقدمة الكتاب.

6 ـ انظر مقدمة الكتاب.

7 ـ انظر مقدمة الكتاب.

8 ـ انظر مقدمة الكتاب

قراءة في مخطوطات المكتبة الوطنية الجزائرية

الحلقة الثالثة - الجزء الثاني (تابع*)

مخطوطات شروح ألفية ابن مالك

د. محمد عيسى وموسى

جـامعي

- رابعا: شرح لشرح متن الألفية

نتناول في القسم الرابع من البحث نماذج من شروح لشروح الالفية:

1/ شرح خالد الأزهري من القرن التاسع المسمى التصريح لمضمون التوضيح لشرح ابن هشام من القرن الثامن المسمى أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك المعروف بالتوضيح.

2/ شرح البطيوي من القرن الحادي عشر المسمى حاشية البطيوي على شرح المكودي أو المباحث الفاسية على شرح المكودي على ألفية ابن مالك من القرن الثامن.

3/ شرح الإسقاطي من القرن الثاني عشر، المسمى تنوير الحالك على منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، على شرح الأشموني من القرن التاسع المسمى منهج السالك إلى ألفية ابن مالك.

العدد التاسع - جوان 2009 ، ص 213-236

1- خالد الأزهري 838-905هـ / 1434-1499م

هو خالد بن عبد الله بن محمد ويسمى أيضا الوقاد واشتهر بالأزهري نسبة إلى الأزهر حيث درَّس. انتقل إلى القاهرة حيث درس العربية والمعاني والبيان والأصول والمنطق كان عالما بالنحو. وقد برع في العربية ودرَّسها وقد حظي الأزهري بشهرة كبيرة خاصة بفضل مصنفاته التي كانت تعتمد في التدريس بالأزهر والزيتونة والقرويين من آثاره: « المقدمة الأزهرية في علم العربية » و « موصل الطلاب إلى قواعد الاعراب» و«شرح الأجرومية » و« التصريح بمضمون التوضيح » وهو موضوع البحث، و« شرح البردة » و« شرح مقدمة الجزرية في التجويد » و« الألغاز النحوية » (موسوعة أعلام العلماء العرب والمسلمين ج1 ص: 529 والمعجم المفصل في اللغويين العرب ج1 ص: 216).

تدل وفرة نسخ خالد الأزهري في شرح ابن هشام على الألفية مدى اهتمام النحاة بألفية ابن مالك الأندلسي واعتمادهم عليها في الدراسة والتدريس وفي هذا المجال نتصفح خمس نسخ محفوظة في المكتبة الوطنية الجزائرية.

الأولى: هي الجزء الأول والثاني كاملة عدد أوراقها 232, تجليد أصلي، الخط مغربي واضح بالأسود والأحمر، في آخرها ذكر للناسخ وتاريخ النسخ. أثّرت الرطوبة على وضوح الخط في أوراق كثيرة، رقمها 102. والثانية: هي الجزء الأول كاملة من الحجم الكبير، بخط رقيق جدا ولكنه واضح بالأسود والأحمر، عليه آثار الرطوبة وقد أثّرت على النص في بعض أوراقه، عدد أوراقها 133, رقهما 103.

الثالثة: أثّرت العوامل الطبيعية في تلف بعض أجزاء المخطوط وتآكل أوراقه وفقدان الكثير من المعلومات بسبب استعمال الشريط اللاصق الذي عمل على طمس النصوص. رقم المخطوط 104 عدد أوراقه 269.

الرابعة: رقمها 106 مثل السابقة تلف وتآكل ورطوبة، وخط مغربي رديء، عدد أوراقه 272. الخامسة: رقمها 107، الجزء الثاني من الشرح عدد أوراقها 274، خط مشرقي جميل واضح، النسخة كاملة، في آخرها: تم شرح توضيح الشيخ العلامة جمال الدين بن هشام للشيخ العلامة المرحوم الشيخ زين الدين خالد النحوي الأزهري... وذلك في حادي عشر شوال من شهور سنة أربع وثلاثين وألف على يد علي الدمياطي بن حسن البغدادي.

نموذج:1- بداية المخطوط الورقة 2 ظهر

2 ـ سبب التأليف وتحديد منهجه في عشرة أمور لكل أمر فائدة

العنوان: التوضيح بمضمون التوضيح الجزء الأول والثاني

المؤلف: الأزهري، خالد بن عبد الله

رقم المخطوط: 102 المكتبة الوطنية الجزائرية

اللوحة رقم 10

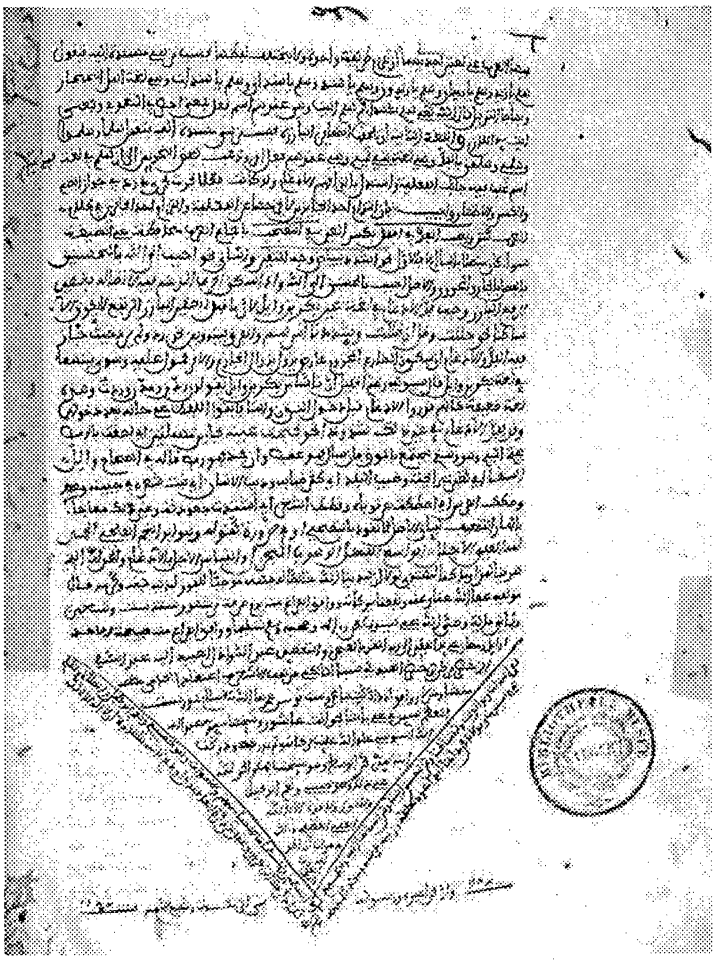

نموذج: 1- نهاية المخطوط

2- تاريخ التأليف 9 ذو الحجة 896هـ

3- الناسخ وتاريخ النسخ ومكانه

العنوان: التصريح بمضمون التوضيح

المؤلف: الأزهري، خالد بن عبد الله

رقم المخطوط: 102 المكتبة الوطنية الجزائرية

يتبع هذه الخلاصة في الوصف، عرض لنماذج عن النسخة الأولى رقم 202 والنسخة الثانية رقم 204.

- المخطوط رقم 102 ج1 و2: على [الورقة 2 وجه] التمليك مع ختم صاحبه، نصه:

الحمد لله تملكه فقير ربه وأسير ذنبه محمد العربي بن محمد بن عيسى.

أول المخطوط:(الورقة 2 ظهر)، فيقول العبد الفقير إلى مولاه الغني، خالد بن عبد الله الأزهري.

ثم أثنى على ابن هشام بقوله: لم يأت أحد بمثاله ولم ينسج ناسج على منواله. ثم يوضح المراد من وضع الشرح على التوضيح ويعلن عن تسمية شرحه قال: شرحت شرحا كشف خفاياه وأبرز أسراره وخباياه، وباح بسره المكتوم وجمع شمله بأصله المنظوم، وسميته: التصريح بمضمون التوضيح. ووشحته بعشرة أمور مهمة مشتملة على فوائد جمة (اللوحة رقم 9).

آخره: قال مؤلفه عفى الله عنه ونفعنا ببركاته: ووافق الفراغ منه يوم عرفة من شهور سنة ستة وتسعين وثمانمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما. ثم يقول الناسخ:

ووافق الفراغ منه صبيحة الأحد أوائل رمضان على يد الفقير إلى ربه المقر بالعجز والتقصير عبد الله وأذل العبيد إليه العبدي نسبا، المالكي مذهبا، الأشعري اعتقادا، الحامي منشأ ومنزلا. ووافق إذ كتبها بالمحروسة تونس -عمرها الله بالإسلام- بمدرسة المعظم سيدي علي باشا بحوانت

عاشور، وشيخها سيدي عبد الله السنوسي عاد الله علينا بركاته، ولم ندركه وأدركنا ابنه سيدي محمد، وهو شيخنا بها والحمد لله على ذلك وهو حسبي ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين سنة 1182 [اللوحة رقم 10].

- المخطوط رقم 104: وهو الجزء الثاني من التصريح ولكن بدايته من الجزء الأول وفي نهاية المخطوط حرَّف الناسخ الذي هو علي بن التهامي عبارة المؤلف الذي ذكر فيها تاريخ انتهائه من التأليف فكتب: قال مؤلفه ووافق الفراغ منه يوم الجمعة عند الضحى. الصحيح يوم الأحد المبارك قبل الزوال ثالث عشر من شهر ربيع الثاني سنة تسع وخمسين وتسع مائة 959هـ [اللوحة رقم 11].

والمعروف أن المؤلف توفي قبل هذا التاريخ بكثير، والصحيح هو ما جاء في المخطوط 102 والمخطوط 107 وفيهما العبارة السابقة بهذا الشكل: قال مؤلفه عفى الله عنه ونفعنا ببركته ووافق الفراغ منه يوم عرفة من شهور سنة ستة وتسعين وثمانمائة 896هـ.

إن أقرب نسخة إلى عهد المؤلف هي النسخة 107 للناسخ علي الدمياطي بن حسن البغدادي في شوال 1034هـ، تليها النسخة رقم 106 لحسن بن محمد بن يحيى الحسني في 7 صفر 1116هـ، ثم النسخة رقم 102 للناسخ العبدي نسبا الحامي منشأ. وأبعد نسخة رقمها 104 للناسخ علي بن التهامي في 2 جمادى الأولى 1196هـ، وهي النسخة التي حدث فيها الخطأ المذكور.

اللوحة رقم 11

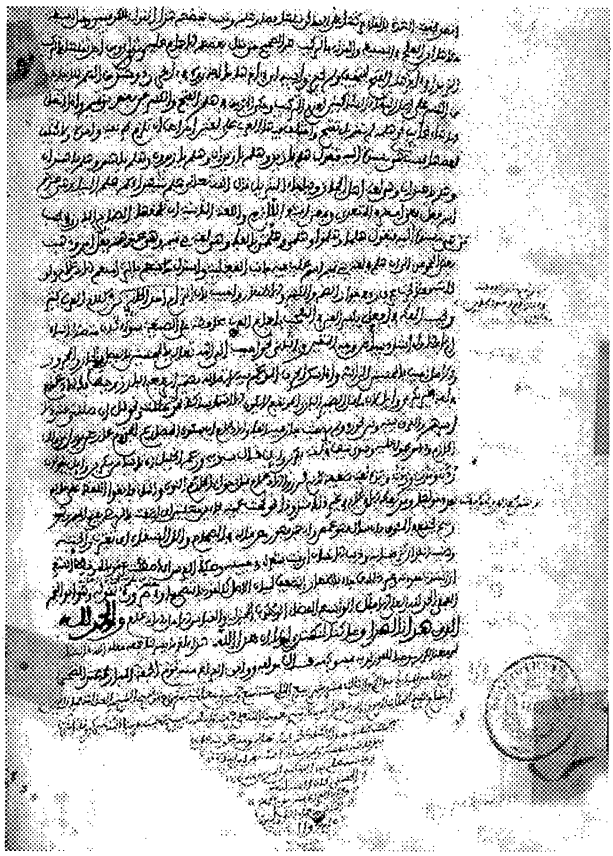

نموذج: 1- نهاية المخطوط

2- نموذج تحريف الناسخ علي بن التهامي نص المؤلف فيما يخص تاريخ الفراغ من التأليف قال: قال مؤلفه ووافق الفراغ منه يوم الجمعة المبارك عند الضحى، والصحيح يوم الأحد المبارك قبل الزوال ثالث عشر من شهر ربيع الثاني سنة تسع وخمسين وتسعمائة. وفي النسخ الأخرى وهو الصحيح: 9 ذي الحجة 896هـ.

العنوان: التصريح بمضمون التوضيح الجزء الثاني

المؤلف: الأزهري، خالد بن عبد الله

رقم المخطوط: 104 المكتبة الوطنية الجزائرية

2- شرح البطيوي من القرن الحادي عشر المسمى حاشية البطيوي على شرح المكودي أو المباحث الفاسية على شرح المكودي على ألفية ابن مالك من القرن الثامن

- وصف المخطوط: رقم 91

على الورقة قبل صفحة العنوان وثيقة حكم قاضي قسنطينة الذي أصدر حكما بمنع بيع المخطوط لأنه حُبس المسجد. نص الحكم:

وثيقة تحبيس المخطوط

الحمد لله هذا الكتاب المسمى بحاشية البطيوي على شرح المكودي على ألفية ابن مالك رحمه الله تعالى آمين حبس من أحباس الجامع الأعظم الكائن بالقصبة من قسنطينة اشترى من فاضل غلاته لانتفاع طلبته به قراءة ونسخا وغيرهما. وبعد تقرير ما ذكر أراد الناظر على الجامع المذكور بيعه وإضافة ثمنه لريع الجامع المذكور ليصرفه فيما هو أهم من ذلك من إمامه وخدمته وغير ذلك، محتجا بأنه ليس محبسا، فرفع الأمر إلى الشيخ القاضي الواضع طابعه أعلاه دام عزه وعلاه، فمنعه من ذلك وحكم بأنه حبس معتمدا في ذلك على مشهور المذهب من أن ما اشتري من ريع الحُبس حُبسٌ، لا يجوز بيعه بحال كما في المعيار وغيره حكما تاما، نفذه وأمضاه وسوغه وارتضاه وأوجب العمل بمقتضاه. شهد عليه حفظه الله بما نسب إليه فيه وهو بحال كمال الإشهاد عليه وذلك بتاريخ أواخر ربيع الثاني عام 1196 ستة وتسعون ومائة وألف [اللوحة رقم 12].

أوله: [الورقة 1 ظهر] الحمد لله الذي أنزل باللسان العربي الفرقان وجعله حجة ناسخة لغيره... وبعد هذا فصل القول في فضل اللغة العربية والحث على تعلمها والعناية بعلومها.

وفي [الورقة 2 وجه] أفاض البطيوي في قيمة شرح المكودي ثم وضح طريقة تناوله لشرحه، وبيّن كيف جمع مادته عن شيوخه. وهذه مقتطفات من تقديم البطيوي حيث التصريح بعنوان الكتاب:

(الورقة 2 وجه)

وكان من أجل ما ألف في علم العربية ألفية ابن مالك الذي عم في الإسلام نفعها، وانتشر في الآفاق والأقطار فضلها، وكان من جملة شروحها ما وضعه عليها الشيخ الإمام والأستاذ أبو زيد عبد الرحمن المكودي النسب، الفاسي الدار فصار بين الناس علما يهتدى به في الآفاق... لبيان عباراته لجزالة وتحرير أنقاله أو مبانيه، يقتنيه المقبل ويقتفيه، ويستحسنه الغير سلفا وخلفا بنعم المقتنى والاقتفاء وكان الأشياخ رحمهم الله لكثرة اعتنائهم به ودراستهم له يباحثون في بعض ألفاظه ينقرون عن معانيه وغوامضه، ويفهمون أشياء يسيرة من مقاله وإعرابه مع اعترافهم بتحقيقه والنفع به، فاهتممت بجمع ما تلقيته منهم واستفدته من مجالسهم ووجدته بخطوطهم على متون شروحهم وربما زدت بعض أشياء ظهرت لي ببركتهم وقد سبقني لهذا الجمع بعض العصريين ممن قرأت عليهم وسبقه هو أيضا بعض أشياخه ممن قرأ عليهم، إلا أنني لم أقف على شيء من ذلك التقييد إلى الآن مع وجوده عندهم

وعدم تعذره لديهم للاكتفاء بالمشافهة عن المطالعة وقد ذكر السيوطي أن لشيخه عبد القادر المكي حاشية على هذا الشرح أيضا فلم يصل بهذا البلاد بعد. وسميته بالمباحث الفاسية على شرح المكودي [هذا العنوان الذي ذكره البطيوي هو غير العنوان المشار إليه في وثيقة تحبيس المخطوط وهو: حاشية البطيوي على شرح المكودي] وها أنا في المقصود وبالله أستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم: قوله... [اللوحة رقم 13].

(في هامش الورقة إن الشيخ عبد القادر المكي شيخ السيوطي له حاشية على المكودي إلا أنها لم تصل إلى مدينة فاس زمن المكودي).

آخره: كمل بحمد الله وحسن عونه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد.

اللوحة رقم 12

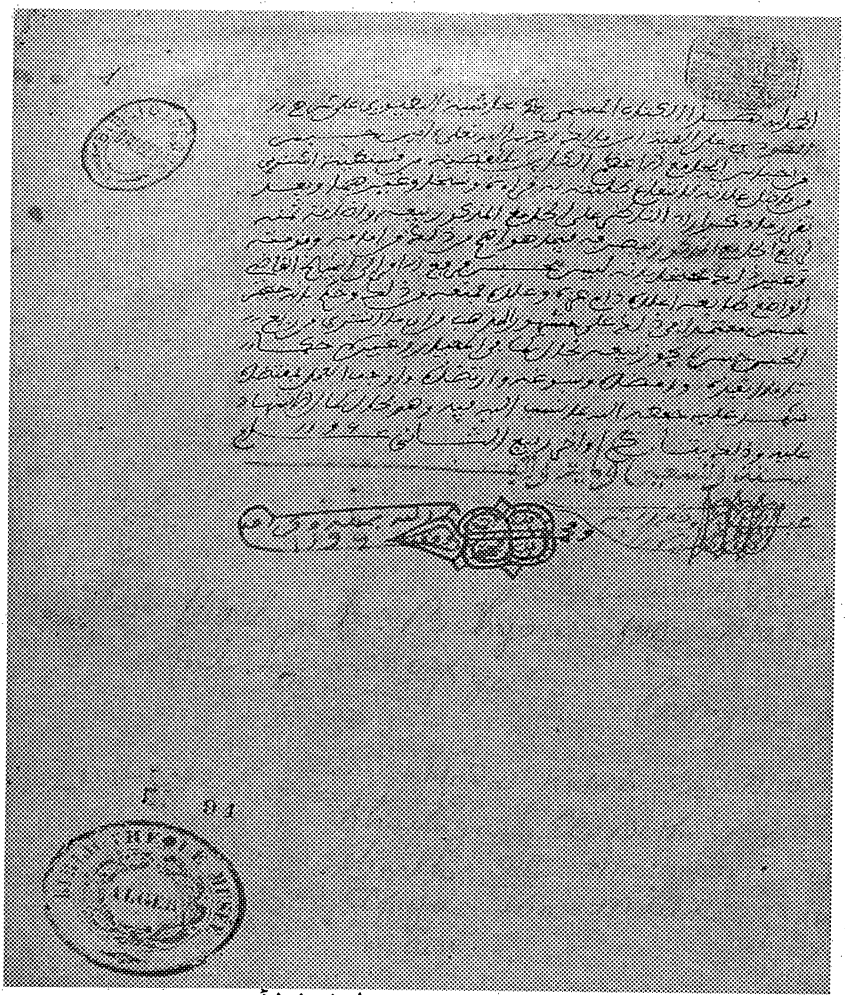

نموذج: وثيقة حكم القاضي بمنع بيع المخطوط لأنه حبس

العنوان: حاشية البطيوي على شرح المكودي أو المباحث الفاسية على شرح المكودي

المؤلف: البطيوي، عيسى بن محمد

رقم المخطوط: 91 المكتبة الوطنية الجزائرية

اللوحة رقم 13

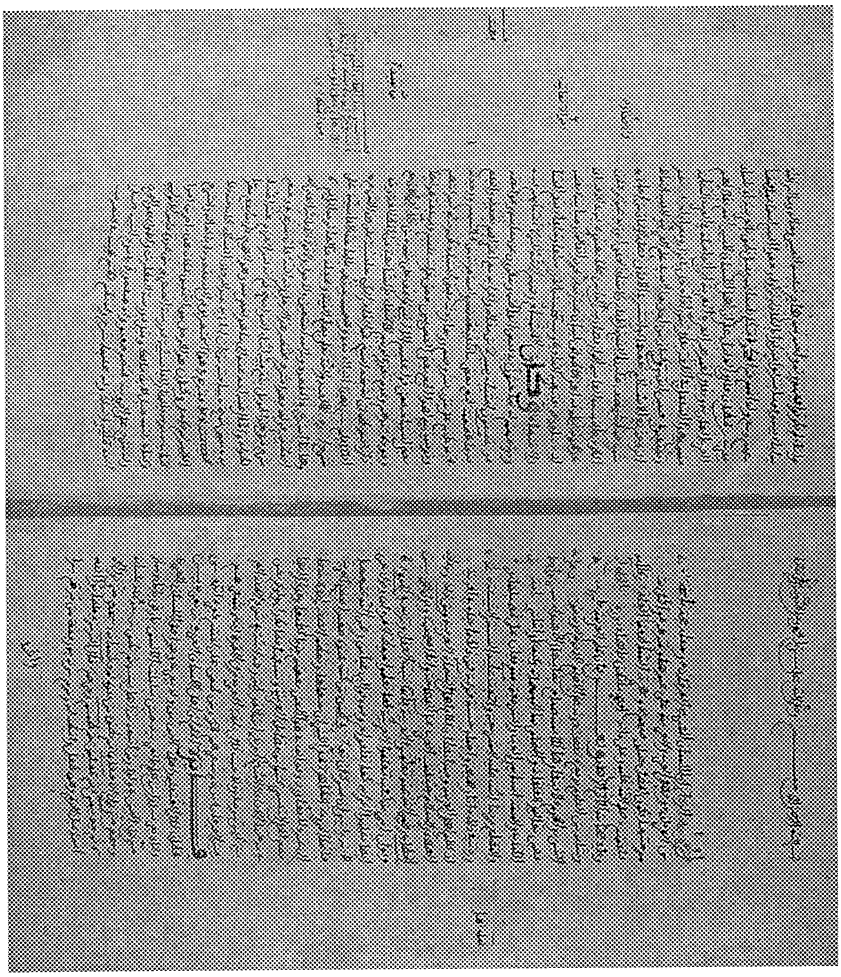

نموذج: 1- بداية المخطوط

2- قال: سميته المباحث الفاسية على شرح المكودي (الورقة 2 وجه)

العنوان: حاشية البطيوي على شرح المكودي على الألفية أو المباحث الفاسية على شرح المكودي

المؤلف: البطيوي، عيسى بن محمد

رقم المخطوط: 91 المكتبة الوطنية الجزائرية

3- شرح الإسقاطي من القرن الثاني عشر، المسمى تنوير الحالك على منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، على شرح الأشموني من القرن التاسع المسمى منهج السالك إلى ألفية ابن مالك

الإسقاطي أحمد بن عمر ...-1159هـ / ...-1746هـ.

نحوي مقرئ فقيه مشارك في بعض العلوم من مؤلفاته:

- تنوير الحالك على منهج السالك إلى ألفية ابن مالك في النحو
- القول الجميل على شرح ابن عقيل.
- حل المشكلات في القراءات.
- حاشية على شرح العصام على السمرقندية في البلاغة.

المخطوط رقم 100

عدد أوراقه 338 خط مغربي واضح بالأسود والأحمر

أوله: [الورقة 1 ظهر] يقول العبد الفقير إلى لطف مولاه الجلي والخفي، أبو الفتح أحمد بن عمر الإسقاطي الحنفي، بصره الله بعيوب نفسه، وجعل يومه خير من أمسه.

الحمد لله رافع الدرجات لمنخفض الجناب... وبعد فهذه فوائد وضعتها على شرح الألفية للعلامة الأشموني طيب الله ثراه، وجعل الجنة مأواه، تقيد مطلقه، وتفتح مغلقه، وتبين شواهده، وتسهل لقارئه مقاصده، أمرني بجمعها قدوة العارفين، وعمدة العلماء العاملين، ذو

الفضل المأثور، شيخي وأستاذي العلامة الشيخ محمد أبو السعود أبو النور... وسميتها: تنوير الحالك على منهج السالك إلى ألفية ابن مالك وها أنا أذكر رموز الكتب التي نقلت منها، فالباء الموحدة لحاشية الشهاب بن قاسم العبادي... إلخ [اللوحة رقم: 14]..

تمليكات: الورقة وجه.

آخره: (الورقة 338 ظهر) وكان الفراغ من كتابة هذه الحاشية المباركة في أواخر جمادى الثانية من شهور سنة 1176 ستة وسبعين ومائة وألف على يد أسير ذنبه وأفقر الورى لعفو ربه، محمد بن عبد الله بن أحمد... [اللوحة رقم: 15].

اللوحة رقم 14

نموذج: 1- بداية المخطوط

2- عنوان المخطوط

العنوان: تنوير الحالك على منهج السالك إلى ألفية ابن مالك

المؤلف: الإسقاطي، أحمد بن عمر

رقم المخطوط: 100 المكتبة الوطنية الجزائرية

اللوحة رقم 15

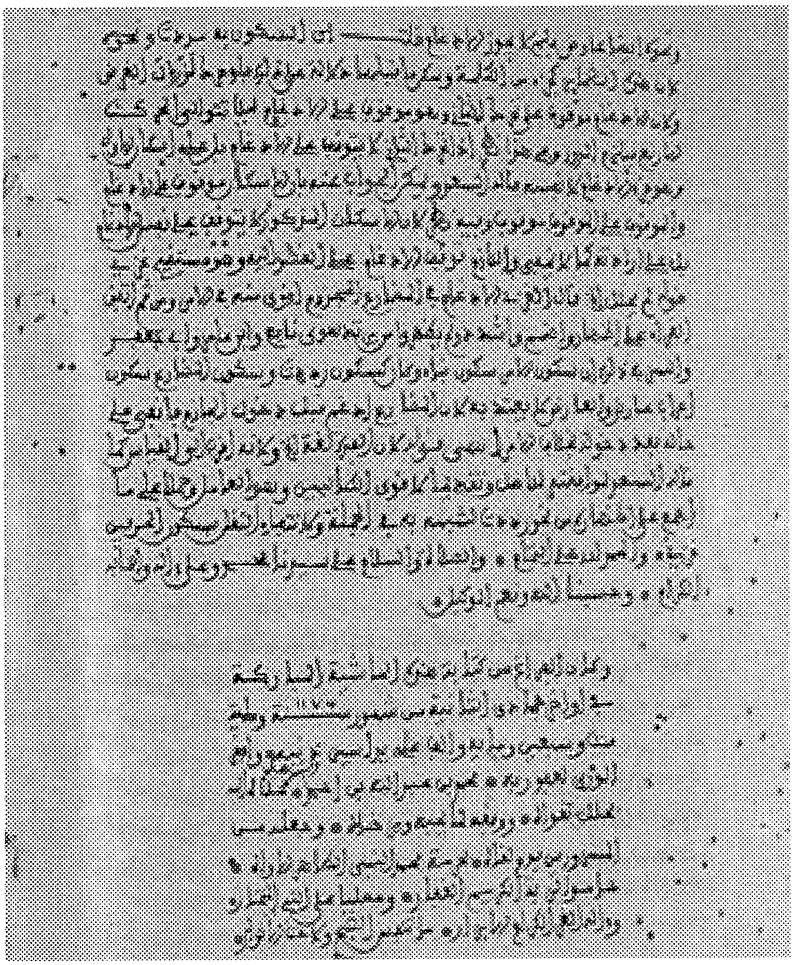

نموذج: 1- نهاية المخطوط

2- الناسخ وتاريخ النسخ

العنوان: تنوير الحالك على منهج السالك إلى ألفية ابن مالك

المؤلف: الإسقاطي، أحمد بن عمر

رقم المخطوط: 100 المكتبة الوطنية الجزائرية

خامسا: إعراب متن الألفية

الأزهري، خالد بن عبد الله 838-905هـ / 1434-1499م

تمرين الطلاب في صناعة الإعراب

على الورقة الأولى: معرب الألفية - تمرين الطلاب

يظهر في [الورقة 3 وجه] عنوان المخطوط، يمكن قراءته بمشقة، قال: وسميته تمرين الطلاب على الإعراب (وسط السطر السابع) [اللوحة رقم 16].

يعد هذا المخطوط مثالا للمخطوطات التي أصابها التلف فطمست الكتابة بفعل الرطوبة والماء، أثر ذلك على الحبر فانمحى الخط وأصبح أبيضا. يقرأ بعضه بمشقة، بقي سالما ما كتب باللون الأخضر أو الأحمر.

أفاض المؤلف في إعراب متن الألفية، ولكن النص لم يكتمل

أوله: الحمد لله الذي رفع قدر من أعرب... وتوقف الشرح عند البيت 554 المشار إليه في الورقة الأخيرة [اللوحة رقم 17].

انتهى

اللوحة رقم 16

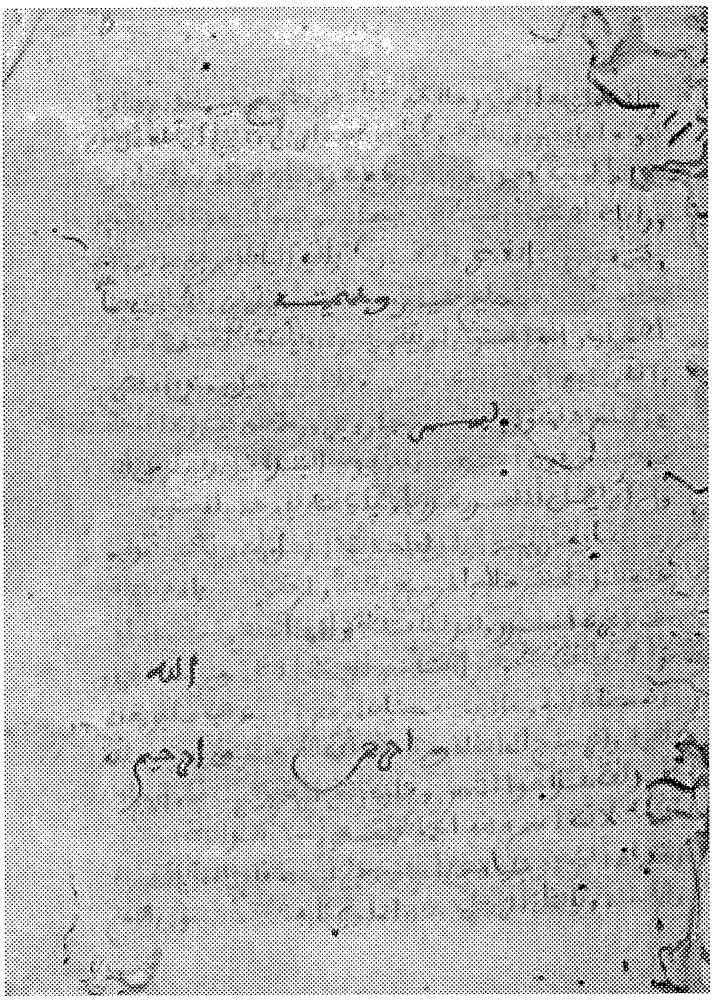

نموذج: 1- أول المخطوط

2- عنوان المخطوط من النص

العنوان: تمرين الطلاب على الإعراب

المؤلف: الأزهري، خالد بن عبد الله

رقم المخطوط: 108 المكتبة الوطنية الجزائرية

اللوحة رقم 17

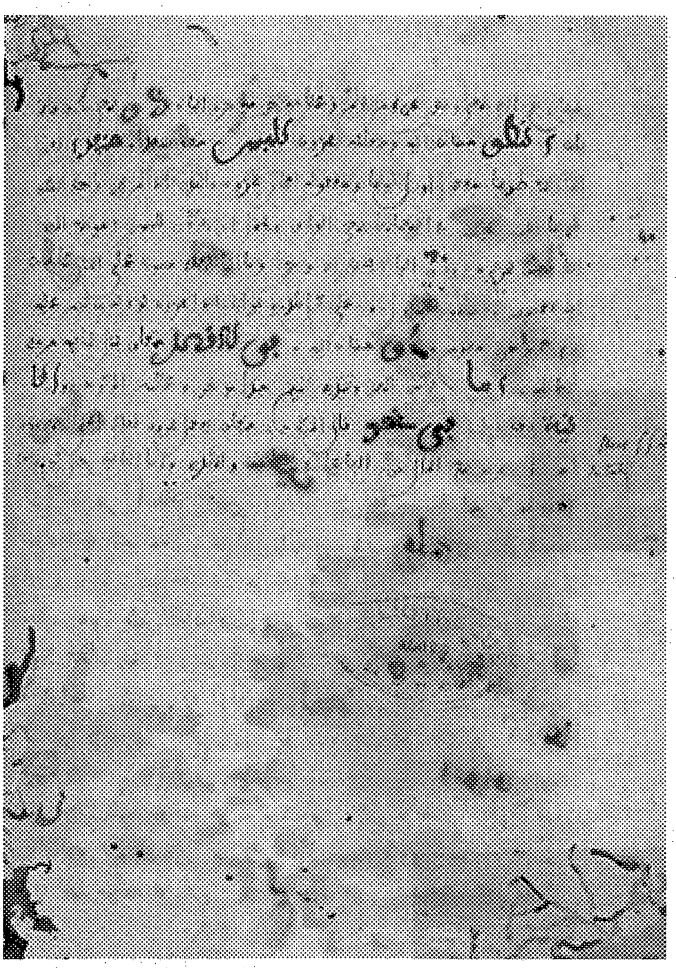

نموذج: 1- آخر المخطوط

2- مخطوط لم يكتمل، يظهر على يمين النص رقم 554 وهو رقم البيت الذي انتهى إليه الإعراب

العنوان: تمرين الطلاب على الإعراب

المؤلف: الأزهري، خالد بن عبد الله

رقم المخطوط: 108 المكتبة الوطنية الجزائرية

المصادر المخطوطة في المكتبة الوطنية الجزائرية

1- البهجة الوفية بحجة الخلاصة الألفية / الغزي، محمد بن محمد

رقم المخطوط: 109.

2- التصريح بمضمون التوضيح / الأزهري، خالد بن عبد الله

رقم المخطوط: 102.

* نسخة أخرى رقم المخطوط: 104

* نسخة أخرى رقم المخطوط: 106

* نسخة أخرى، الجزء1 رقم المخطوط: 103

* نسخة أخرى، الجزء2 رقم المخطوط: 107

3- تقييد طرر ونكت وفوائد / ابن مجبر، محمد بن أحمد المساوي

رقم المخطوط: 110

* نسخة أخرى رقم المخطوط: 111

4- تمرين الطلاب في صناعة الإعراب / الأزهري، خالد بن عبد الله

رقم المخطوط: 108

5- تنوير الحالك على منهج السالك إلى ألفية ابن مالك / الإسقاطي، أبو الفتح أحمد بن عمر

رقم المخطوط: 100

6- شرح مختصر على ألفية ابن مالك / الزياتي، حسن

رقم المخطوط: 112

7- المباحث الفاسية على شرح المكودي للألفية / البطيوي

رقم المخطوط: 91

8- منهج السّالك إلى ألفية ابن مالك / الأشموني، علي بن محمد بن عيسى ج1

رقم المخطوط: 92

9- منهج السالك إلى ألفية ابن مالك / الأشموني، علي بن محمد بن عيسى ج2

رقم المخطوط: 93

* نسخة أخرى رقم: 94

* نسخة أخرى رقم: 95

* نسخة أخرى رقم: 96

البنية الصرفية
وأثرها في التعبير الاستعاري

د/خالد بوزياني
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة عمار ثليجي الأغواط

الملخص:

تتمحور المسألة التي أطرحها في هذا البحث في مدى التأثير الذي تمارسه البنية الصرفية في التشكيل الاستعاري كأداة من أدوات بناء الصورة الشعرية من حيث الجوانب االدلالية.

ذلك أن كل البنى الصرفية تساعد على إعادة تشكيل المعاني وترتيبها وفق ما تقتضيه السياقات من خلال جملة من البدائل التي يعتمد عليها الشاعر.

إن أول سؤال يمكننا طرحه هنا: ما هو التأثير الذي يحدثه التشكيل الصرفي على التعبير الاستعاري والصور البلاغية بصفة عامة، وما هو النشاط الدلالي الذي تمنحه البنية الصرفية للصورة الشعرية؟

إن صفة الفاعل والمفعول والصفة المشبهة وصيغ المبالغة والتفضيل وجميع الأبنية الصرفية الأخرى تساعد على تشكيل المعنى والدلالة بفضل ما تمارسه هذه العناصر من نشاط على المستوى المعجمي وعلاقته بتأديته المعنى.

فمن حيث الصور الإعرابية [1] نجد أن هذه الصفات تشبه الأسماء والأصل فيها الإعراب وذلك بخلاف الحروف والأدوات والأفعال التي هي مبنية، وتتميز الصفات عن الأفعال في توفرها على معان توجب الاختلال كالفاعلية والمفعولية والإضافة، أما الأفعال والأدوات فإن صيغها تدل على معانيها، كما تقبل الصفات الجزم والإعراب والتعريف والتصريف، فنقول: الضاربان زيدا والضاربون زيدا[2]. وفي قوله عز وجل «والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة»[3].

ويتميز الجانب الدلالي في الاسم كونه يمكن أن يعرف على شيء يكون دالا على معنى نفسه وذلك خلاف الصفة التي لا تدل على مسمى وإنما عن مطلق حاضر أو غائب بواسطة قرائن يتضام معها ويفتقر إليها[4].

وإن كانت الصفة لا تدل على معنى في ذاته فإنها تلعب دورا خطيرا في تلوين المعنى والدلالة عبر النشاط الصرفي وأثره في تشكيل الصورة الأدبية عن طريق الصيغ المختلفة والأدبية المتنوعة.

وسأتتبع بعض الظواهر الصرفية فيما يلي:

اسم الفاعل:

اسم الفاعل من الصيغ التي لها تأثير كبير على المعاني وذلك أثناء التشكيل الصرفي للصورة البلاغية، وسأتتبع بشيء من الاختصار ما جاء عند سيبويه ثم أحاول أن أركز على ما تحدثه هذه الصيغة من دلالة على المستوى الشعري والصورة بصفة عامة.

يرى سيبويه[5] أن اسم الفاعل الذي يجري مجرى الفعل المضارع في المفعول يؤدي المعنى نفسه كقولنا، هذا ضارب زيدًا غدًا معناه وعمله مثل هذا يضرب زيدًا غدًا، ونقول هذا ضاربٌ عبد الله الساعة فمعناه وعمله مثل هذا يضرب زيدا الساعة واسم الفاعل في هذه الحالة يلزمه التنوين.

كقوله امرئ القيس :

إني بحبلك واصل حبلي وبريش نبلك رائش نبلي

إن صيغة اسم الفاعل في **واصل ورائش** أضفت على المعنى شحنة عاطفية بفضل دلالة الاستمرارية والتواصل بين الحبلين ربما قد لا يؤدي الفعل مثل هذه الوظيفة الانفعالية التي تحققت بواسطة التشكيل الصرفي للصورة في بيت امرئ القيس، وإن كان الفعل يؤدي المعنى نفسه كما ذكر سيبويه.

ويقول زهير:

بدا لي أني لست مدرك ما مضى ولا سابقا شيئا إذا كان جائيا

وهنا أيضا ندرك ما أحدثته صيغة فاعل في(سابقا) من أثر جمالي على المعنى ومن وقع عاطفي يحمل معنى العجز أمام الزمن الذي لا يمكنه أن

يغير فيه شيئا يذكر ماضيا كان أم مستقبلا، يضاف إلى ذلك ما يسببه التنوين من موسيقى تجعلنا تنجذب أكثر إلى محاولتنا الاقتراب من ذات الشاعر المتألمة.

وقد يحذف التنوين للتخفيف بدون أن يغير ذلك في المعنى من شيء، يقول سيبويه في ذلك: «وليس بغير كف التنوين إذا حذفته مستخفا شيئا من المعنى ولا يجعله المعرفة»[6]، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:«كل نفس ذائقة الموت»[7]، وقوله عز وجل: إنا مرسلو الناقة، وقوله أيضا«ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم»[8]، إن المعنى الذي أحدثته صيغة ناكسوا غاية في البلاغة والبيان بفضل التصوير القرآني للهيئة التي يكون عليها المجرمون عند ربهم وهم مطأطئو رؤوسهم يغشاهم الندم والحسرة والألم، والصورة بهذا الشكل أحدثت وقعا انفعاليا ينذر المجرمين بسوء عاقبتهم ويتوعدهم بالعذاب الأليم.

وفي قوله تعالى:« فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم» [9].

إن عبارة عارض ممطرنا توحي بالخوف والفزع من العذاب وصيغة ممطرنا جاءت على وزن مفعل اسم فاعل للفعل المزيد أفعل أمطر و«نا» ضمير متصل في محل نصب مفعول به لمعمول اسم الفاعل، أما من الناحية المعجمية فإن لفظة (مطر) تدل على العذاب، وقد يكون المطر ماء أو حجرا لقوله تعالى:« وأمطرنا عليهم حجارة»، إن العلاقة بين البنية المعجمية والبنية الصرفية للكلمة هي التي حددت العلاقة الدلالية الأساسية ليصبح المعنى من اسم الفاعل عارض الوعيد والعذاب الأليم.

وقد تحدث سيبويه[10] عن اسم الفاعل الذي يعرّف بالألف واللام ينصب الاسم الذي يليه أو يجره كقولنا: هذا الشراب زيدا، كقوله عز وجل:«والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة»[11] وهنا أيضا نلاحظ مدى تأثير الصيغة ملتقطي جاءت على وزن مفتعلي لتحدث بذلك صورة من يلتقط من القمامة ما يتركه الناس، وهي تجسيد له تأثيره المعنوي لغرض الهجاء، والصورة بهذا الشكل ذات تأثير بالغ كون الالتقاط من الناحية المعجمية هو أخذ ما رمي في الأرض وفيه معنى الإذلال والمهانة.

صيغ المبالغة في اسم الفاعل:

لنتأمل أبيات الخنساء:

وإن صخرا لمقدام إذا ركبوا و إن صخرا إذا جاعوا لعقار
جلد جميل المحيّا كامل ورع وللحروب غداة الروع مسعار
حمال ألوية هباط أوديــة شهّـاد أندية للجيش جرار

لقد عرفت الخنساء كيف تشكل الصورة حول خصال صخر بواسطة الأبنية الصرفية لصيغ المبالغة في اسم الفاعل [12].

إن مبدأ المبالغة في هذه الأبيات أساسه ذلك التشكيل الصرفي لأبنية اسم الفاعل وقد وردت على الشكل الآتي :

مسعـــار مقـــدام	مفعـــال
عقّـــار حمـــال هبـــاط شهـــاد جـــرار	فعـــال
جـــلد ورع	فعـــل

إن هذه الصيغ لو جاءت على بنية فاعل لما أدّت هذه الوظيفة الشاعرية التي أحدثت هذا الوقع القوي على مستوى الدلالة والمعنى فلو قالت الخنساء: قادم بدل مقدام أوشاهد بدل شهاد لما حققت الصورة في هذه الأبيات تلك الشحنة العاطفية والانفعالية التي تشكلت من خلال البنية الصرفية لصيغ المبالغة في اسم الفاعل: إضافة إلى ما سببته لفظة مسعار على المستوى المعجمي حيث تعني النار الملتهبة ومنها كلمة السعير، إن القيمة الجمالية التي تشكلت من هذه الصيغة أضافت للصورة.

الصفة المشبهة وأثرها في التشكيل الجمالي للصورة البلاغية:

الصفة المشبهة من الأبنية الصرفية التي تقترب دلاليا إلى التشبيه بل تزيده رونقا وجمالا، وهي لا تعمل عمل الفعل كونها ليست في معنى الفعل المضارع، ولذلك شبهت بالفاعل فيما عملت فيه.

وتقع الصفة المشبهة مضافا كقولنا: هذا حسن الوجه وهذه حسنة الوجه «فالصفة تقع على الاسم الأول ثمّ توصلها إلى الوجه و إلى كل شيء من سببه، كما نقول: هذا ضارب الرجل وهذه ضاربة الرجل إلا أن الحسن في المعنى للوجه والضرب ههنا للأول»[13]

وهنا نلاحظ مدى تأثير الصفة المشبهة في تشكيل التشبيه في قول النابغة:

و نمسك بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سنام

فعبارة أجب الظهر أي هزيلا والصورة هنا تشبيه، حيث شبه النابغة حال قومه وما يصيبهم من ضيق في العيش بعد وفاة النعمان بالبعير الهزيل الذي لا سنام له، والصورة غاية في البراعة والرونق بفعل التأثير الممارس من البنية الصرفية في صيغة الصفة المشبهة من أجب .

لقد لعب التشكيل الصرفي للصورة الشعرية في الشعر العربي القديم دورا مهما عن طريق الصفة المشبهة، يقول أبو زبيد الطائي [14]:

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة محطوطة جدلت شنباء أنيابا

فهذا التشبيه غاية في الحسن، فتشبيهه لهذا الفتاة بكل مقاييس الجمال عند العرب وذلك بفضل ما تمدنا به هذه البنى الصرفية المتمثلة في الصفة المشبهة والتي اكتسبت الدلالة الشعرية تشكيلا جماليا

للعبارة في قوله شنباء أنيابا دلالة طيب الثغر وبريقه وهي صورة حسية تجسدت فيها معاني الجمال و الحسن لهذه الفتاة.

وقالت خرنق وهي من بني قيس [15] :

لا يبعدن قومي الذين هم سم العُداة وآفة الجزر

النازلون بكل تعرك و الطيبون معاقد الأزر

تصف الشاعرة قوة وبأس قومها فهم النازلون في كل معترك لا يخشون الموت ولا يتأخرون في الإقدام على الأعداء بكل قوة و شجاعة ثم بينت في الشطر الثاني عفتهم و شرفهم عبر الكناية في معاقد الأزر التي لا تحل لفاحشة، فالدلالة هنا مرتبطة بما أحدثته الصفة المشبهة في النازلون والطيبون.

أبنية الأفعال الثلاثية المزايدة وعلاقتها بالمعنى والدلالة:

تدخل بعض حروف الزيادة على الأفعال الثلاثية فتلون المعنى وتضيف إليه معنى جديدا من خلال البنية الصرفية التي تتشكل فيها هيئة الفعل ومن ذلك:

1- بناء (أفعل):

ويدل على التعدية والصيرورة، أو الدخول في الشيء ومصادفة الشيء على صفته وقد يفيد القوة والسلب أو الإزالة والتعريض.

2- بناء(فعل):

ويفيد التكثير والتعدية وإثبات الشيء أو إقراره ونسبة الشيء إلى أصل الفعل والسلب، كقولنا كسرته وقطعته ومزقته وقوله تعالى: «كل ممزق»[16]

يقول سيبويه:«و اعلم أن التخفيف في هذا جائز كله عربي إلا أن فعلت إدخالها هنا لتبيين الكثير»[17]

يقول عز وجل:«وغلقت الأبواب»[18] إن صيغة الفعل تدل على تكثيف الحدث فلو جاء الفعل على صيغة فعلت (غلقت) لما أدى الوظيفة نفسها التي أدتها بنية فعل من إحكام لغلق الأبواب ثم إن صيغة فعل لا تتناسب دلاليا مع كلمة الأبواب و نميز بين أربع جمل:

1- غلَقت الأبواب 3- غلَقت الباب

2- غلَّقت الأبواب 4- غلَّقت الباب

من الناحية الدلالية الجملة الثانية تتناسب مع المعنى لأن غلق الباب إذا كان مفردا أما مع الجملة الرابعة فالمعنى يتكثف أكثر حين يحكم غلق الباب على سبيل المبالغة، أما الجملة الأولى فلا تتناسب دلاليا مع المعنى ذلك أن صيغة غلق قد تنطبق على المفرد وأكثر من تطابقها مع الجمع عكس الجمل الثالثة التي يتحقق فيها التناسب الدلالي.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:«و فجرنا الأرض عيونا»[19]

وقد يأتي المصدر من الفعل فعل منصوبا مثل كسرته تكسيرا وعذبته تعذيبا وقد يأتي مجرور الأول فتقول كلمته كلاما وحملته حمالا[20] كما في قوله تعالى:«وكذبوا بآياتنا كِذابا»[21]

3 ـ بناء (تفاعل):

ويفيد المشاركة في الفعل بالتساوي كقولنا: تقاتل زيد مع الأسد أي اشتركا في القتال دون أن تكون الغلبة لأحدهما على الآخر.

4- بناء (فاعل):

ويفيد المشاركة أيضا مع الغلبة للفاعل كقولنا:قاتل زيد الأسد أي اشتركا معا في القتال و كانت الغلبة لزيد كقوله تعالى:«قاتلوهم يعذبهم الله...» [22] وهذا معنى قول سيبويه: «وقد تجيء فاعلت لا تريد بها عمل الاثنين ولكنهم بنوا عليه الفعل كما بنوه على أفعلت»[23]

5- بناء (افتعل):

يدل على المطاوعة و الاتخاذ

6- بناء (انفعل):

ويفيد المطاوعة والامتزاج بالحدث، كقولنا كسرته فانكسر وحطمته فانحطم وغممته فاغتم وانغم[24]

ويمكننا توضيح ذلك كله في الجدول الآتي

الصيغة	المعنى
انفعـــل	يفيد المطاوعة
افتعـــل	يفيد المطاوعة والاتخاذ والمشاركة
تفعـــل	يفيد المطاوعة والاتخاذ والتكلف
تفاعـــل	يفيد المطاوعة والمشاركة والتساوي
فاعـــل	يفيد المطاوعة مع الغلبة في الحدث
افعـــل	يدل على الصفة مثل احمر
استفعـل	يفيد الطلب والتحول والتشبه بالشيء
افعوعـل	و تفيد المبالغة (تقوية المعنى و توكيده)

المصدر:

يأتي المصدر على غير الفعل لكن المعنى يبقى واحد بدون أي تغيير كقوله تعالى:«والله أنبتكم من الأرض نباتا»[25] ففي هذه الآية جاء الفعل على صيغة (أفعل) لكن المصدر جاء على صيغة (فعال) بدل (إفعال) وفي قراءة ابن مسعود:«و أنزل الملائكة تنزيلا»[26] ويرى سيبويه هنا أن معنى أنزل ونزل واحد، قال القطامي :

وخير الأمر ما استقبلت منه و ليس بأن تتبعـــه اتباعا

فالمعنى واحد سواء في الفعل تتبعت أو اتبعت.[27]

المصدر الرباعي:

ونلاحظ هنا أيضا فاعلية النشاط الصرفي في المصدر الرباعي في (فعللة) و (فعلال) نحو : دحرجته دحرجة وزلزلته زلزلة وكذلك زلزلته زلزالا وسرهفته سرهافا[28] كما في قوله تعالى:«زلزلوا زلزالا»

المصدر الميمي على وزن مفعل كقوله عز وجل: أين المفر[29] يريد أين الفرار.[30]

تلعب الفروق المعجمية دورا أساسيا في التأثير الدلالي الذي تحدثه في تشكيل المعاني الجمالية للصور البلاغية، وذلك من خلال الاستعمالات والسياقات المختلفة، فلو أخذنا على سبيل المثال كلمتي، حبط وهبط ، فنلاحظ أن الكلمتين تشتركان في الجذر (بط) تختلفان في الفونيم (ح) و (هـ) وهذا الفونيم هو الذي أكسب الكلمة معنى جديدا فالمعنى الأول في كلمة (هبط) هو النزول أي نزول يعقبه إقامة لقوله تعالى:«قلنا اهبطوا منها جميعا»[31].

وقوله تعالى أيضا« اهبطوا مصر»[32]، أما كلمة (حبط) فلها معنى آخر وهو ما فسد من الأعمال يقول الأزهري« الحبط وجع يصيب البعير في بطنه من كلأ يستوبله.. ،إذا عمل الرجل عملا ثم أفسده، حبط عمله ، وأحبطه ، صاحبه وأحبط الله أعمال من يشرك به»[33].

فالمعنى الأول هو الوجع والمعنى الثاني هو الفساد أي التحول من حال حسنة إلى حالة سيئة تحيلنا إلى معنى النزول والسقوط، قال تعالى:«وحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيمة وزنا»[34].

وقد يستعمل الشعراء بعض الألفاظ للدلالة على معان أخرى على سبيل التشبيه والاستعارة كما في قول الشاعر: [35]

تصيح الردينيات فينا وفيكم صياح بنات الماء أصبحن جوعا

الردينيات الرماح وبنات الماء المراد بها هنا الضفادع والمعنى أن وقع الرماح فيهم عند المطاعنة لها صوت مثل صوت بنات الماء وهي جائعة ، وتطالع في فروق اللغة أن الصياح«رفع الصوت بما لا معنى له وربما قيل للنداء صياح، فأما الصياح فلا يقال له نداء إلا إذا كان له معنى...والصياح لا يكون إلا للحيوان»[36]، ولذا نجد الشاعر شبه صراخ ونداء الأعداد تحت طعن الرماح بصياح الضفادع على سبيل التشبيه، أما على سبيل الاستعارة، فإن الرماح لا تصيح وإنها تحدث أصوات القتال كما عبر عن ذلك المتنبي:

بناها فأعلى والقنا تقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم

وهكذا فإن البنية المعجمية في صياح ألبست الصورة البلاغية معنى جديدا يشدنا انفعاليا بهول المعركة وقوة القتال.

ونتأمل كيف انتقل معنى الإصغاء إلى الميل على سبيل الاستعارة في قوله تعالى:«قد صغت قلوبكما»[37] فالبنية المعجمية صغت احتفظت في استعمالها الاستعاري بالمعنى المعجمي الذي وضع لها وهو طلب إدراك المسموع بإمالة السمع إليه، يقال صغا يصغوا إذا مال[38], وبالتالي يصبح معنى الآية مالت قلوبكما، وفي الصحاح صغا يصغو ويصغي صغوا أي نال وصغت النجوم أي مالت للغروب[39].

ونلاحظ في كلمة الدراية التي تفيد العلم لقول العجاج

يا رب لا أدري وأنت الداري *

وهي بمعنى الفهم ولنفي سوء عما يرد الإنسان فيدريه أي يفهمه لكن المعنى الأول الذي وضع لهذه البنية المعجمية هو اختل، يقول أبو هلال العسكري، وحكى بعض أهل العربية أنها مأخوذة من دريت إذا اختلت وأنشد:

يصيب فما يدري و يخطي فما درى

أي ما اختل فيه يفوته وما طلبه من الصيد بغير ختل يناله[40]

وفي الصحاح درى الصيد يدريه دريا ختله قال الشاعر: ابن الداعي النميري السكيت

فإن كنت لا أدري الظباء فإنني أدس لها تحت التراب الدواهيا

وقال ودريت فلانا أدريه دريا ختلته وأنشد :

فإن كنت قد أقصدتني إذ رميتني بسهمك فالرامي يصيد وما يدري

لقد استعاد الشعراء المعنى الأول لكلمة درى لتصبح جزءا من التعبير وإن تغيرات الدلالة إلا أن الرجوع إلى الأصل المعنى يؤكد

حقيقة النشاط الاستعاري الذي يعيد الشاعر تركيبه ما دام الأصل الأول للمعاني ويكمن ضمن هذا التعبير الاستعاري.

الهوامش

1 ينظر تامر سلوم ، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي ، ص 68

2 ينظر سيبويه ، الكتاب 198/1

3 سورة النساء 162 .

4 ينظر تمار سلوم ، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي ، ص 67

5 ينظر سيبويه ، الكتاب 1 /164

6 سيبويه ، الكتاب 166/1

7 سورة آل عمران الآية 185 .

8 سورة القمر ، الآية 27

9 سورة الأحقاف الآية 24

10 ينظر سيبويه الكتاب 1/ 180

11 سورة النساء الآية 162 .

12 ينظر سيبويه الكتاب 4 /256

13 المرجع نفسه13

14 الشاهد من كتاب سيبويه ، 198/1

15 الشاهد من كتاب سيبويه 1 /202

16 سورة سبأ الآية 19

17 سيبويه الكتاب 64/4

18 سورة يوسف الآية 34

19 سورة القمر الآية 12

20 سيبويه الكتاب 79/4

21 سورة النبأ الآية 28

22 سورة التوبة الآية 14

23 المرجع السابق 68/4

24 المرجع السابق 65/4

25 سورة نوح الآية 17

26 سورة الفرقان الآية 25

27 ينظر سيبويه الكتاب 82/4

28 ينظر المرجع نفسه 85/4

29 سورة القيامة الآية 10

30 المرجع السابق 87/4.

31 سورة البقرة ، الآية 38

32 سورة البقرة الآية 61

33 الأزهري ، تهذيب اللغة ، مادة «حبط»

34 سورة الكهف

35 ينظر ديوان الحماسة .

36 أبو هلال العسكري ، الفروق في اللغة ، الطبعة الخامسة ، دار الآفاق الجديدة 1981 ،ص 30 .

37 سورة التحريم الآية

38 المرجع السابق ،ص 81

39 الجوهري : الصحاح مادة صغا

40 أبو هلال العسكري ، الفروق في اللغة ، ص 84

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية ـ الجزائر
2010
Achevé d'imprimer sur les presses
ENAG, Réghaïa
- Algérie -
Bp 75 Z.I. Réghaïa Tél: (021) 84 85 98 / 84 86 11

الإيداع القانوني : 2005-1513
ISSN : 1112-65-23 ردمد